

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة النحل

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوي
الأستاذ بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

﴿ ربنا تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم ﴾

[الجزء الرابع عشر]



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه .
أما بعد : فقد سبق لي - بحمد الله وتوفيقه - أن قمت بتفسير سور : الفاتحة ،
والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ،
والتوبة ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم ، والحجر .

وهأنذا أقدم للقارئ الكريم تفسير سورة النحل ، وقد حاولت فيه أن
أكشف عما اشتملت عليه السورة الكريمة من توجهات سامية ، وآداب عالية ،
وإرشادات حكيمية ، ومجادلات بالتي هي أحسن .

وقد مهدت لتفسيرها بكلمة ، بينت فيها زمان نزولها ، وعدد آياتها . وسبب
تسميتها بهذا الاسم ، والمقاصد الإجمالية التي اشتملت عليها .
والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجه الكريم ، ونافعا لعباده ،
وشفيحا لنا يوم نلقاه - سبحانه - .

وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

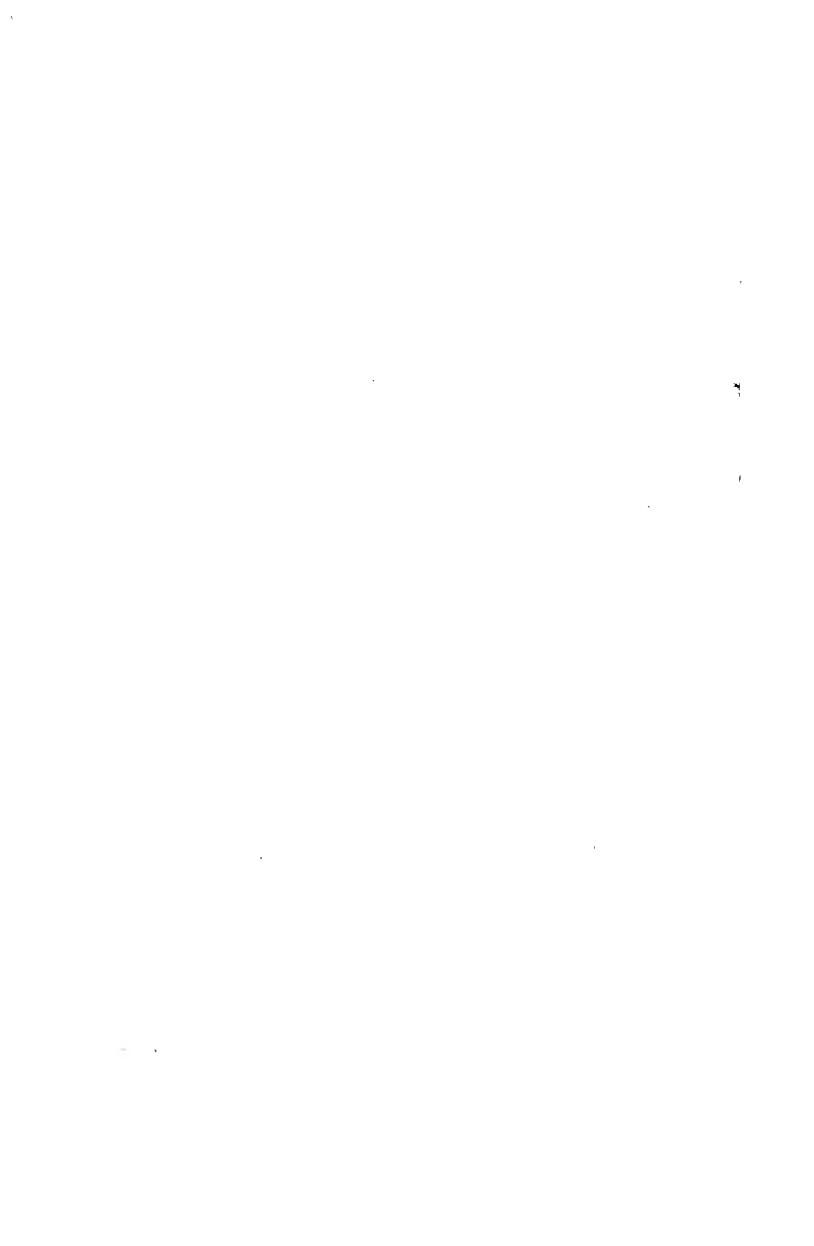
المدينة المنورة في : غرة المحرم سنة ١٤٠٤ هـ ١٠/٧/١٩٨٣ م .

المؤلف

محمد سيد طنطاوي

الأستاذ بجامعة الأزهر

كلية أصول الدين



تعريف بسورة النحل

١ - سورة النحل هي السورة السادسة عشرة في ترتيب المصحف ، فقد سبقتها سورة : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم ، والحجر .

أما في في ترتيب النزول ، فكان ترتيبها التاسعة والستين ، وكان نزولها بعد سورة الكهف (١) .

٢ - وعدد آياتها ثمان وعشرون ومائة آية .

٣ -- وسميت بسورة النحل ، لقوله - تعالى - فيها ، « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ... » (٢) .

وقسمي - أيضا - بسورة النعم ، لأن الله - تعالى - عدد فيها أنواعا من النعم التي أنعم بها على عباده .

٤ -- وسورة النحل من السور المكية : أي التي كان نزولها قبل الهجرة النبوية الشريفة .

قال القرطبي : وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وتسمى سورة النعم بسبب ما عدد الله فيها من نعمه على عباده . وقيل : هي مكية لإلقائه - تعالى - وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ... الآية . نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحمزة وقتلى أحد ... (٣) .

(١) الإتيان في علوم القرآن - ١ ص ٢٧ طبعة المعهد الحسيني . تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

(٢) الآية رقم ٦٨ . (٣) تفسير القرطبي - ١٠ ص ٦٥ .

وقال الألوسي : وأطلق جمع القول بأنها مكية . وأخرج ذلك ابن مردويه عن ابن عباس ، وابن الزبير - رضي الله عنه - . وأخرجه الفحاس من طريق مجاهد عن الخبر أنها نزلت بمكة سوى ثلاث آيات من آخرها ، فإنهن نزلن بين مكة والمدينة في منصرف النبي - صلى الله عليه وسلم - من غزوة أحد ، (١) . والذي تطمئن إليه النفس ، أن سورة النحل كلها مكية ، وذلك لأن الروايات التي ذكروها في سبب نزول قوله - تعالى - ، وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عاقبتهم به . . . الخ السورة ، فيها مقال فقد ذكر الإمام ابن كثير عند سردها ، أن بعضها مرسل وفيه مبهم ، وبعضها في إسناده ضعف . . . (٢)

هـ - (١) وإذا ما قرأنا سورة النحل بتدبر وتفكير ، نراها في مظهرها تؤكد أن يوم القيامة حق ، وأنه آت لا ريب فيه ، وأن المستحق للعبادة والطاعة إنما هو الله الخالق لكل شيء .

قال - تعالى - : أتى أمر الله فلا تستعجلوه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ، أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون .

(ب) ثم نسوق ألوانا من الأدلة على وحدانية الله وقدرته ، عن طريق خلق السموات والأرض وخلق الإنسان والحيوان ، وعن طريق إنزال الماء من السماء ، وتسخير الليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم . . . وغير ذلك من النعم التي لا تحصى .

استمع إلى بعض هذه الآيات التي تحكي جانباً من هذه النعم فتقول : خلق السموات والأرض بالحق ، تعالى عما يشركون خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون .

ونحمل أفعالكم إلى بلدكم لعلكم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم .

(١) تفسير الألوسي ١٤ - ٨٩ (٢) راجع تفسير ابن كثير ٢ - ص ٩٦ هـ

ثم تقول : وأنتي في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم .

(ح) وبعد أن توبخ السورة المشركين لتسويبتهم بين من يخلق ومن لا يخلق تحكى جانباً من أقاويلهم الباطلة التي وصفوا بها القرآن الكريم ، وتصور استسلامهم لقضاء الله العادل فيهم يوم الحساب ، فتقول : « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا : أساطير الأولين . ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة . ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون . . . »

إلى أن تقول : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، فأنزلوا السلم ما كنا نعمل من سوء ، بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون . فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبس مشوى المتكبرين . »

(د) وكعادة القرآن الكريم في قرنه الترغيب بالترهيب ، وفي عقده المقارنات بين مصير المؤمنين ومصير الكافرين ، جاءت الآيات بعد ذلك لتبشر المتقين بحسن العاقبة .

جاء قوله - تعالى - : وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً ، للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين . . .

(هـ) ثم تعود السورة الكريمة مرة أخرى إلى حكاية أقوال المشركين حول مسألتين من أخطر المسائل ، وهما مسألة الهداية والإضلال ، ومسألة البعث بعد الموت بعد أن حكمت ما قالوه في شأن القرآن الكريم .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى أقوالهم ثم يرد عليها بما يبطلها فيقول : وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من شيء نص ولا آباءونا ولا حرمنا من دونه من شيء . كذلك فعل الذين من قبلهم ، فهل على الرسل إلا البلاغ المبين . ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ،

فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذابين .

إن تحرص على هدايتهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين . وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ليسين لهم الذي يختلفون فيه ، وإيعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين .

(و) ثم تهدد السورة الكريمة أولئك الجاحدين لنعم الله ، الماكرين للسيئات ، بأسلوب يستثير النفوس ويبعث الرعب في القلوب ، وتدعوهم إلى التأمل والتفكير في ملكوت السموات والأرض ، لعل هذا التفكر يسكون سببا في هدايتهم ، وتخبرهم بأن الله - تعالى - هو الذي تهاهم عن الشرك ، وهو الذي أمرهم بإخلاص العبادة له . . .

استمع إلى القرآن وهو يصور هذه المعاني بأسلوبه البديع فيقول : أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض ، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون . أو يأخذهم في تقلبهم فاهم بمعجزين . أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم . أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفوق ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داحرون .

ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون . وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون . . .

(ز) ثم انتقلت السورة إلى سرد أنواع من جهالات المشركين ، ومن سوء تفكيرهم ، حتى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، ويشكروا الله - تعالى - على توفيقه لإيادهم إلى الدخول في الإسلام .

لقد ذكرت السورة الكريمة ألوانا متعددة من جهالات الكافرين ، ومن ذلك قوله - تعالى - :

ويجمعون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم ، تافه لئسان عما كنتم تفكرون .
ويجعلون لله البغات سبحانه ولهم ما يشتهون ...
ويجعلون لله ما يكرهون ، ونصف السننهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم
أن لهم النار وأنهم مفرطون .

(ح) هكذا تصور سورة النحل ما كان عليه المشركون من غباء وغفلة وسوء
تفكير ، ثم تعود - سورة النعم - مرة أخرى إلى الحديث عن نعم الله -
تعالى - على عباده ، فتمتحدث عن نعمة الكتاب ، وعن نعمة الماء ، وعن نعمة
الأنعام ، وعن نعمة النمار والفواكه ، وعن نعمة العسل المتخذ من بطون النحل
وعن نعمة التفاضل في الأرزاق ، وعن نعمة الأزواج والبنين والحفدة ...

قال - تعالى - : وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا
فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض
بعد موتها ، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون . وإن لكم في الأنعام لعبرة ، نسقيكم
مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ...

إلى أن يقول - سبحانه - : والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم
من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات ، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله
هم يكفرون .

(ط) ثم تسوق السورة الكريمة مثلين مشتملين على الفرق الشاسع ، بين
المؤمن والكافر ، وبين الإله الحق والآلهة الباطلة ، فتقول : ضرب الله مثلا
عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ، ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا
وجهرا ، هل يستوون ؟ الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون . وضرب الله مثلا رجلين
أحدهما أبكم لا يقدر على شيء ، وهو كل على مولاه أينما توجه لا يأتي بخير
هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم .

(ي) وبعد إيراد هذين المثالين البليغين ، تعود سورة النعم إلى الحديث عن

أنواع أخرى، من نعم الله على خلقه، لكي يشكروه عليها، ويستعملوها فيما خلقت له، فتحدث عن نعمة إخراج الإنسان من بطن أمه، وعن نعمة البيوت التي هي محل سكن الإنسان، وعن نعمة الظلال، وعن نعمة الجبال، وعن نعمة الثياب...

قال - تعالى - : والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تفكرون .

والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها ، أثاثاً ومتاعاً إلى حين ،

والله جعل لكم ما خلق ظلالاً ، وجعل لكم من الجبال أكنافاً . وجعل لكم سراويل تقيكم الحر ؛ وسراويل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون .

(ك) ثم بعد أن تصور السورة الكريمة أحوال المشركين يوم القيامة عندما يرون العذاب ، وتحكي ما يقولون عندما يرون شركاءهم ، وتقرر أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - سيكون شهيداً على من بعث إليهم...

بعد كل ذلك تسوق السورة الكريمة عدداً من الآيات الأمرة بمكارم الأخلاق والناهية عن مفكراتها فتقول : **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ؛ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .** وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ، **إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ .**

(ل) وبعد هذه التوجيهات السامية المشتملة على الترغيب والترهيب ، وعلى الأوامر والنواهي . تحدث آيات السورة عن آداب تلاوة القرآن ، وعن الشبهات التي أثارها المشركون حوله مع الرد عليها بما يدحضها ، وعن حكم من تلفظ

بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان ، فتقول : : فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ...

ثم تقول : : ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون له أعجمي وهذا لسان عربي مبين ...

ثم تقول : : من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ،
(م) ثم تعود السورة الكريمة لضرب الأمثال ، فتسوق مثلا لمكمل قوم أنعم الله عليهم بالنعم فلم يقابلوها بالشكر ، فانتقم الله - تعالى - منهم . كما تسوق جافيا من حياة سيدنا إبراهيم كمال للشاكرين الذين استعملوا نعم الله فيها خلقت له .

استمع إلى قوله - تعالى - : وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان . فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ،

ثم إلى قوله - تعالى - : : إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه اجتنابا وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، .

(ن) وأخيرا تختتم السورة الكريمة ، بتلك الآيات الجامعة لأحكام الأساليب وأكملها وأجلها وأنجمها في الدعوة إلى الله - تعالى - وفي معاملة الناس فتقول : : ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .

وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ، ولئن صيرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ،

٦- وبعد ، فهدّ عرض إجمالى لأهم المقاصد التى اشتملت عليها السورة الكريمة ، ومنه نرى :

(ا) عنايتها الفائقة بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى صدق رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - فى دعوته ، وعلى أن يوم القيامة حق ، وعلى أن القرآن من عند الله - عز وجل - .

(ب) كما نرى تفصيل القول فى بيان آلاء الله - تعالى - على خلقه ، وقد سبجت السورة فى هذا الجانب سبحا عظيما ، فذكرت الإنسان بنعمة خلقه ، وبنعمة تسخير الأنعام والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والماء ، والجبال ، والأشجار . . . كل ذلك وغيره لمنفعته ومصلحته .

(ج) كما فليس اهتماما بضرب الأمثال للمؤمن والمكافر ، والشاكر والجاحد والإله الحق والآله الباطلة . . . وذلك لأن فى ضرب الأمثال تقريب للبعيد وتوضيح للخبئ ، بأسلوب من شأنه أن يكون أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس وأدعى إلى التدبر والتفكير .

(د) كما ندرك حرصها على إبراد أقوال المشركين وشبههم ، ثم الرد عليهم بطريقة تقنع العقول ، وترضى العواطف ، بأن الإسلام هو الدين الحق ، وبذلك يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم .

(هـ) كما نحس عند قراءتها بعنايتها بتوجيه المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ، وأمهات الفضائل ، كالعدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، والوفاء ، والصبر ، والشكر . . . وبنهيم عن الرذائل كالغنىر والجحود ، ونقض العهود ، والاستكبار ، والظلم . . .

وأخيرا فإن المتأمل فى هذه السورة - أيضا - يراها حافلة بأسلوب الترغيب والترهيب ، والتبشير والإنذار ، والوعد والوعيد .

الوعيد للكافرين بسوء المصير إذا ما لجوا فى ضلالهم وطغيانهم كما فى قوله

- تعالى - : « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فارق العذاب بما كانوا يفسدون » .

والوعد للمؤمنين بالحياة الطيبة في الدارين ، كما في قوله - تعالى - :
« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

والآن فلنبدأ في التفسير التحليلي لسورة النعم ، ونسأل الله تعالى - أن
يرزقنا التوفيق والسداد .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(التفسير)

قال تعالى : « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرَكُونَ » (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرَكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ، فإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا لِبَشَرِ الْأَنْفُسِ ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْغَيْلَ وَالْبَغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ، وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) .

افتتحت السورة الكريمة ، بتهديد الكافرين الذين كانوا ينكرون البعث ، وما يقرّب عليه من ثواب أو عقاب ، ويستبددون نصر الله تعالى - لأوليائه ، فقال - تعالى - : « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » ، والفعل « أَتَى » هنا ، بمعنى قرب ودنا بدليل « فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » ، لأن المنهى عن الاستعجال يقتضى أن الأمر الذى استعجل حصوله لم يحدث بعد .

والمراد بأمر الله : ما اقتضته سنته وحكمته - سبحانه - من إنابة المؤمنين ونصرهم ، وتعذيب الكافرين ودحرهم .

والفاء فى قوله « فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » ، للتفريع . والاستعجال : طلب حصول

الشيء قبل وقته . والضمير المنصرب في « تستعجلوه » يعود على أمر الله ، لأنه هو المتحدث عنه ، أو على الله - تعالى - ، فلا تستعجلوا الله فيما قضاه وقدره . والمعنى : قرب ودناجى . أمر الله - تعالى - ، وهو إكرام المؤمنين بالنصر والثواب ، وإهانة الكافرين بالخسران والعقاب ، فلا تستعجلوا .. أيها المشركون .. هذا الأمر ، فإنه آت لا ريب فيه ، وإن كان في الوقت الذى يحدده الله تعالى .. ويثاؤه .

وعبر عن قرب إيمان أمر الله .. تعالى - بالفعل الماضى « أتى » للإشعار بتحقيق هذا الإتيان ، وللتنويه بصدق الخبر به ، لسكان ما هو واقع عن قريب ، قد صار في حكم الواقع فعلا .

وفى إبهام أمر الله ، إشارة إلى تهويله وتعظيمه ، لإضافته إلى من لا يميزه شيء فى الأرض ولا فى السماء .

وقوله « فلا تستعجلوه » زيادة فى الإنذار والتهديد ، أى : فلا جدوى من استعجالكم ، فإنه نازل بكم سواء استعجلتم أم لم تستعجلوا .

والظاهر أن الخطاب هنا للمشركين ، لأنهم هم الذين كانوا يستعجلون قيام الساعة ، ويستعجلون نزول العذاب بهم ، وقد حكى القرآن عنهم ذلك فى آيات .

منها قوله .. تعالى .. : « يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها » ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق . ألا إن الذين يمارون فى الساعة لى ضلال بعيد ، (١)

ومنها قوله سبحانه : « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده . وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » ، (٢)

(١) سورة الشورى . الآية ١٨

(٢) سورة الحج . الآية ٧٥

وقال بعض العلماء : ويجوز أن يكون الخطاب هنا شاملا للمؤمنين ، لأن عذاب الله - تعالى - وإن كان الكافرون يستعجلونه ، تهكما به ، لظنهم أنه غير آت ، فإن المؤمنين يضررون في نفوسهم استبطاءه ، ويحبون تعجيله للكافرين ، (١)

وقوله : « سبحانه وتعالى عما يشركون » جملة مستأنفة ، قصد بها إبطال إشراكهم ، وزيادة توحيدهم وتهديدهم .

أى . نزهه الله - تعالى - وتعاظم بذاته وصفاته ، عن إشراك المشركون ، المؤدى بهم إلى الأقوال الفاسدة ، والأفعال السيئة ، والعاقبة الوخيمة والعذاب المهيئ . وقوله - يشركون : « قراءة الجمهور ، وفيها التفات من الخطاب في قوله « فلا تستعجلوه » إلى الغيبة ، تحقيرا لشأن المشركين ، وحطا من درجتهم عن رتبة الخطاب ؛ وحكاية لشنائعهم التي يتبرأ منها العقلاء .

وقرأ حمزة والكسائي « تشركون » تبعا لقوله - تعالى - « فلا تستعجلوه » وعلى قراءتهما لا التفات في الآية .

ثم بين - سبحانه - لونا من ألوان قدرته ، ورحمته بعباده ، حيث أرسل اليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، فقال تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده »

والمراد بالملائكة هنا : جبريل - عليه السلام - ومن معه من حفظة الوحي . أو المراد بهم جبريل خاصة ، ولا مانع من ذلك ، لأن الواحد قد يسمى باسم الجمع إذا كان رئيسا عظيما .

والمراد بالروح : كلام الله - تعالى - ووحيه الذي ينزل به جبريل ، ليبلغه إلى من أمره الله بتبليغه إياه .

وقد جاء ذكر الروح بمعنى الوحي في آيات منها لقوله - تعالى - : « وكذلك

(١) تفسير التحرير والتنوير ، لفضيلة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ... ، (١)

والمعنى : ينزل - سبحانه - الملائكة بكلامه ورحمه ، على من يشاء لإزاهم إليه من عباده المصطفين الأخيار .

وأهلق - سبحانه - عني وحيه اسم الروح ، على سبيل التشبيه : ووجه التشبه ، أن بسببهما تكون الحياة الحقة .

فكما أن بالروح تحيا الأبدان والأجساد ، فكذلك بالوحي تحيا القلوب والنفوس وتزدي رسالتها في هذه الحياة .

وفي قوله - سبحانه - : « من أمره » : إشارة إلى أن نزول الملائكة بالوحي ، لا يكون إلا بسبب أمر الله لهم بذلك . كما قال - تعالى - حكاية عنهم : « وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ، وما كان ربك نسيا ، (٢) » .

وقوله : « على من يشاء من عباده » ، رد على مطالب المشركين المتعنتة ، والتي من بينها ما حكاه الله - تعالى - عنهم في قوله : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ... » (٣)

فالآية السكرية تبين أن نزول الملائكة بالوحي ، إنما هو على من يختاره الله - تعالى - لنزول الوحي عليه ، لا على من يختارونه هم ، وأن النبوة هبة من الله - تعالى - لمن يصطفيه من عباده .

قال - تعالى - : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » (٤) .

(١) سورة الشورى : الآية ٥٢ (٢) سورة مريم : الآية ٦٤

(٣) سورة الزخرف الآية ٣١

(٤) سورة الأنعام الآية ١٢٤

وقوله : « ان أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » ، بيان المقصود من نزول الملائكة بالوحي على الأنبياء .

أى : أنزل - سبحانه - ملائكته به حيه على أنبيائه ، اسكن ينذر هؤلاء الأنبياء الناس ، ويخوفهم من سوء عاقبة الإشرار بالله ، ويدعوم إلى أن يخلصوا لعبادة الله - تعالى - وحده ، ويبينوا لهم أن الألوهية لا يصح أن تكون لغيره - سبحانه - .

قال الألوسى ما ملخصه : وقوله : « أن أنذروا » ، بدل من « الروح » ، على أن « أن » ، هى التى من شأنها أن تنصب المضارع ، وصلت بالامر كما وصلت به فى قولهم : كتبت إليه بأن قم

وجوز بعضهم كون « أن » هنا مفسرة ، فلا و وضع لها من الاعراب ، وذلك لما فى نزل الملائكة بالوحي من معنى القول ، كأنه قيل : يقول - سبحانه - بواسطة الملائكة لمن يشاء من عباده أن أنذروا » (١)

واقصر هنا على الانذار الذى هو بمعنى التخويف ، لأن الحديث مع المشركين ، الذين استعجلوا العذاب ، واتخذوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى . والفاء فى قوله « فاتفقوا » ، فصيغة : أى ، إذا كان الأمر كذلك ، من أن الألوهية لا تكون لغير الله ، فعليكم أن تتقوا عقوبتى لمن خالف أمرى ، وعبد غيرى .

قال الجمل : وفى قوله « فاتفقوا » ، تنبيه على الأحكام الفرعية بعد التنبيه على الأحكام العملية بقوله ، « أنه لا إله إلا أنا » ، فقد جمعت الآية بين الأحكام الأصلية والفرعية ، (٢)

(١) تفسير الألوسى ج ١٤ ص ٩٤

(٢) حاشية الجمل ج ٢ ص ٥٥٧

وبعد أن بين - سبحانه - أنه منزّه عن أن يكون له شريك ، وأنه قد أنزل الملائكة بوحيه على من يشاء من عباد ، وأنه لا إله يستحق العبادة سواه ... بعد كل ذلك بين الأدلة الدالة على قدرته و وحدانيته ، بأسلوب بديع ، جمع فيه بين دلالة المخلوق على الخالق ، دلالة النعمة على منعمها ، ووجع المشركين على شركهم ، تارة عن طريق خلقه وحده - سبحانه - للسموات والأرض ، وتارة عن طريق خلقه للإنسان ، وتارة عن طريق خلقه للحيوان والنبات ، ولغير ذلك من المخلوقات التي لا تحصى ..

قال - تعالى - : «خلق السموات والأرض بالحق ، تعالى عما يشركون» . والباء في قوله «بالحق» ، للدلالة . والحق : ضد الباطل ، وهو هنا بمعنى الحكمة والجد الذي لا هزل فيه ولا عيب معه ، كما قال - تعالى - : «وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعين» . «ما خلقناهما إلا بالحق» .

أي : خلق - سبحانه - بقدرته الفائدة السموات وما أظلت ، والأرض وما أقات ، خلقا ملتبسا بالحكمة الحكيمية ، وبالجدية التي لا يعوم حولها لهو أو عيب .

وقوله «تعالى عما يشركون» ، تنزيه وتقديس لذاته وصفاته ، عما قاله المشركون في شأنه - عز وجل - من أن له ولدا أو شريكا ، قال - تعالى - : «ما اتخذ الله من ولد» ، وما كان معه من إله ، لذا ذهب كل إله بما خلق ، وأهلا بعضهم على بعض ، سبحانه الله عما يصفنون ، (١) .

وقد صدر - سبحانه - هذه الأدلة الدالة على وحدانيته وقدرته ، بخلق السموات والأرض ، لأن خلقهما أعظم من خلق غيرهما ، ولأنهما حاويتان لما لا يحصى من مخلوقاته - سبحانه - .

قال - تعالى - : «خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن

أكثر الناس لا يعلمون ، (١) -

ثم ساق - سبحانه - دليلا آخر على انفراده بالآلوهية عن طريق خلق الإنسان فقال : « خلق الإنسان من نطفة ، فإذا هو خصيم مبين » .

والمراد بالإنسان هنا جنس الإنسان .

وأصل النطفة : الماء الصافي . أو الماء القليل الذي يبقى في الدلو أو القربة ، وجعما : نطف ونطاف . يقال : نطفت القربة إذا قطرت ، أى سال منها الماء وتقاطر .

والمراد بالنطفة هنا : المنى الذى هو مادة التلقيح من الرجل المرأة . والخصيم : الكثير الخصام لغيره ، فهو صيغة مبالغة . يقال : خصم الرجل يخصم - من باب تعب - إذا أحكم الخصومة ، فهو خصم وخصيم .

والمبين : المظهر للحجة ، المفصح عما يريد به ألوان من طرق البيان .

أى : خلق - سبحانه - الإنسان - من منى يمنى ، أى من ماء مهين خلقا عجيبا فى أطوار مختلفة . لا يحكمها عاقل ، ثم أخرجه بقدرته من بطن أمه إلى ضياء الدنيا ، ثم رعاه برعايته ولطفه إلى أن استقل وعقل

حتى إذا ما وصل هذا الإنسان إلى تلك المرحلة التى يحب معها الشكر لله - تعالى - الذى رباه ورعاه ، إذا به ينسى خالقه ، ويجحد نعمه ، وينكر شريعته ، ويكذب رسله ، ويخاصم ويجادل بلسان فصيح من بعثه الله - تعالى - لهدايته وإرشاده ، ويقول - كما حكى القرآن عنه - : « يحىي العظام وهى رميم » .

وإذا فى قوله - سبحانه - « فإذا هو خصيم مبين » ، هى التى تسمى إذا الفجائية التى يؤتى بها لمعنى ترتب الشيء ، على غير ما يظن أن يترتب عليه .

وجهه بها هنا لزيادة التعجب من حال الإنسان ، لأنه كان المنتظر منه بعد أن خلقه الله - تعالى - بقدرته ، وبإه برحمته ورعايته ، أن يشكر خالقه على ذلك ، وأن يخلص العبادة له ، لسكنه لم يفعل ما كان منتظرا منه ، بل فعل ما يناقض ذلك من الإشرار والمجادلة في أمر البعث وغيره .

وشبه هذه الآية الكريمة قوله - تعالى - : « ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ، وكان الإنسان أكثر شيئا جدلا » (١) .

وقوله - تعالى - : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ، وكان الكافر على ربه ظميرا » (٢) .

وبعد أن بين - سبحانه - ما يدل على وحدانيته وقدرته عن طريق خلقه للسموات والأرض والإنسان ، أتبع ذلك ببيان أدلة وحدانيته وقدرته عن طريق الحيوان فقال - تعالى - : « والأنعام خلقها ، لكم فيها ذمم ، ومنافع ، ومنها نأكلون . . . »

والأنعام : جمع نعم ، وهي الإبل والبقر والغنم . وتطلق على الإبل خاصة . وانتصب الأنعام عطفًا على الإنسان في قوله : « خلق الإنسان من نطفة . » ، أو هو منصوب بفعل مقدر يفسره المذكور بعده . أي : وخلق الأنعام خلقها .

والذمم : السخوفة . ويقابلها شدة البرد . يقال : ذم الرجل - من باب طرب - فهو ذمى - كتمب - ودفآن ، إذا لبس ما يدقته ، ويهد عنه البرد . والمراد بالذم ، هنا : ما يتخذ من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها لهذا الغرض .

(١) سورة الكهف الآية ٤٣ .

(٢) الفرقان ٥٥ .

وعطف ، منافع ، على ، دف ، من باب عطف العام على الخاص ، إذ
المنافع تشمل ما يستد فآ به منها وغيره .

وخص الدف ، بالذكر من عموم المنافع ، للعناية به ، ولأنه به بأهميته في
حياة الناس .

أى : ومن مظاهر نعم الله - تعالى - عليكم - أيها الناس - ، أن الله - تعالى -
خلق الأنعام ، وجعل لكم فيها ما تستدفئون به ، من الثياب المأخوذة من
أصوافها وأوبارها وأشعارها ، فتقيمكم برودة الجو وجعل لكم فيها منافع
متعددة ، حيث تتخذون من ألبانها شرابا سائغا للشاربين ، ومن لحومها أكلا
نافعا للآكلين .

وشبه هذه الآية قوله - تعالى - : « وإن لكم في الأنعام لعبرة ، نستقيم
عما بطوننا ، ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون ، » .

وقوله - سبحانه - : « ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، »
بيان لنوع آخر من أنواع منافع الحيوان للإنسان .

قال أبو حيان في البحر : والجمال مصدر جعل - بضم الميم - ، يقال وجل
جميل وامرأة جميلة وجملاء ، قال الشاعر :

فمى جملاء كبر طالع بذت الخلق جميعا بالجمال

والجمال يكون في الصورة بحسن التركيب ، بحيث يدركه البصر فتتعلق به
النفس ...

ويكون في الأخلاق ، بأشتمالها على الصفات الحمودة ، كالألم والعفة والحلم ..
ويكون في الأفعال ، بوجودها ملائمة لمصالح الخلق . ويطلب المنفعة لهم
وصرف الشر عنهم ... (١)

(١) تفسير البحر المحيط ج ٥ ص ٤٧٥ - بتصرف وتلخيص .

وجمال الأنعام من النوع الأول ، ومن جمالها - أيضا - كثرتها ودلائها على صاحبها من أهل السعة واليسار .

وقوله « تريحون » ، من الإراحة ، يقال : أراح فلان ماشيته إراحه ، إذا ردها إلى المراح ، وهو منزلها الذي تأوى إليه ، وتبيت فيه .

و « تسرحون » ، من السروح ، وهو الخروج بها غداة من سظائرهما إلى مسارحها ومراعيها .

يقال : مَرَّحْتُ الماشية أسرحها سرحا وصروحا ، إذا أخرجتها إلى المرعى .

ومفعول الفعليين « تريحون وتسرحون » ، مخدوف للعلم به .

والمعنى : ولستم - أيها الناس - في هذه الأنعام جمال وزينة ، حين تردونها بالعشى من مسارحها إلى معاطفها التي تأوى إليها ، وحين تخرجونها بالغداة من معاطفها إلى مسارحها ومراعيها .

وخص - سبحانه - هذين الوقتين بالذكر ، لأنهما الوقتان اللذان تنزاهى الأنعام فيهما ، وتتجارب أصواتها ذهابا وجيئة ، ويعظم أصحابها في أعين الناظرين إليها .

وقدم - سبحانه - الإراحة على التسريح ، لأن الجمال عند الإراحة أقوى وأبهج ، حيث تقبل من مسارحها وقد امتلأت بطونها ، وحفلت ضروعها ، وازدانت مشيتها . . .

وقال - سبحانه - : « تريحون وتسرحون » ، بالفعل المضارع ، لإفادة التجديد والتكرار ، وفي ذلك ما يزيد السرور بها ، ويحمل على شكر الله - تعالى - على وافر نعمه .

قال صاحب الكشف : « من الله بالتجمل بها ، كما من بالانتفاع بها لأنه . من أغراض أصحاب المواشى . بل هو من معاطفها . لأن الرعيان

إذا روحوها بالعشى ، وسرحوها بالغداة فزينت بإراجحتها وتسريحها الألفية
وتجاوب فيها الثغاء والرغاء ، أنست أهلها ، وفرحت أربابها ، وأجلتهم في عيون
الناظرين إليها ، وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس . .

فإن قلت : لم قدمت الإراحة على التسريح - مع تأخر الإراحة في الوجود ؟

قلت : لأن الجمال في الإراحة أظهر ، وإذا أقبلت ملأى البطون ، حافلة
الضروع ، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها ، (١) .

ثم بين - سبحانه - منفعة ثالثة من منافع الأنعام ، التي سخرها الله - تعالى -
للإنسان فقال : « وتحمل أنفا لكم إلى بلد لم تسكنوا بالفيه الا بشق الانفس
لان ربكم لودف رحيم » .

والضمير في قوله « وتحمل » يعود إلى الإبل خاصة ، لأنها هي التي
يحمل عليها .

والأنفال : جمع نفل . وهو ما يشغل الإنسان حمله من متاع وغيره .
والمراد بالبلد جنسه ، لأن الارتحال قد يكون إلى الشام أو إلى اليمن
أو إلى غيرها .

والثبق - بالكسر - المشقة : ومن كل شيء نصفه . والباء للدلالة على :
الإلحاشقة شديدة . كان نفوسكم قد ذهب نصفها خلال تلك الرحلة الطويلة
الشاقة التي لم تستخدموا فيها الأنعام .

قال القرطبي : وشق الأنفس : ومشقتها وغايه جهدها . وقراءة العامة
بكسر الشين ...

قال المهدوي : وكسر الشين وفتحها في « شق » ، متقاربان . وهما
بمعنى المشقة ...

وقرأ أبو جعفر ، إلا بشق الأنفس ، - بفتح الشين - وهما لغتان مثل
رق ورق ...

والشق - أيضاً - بالكسر - النصف . وقد يكون المراد من الآية - هذا
المعنى . أى : لم تكفروا بالغية إلا بنقص من القوة وذهاب شق منها ... (١)
والمعنى : ومن فوائد هذه الأنعام - أيضاً - ، أنها تحمل أمتعتكم وأثقتكم
من بلد إلى بلد آخر بعيد ، هذا البلد الآخر البعيد ، لم تكفروا وأصلين إليه
بدونها ، إلا بعد تعب شديد ، وجهد مضن ، وكلفة تذهب معها نصف قوتكم ..
والتذكير فى « بلد » لإفادة معنى البعد ، لأن بلوغ المسافر إليه بعسقة ،
هو من شأن البلد البعيد ، الذى يصعب الوصول إليه بدون راحلة .
وجمله « لم تكفروا بالغية إلا بشق الأنفس » التى هى صفة لبلد ، تشير
إلى هذا المعنى .

وشبيهه بهذه الآية قوله تعالى - : ، الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا
منها ، ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع وتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم
وعليها وعلى الفلك تحملون ، (٢) .

وقوله - سبحانه - : « أولم يروا أنا خلقناهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم
لها مالكون ، وذللناها لهم ، فممنها ركبهم ومنها يأكلون » (٣) .
وجمله « إن ربكم لرؤوف رحيم » تعليل لحالقه - سبحانه - الأنعام
لخدمة الإنسان .

أى : خلق لكم هذه الأنعام ، لأن رؤوف رحيم بكم ، حيث لم يترك لكم
تحملون أثقالكم بأنفسكم ، وتقطعون المسافات الطويلة على أرجلكم ، بل

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٧١ .

(٢) سورة غافر الآيتان ٨٩ ، ٨٠ .

(٣) سورة يس . الآيتان ٧١ ، ٧٢ .

أوجد هذه الأنعام لمنافعكم ووصالحكم . ثم ذكر - سبحانه - أنواعا أخرى من الحيوان المستفيع به ، فقال - تعالى - : والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون .

قال الجمل : الخيل اسم جنس لا واحد له من لفظه ، بل من معناه وهو قرس . وسميت خيلا لاختيارها في مشيها . والبغال جمع بغل : وهو المتولد بين الخيل والحمير ... (١)

واللام في قوله : لتركبوها ، للتعليل .

ولفظ : وزينه ، مفعول لأجله ، معطوف على محل : لتركبوها .

والزينة : اسم لما يزين به الإنسان .

قال القرطبي : هذا الجمال والتزيين وإن كان من متاع الدنيا ، إلا أن الله تعالى - أذن به لعباده ، ففي الحديث الشريف : « الإبل عز لأهلها ، والغنم بركة والخيل في أراضيها الخير ، خرجه البرقاني وابن ماجة في السنن ، ... » (٢)

والمعنى : ومن مظاهر فضله تعالى عليكم ، ورحمته بكم ، أنه خلق لمنفعةكم - أيضا - الخيل والبغال والحمير ، لتركبوها في غزوكم وتنفلاتكم ، ولتكون زينة لكم في أفراسكم ومسراتكم .

وأتى - سبحانه - باللام في : لتركبوها ، دون ما بعدها ، للإشارة إلى أن الركوب هو المقصود الأصلي بالنسبة لهذه الدواب ، أما التزيين بها فهو أمر تابع للركوب ومتفرع عنه .

قال صاحب الظلال : وفي الخيل والبغال والحمير ، تلبية للضرورة في الركوب ، وتلبية لحاسة الجمال في الزينة .

وهذه اللفظة لها قيمتها في بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة .

(١) حاشية الجمل على الجلالين > ٢ ص ٤٤٩

(٢) تفسير القرطبي > ١٠ ص ٧٩

فالجمل - المتمثل في الزينة - عنصر له قيمة في هذه النظرة . واهست النعمة هي هي مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب ، بل تلبية الأشواق الزائدة عن الضرورات . تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشمع والانساني المرتفع على ميل الحيوان ، وحاجة الحيوان ،^(١) .

وقال بعض العلماء : وقد استدلت بهذه الآية ، القائلون بتحريم لحوم الخيل قائلين بأن التحليل بالركوب والزينة يدل على أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها ...

وأجاب المجوزون لأكلها ، بأن ذكر ما هو الأغلب من منافعها - وهو الركوب والزينة - لا ينافي غيره ...

وقد ورد في حل أكل لحوم الخيل أحاديث منها ما في الصحيحين وغيرهما ، من حديث أسماء قالت نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم - فرسا فاكلناه

وثبت - أيضا - في الصحيحين من حديث جابر قال : نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن لحوم الحمر الأهلية ، وأذن في الخيل ،^(٢) .

وقد بسط الإمام القرطبي القول في هذه المسألة ، ورجع حل أكل لحوم الخيل ، وساق الأدلة والأحاديث في ذلك ثم قال : وكل تأويل غير ترجيح في مقابلة النص ، فإنما هو دعوى ، لا يلتفت إليه ، ولا يرجع عليه ،^(٣) .

وبعيني في هذه المقام قول الامام البغوي : ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحریم ، بل المراد منها تعريف الله عباده نعمه ، وتنبههم على كمال قدرته وحكمته ، والدليل الصحيح المعتمد عليه في إباحة لحوم الخيل أن السنة مبيحة للكتاب .

(١) تفسير في ظلال القرآن ج ١ ص ٢١٦١ للأستاذ سيد قطب .

(٢) تفسير القاسمي ج ١٠ ص ٣٨٧٠ .

(٣) راجع تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٧١ ، وتفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٧٦ طبعة دار الشعب .

ولما كان نص الآية يقتضى أن الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة ، وكان الأكل مسكوتا عنه ، ودار الأمر فيه على الإباحة والتحرير ، وردت السنة النبوية بإباحة لحوم الخيل ، وبتحرير لحوم البغال والحمير فوجب الأخذ بما جاء فى السنة التى هى بيان للمكتتاب (١) ،

هذا وقد ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على عظيم قدرته ، وسعة علمه ، فقال : - ويخلق ما لا تعلمون . -

أى : ويخلق - سبحانه - فى الحال والاستقبال ، ما لا تعلمونه - أيها الناس - من أنواع المخلوقات المختلفة سوى هذه الدواب ، كالسفن التى تمنخر عباب الماء ، وإطارات التى تشق أجواز الفضاء ، والسيارات التى تنهب الأرض نهبا سرعتها ، وغير ذلك من أنواع المخلوقات التى لا يعلمها سواه - سبحانه - والتى أوجدها لمففعتكم ومصلحتكم ..

وهذه الجملة الكريمة تدل على أن القرآن من عند الله - تعالى - فقد أوجد - سبحانه - العقول البشرية ، التى ألهمها صنع الكثير من المخترعات النافعة فى البر وفى البحر وفى الجو ، والتى لم يكن للناس معرفة بها عند نزول القرآن الكريم ...

وتشير - أيضا - إلى مزيد فضل الله - تعالى - على الناس ، حيث أخبرهم بأنه سيخلق لهم فى مستقبل الأيام من وسائل الركوب وغيرها ، ما فيه منفعة لهم ، سوى هذه الدواب التى ذكرها .

فعليهم أن يستعملوا هذه الوسائل فى طاعة الله - تعالى - ، لافى معصيته وعليهم أن يتقبلوا هذه الدلائل ، وأن ينتحروا عقولهم لكل ما هو نافع .

ورحم الله صاحب الظلال ، فقد قال عند تفسيره الآية ما ملخصه : يعقب الله - تعالى - على خلق الأنعام والخيل والبغال والحمير بقوله ، ويخلق

مالا تعلمون ، ليظل المجال مفتوحاً في التصور البشري ، لتقبل أنماط جديدة من أدوات الحمل والركوب والزينة ...

وحتى لا يقول بعض الناس : إنما استخدم آباءنا الأنعام والخيول والبغال والحمير ، فلا نستخدم سوانا ، وإنما نص القرآن على هذه الأصناف فلا نستخدم ما عداها ...

ولقد جددت وسائل للحمل والنقل والركوب والزينة ، لم يكن يعلمها أهل ذلك الزمان . ستجد وسائل أخرى لا يعلمها أهل هذا الزمان : والقرآن يهيئ لها القلوب والأذهان ، بلا جمود ولا تحجب ، ويخلق مالا تعلمون^(١) . وبعد أن بين -- سبحانه -- دلائل وحدانيته وقدرته ، عن طريق خلق السموات والأرض والإنسان والدواب ... أتبع ذلك ببيان أنه - عز وجل - كفيل بالإرشاد إلى الطريق المستقيم لمن يتجه إليه فقال - تعالى - : وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين .

والقصد : الاستقامة . والسبيل : الطريق . والقصد منه : هو المستقيم الذي لا عوجاج فيه .

يقال : سبيل قصد وقاصد ، أي : مستقيم . قال الشاعر :

ومن الطريقة جائر وهدي قصد السبيل ، ومنه ذو دخل

قال الجمل ، ما ملخصه : وعلى الله ، أي : تفضلاً ، قصد السبيل ، على تقدير مضاف ، أي : وعلى الله بيان قصد السبيل . وهو بيان طريق الهدى من الضلالة ، وهو من إضافة النصف إلى الموصوف ، والقصد مصدر يوصف به . يقال : سبيل قصد وقاصد ، أي : مستقيم ، كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه . والمراد بالسبيل : جنسه ...^(٢)

(١) في ظلال القرآن ج ٤ ص ٢٦١

(٢) حاشية الجمل على الجلالية ج ٢ ص ٥٦١

والضمير في قوله « ومنها جائز » يعود إلى السبيل ، والجائر : المائل عن الاستقامة ، المنحرف عن الجادة وهو صفة لموصوف محذوف . أى : ومنها سبيل جائز .

أى : عن الله - تعالى - وحده ، تفضلا منه وكرما ، بيان الطريق المستقيم وهو طريق الحق ، الذى يوصل من مسلمة إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

وهذا الطريق الحق ، هو الذى جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - .
ومن الطريق ما هو حائد عن الاستقامة ، وهو كل طريق يخالف ما جاء به خاتم الرسل ، - صلى الله عليه وسلم - من عقائد وشرائع وآداب .

قال - تعالى - : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه » . ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . . . » (١) .

فالمراد بالطريق القصد : الطريق الموصل إلى الإسلام . والمراد بالطريق الجائر : الطريق الموصل إلى غيره من ملل الكفر والضلال .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ، ببيان أن الهداية والإضلال بقدرته ومشيئته ، فقال - تعالى - : « ولو شاء لهداكم أجمعين » .

أى : لو شاء - سبحانه - هدايتكم - أيها الناس - إلى الطريق المستقيم ، لهداكم جميعا ، وإمكانه - عز وجل - لم يشأ ذلك ، بل اقتضت حكمته أن يخلق الناس مستعدين للهدى والضلال ، وأن يترك لهم لاختيار أحد الطريقين فكان منهم من استحب العمى على الهدى ، وكان منهم من سلك الطريق المستقيم . وسيجازى - سبحانه - الذين أسأوا بما عملوا ، وسيجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

قال تعالى - : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . إنا هدبناه السبيل . إنا شاكر أوليا كهورا » (٢) .

وقال - سبحانه - : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا . . . » (١) .

و بعد أن بين - سبحانه - جانباً من مظاهر فضله على عباده عن طريق خلق الأنعام وغيرها من البهائم ، التي لهم فيها منافع ، أتبع ذلك ببيان نعمه عليهم في إنزال المطر ، فقال - تعالى - :

« هو الذي أنزل من السماء ماء ، لكم منه شرابٌ ، ومنه شجرٌ فيه تَسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ ، وَالنَّخِيلَ ، وَالْأَعْنَابَ ، ومن كل الثمرات ، إن في ذلك لآيةً لقومٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) :

والمراد بالسماء : السحاب المرتفع في طبقات الجو ، حيث ينزل منه الماء بقدره الله - تعالى - والشراب : اسم للمشروب الذي يشربه الإنسان والحيوان رغيرهما .

والشجر : يطلق على النبات ذى الساق الصلبة على سبيل الحقيقة ، ويطلق على العشب والكلأ على سبيل المجاز ، وهو المراد هنا ، لأنه هو الذي ترعاه الأنعام .

والضمير في قوله - سبحانه - « ومنه شجر » يعود على الماء ، باعتباره السبب في وجود الشجر .

قال الآلوسى : قوله - سبحانه - « ومنه شجر » أى : نبات مطلقاً سواء أكان له ساق أم لا . كما نقل عن الزجاج ، وهو حقيقة في الأول : ومن استعماله في الثانى قول الراجز :

نعلفها اللحم إذا عز الشجر والخيل في إطعامها اللحم ضرر

فإنه قيل : الشجر فيه بمعنى الكلأ ، لأنه الذى يعلف . . . » (٢) :

(١) سورة يونس الآية ٩٩ (٢) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ١٠٥

وقوله : « تسمعون » ، من الاسامة ، بمعنى إطلاق الإبل وغيرها للسوم ، أى الرعى . يقال : أسام فلان إبله للرعى لمامة ، إذا أخرجها إلى المرعى . وسامت هى تسوم سوما ، إذا رعت حيث شئت . وأصل السوم : الإبعاد فى المرعى .

والمعنى : هو - سبحانه - وحده وليس غيره : الذى غمركم بنعمه ، حيث أنزل لكم من السحاب ماء كثيرا ، هذا الماء الكثير المنزل بقدر معلوم ، منه تأخذون ما تشربونه وما تنتفعون فى حوائجكم الأخرى ، وبسببه تخرج المراعى التى تبعون فيها دوابكم .

فآلايه الكريمه دليل آخر من الأدلة على وحدانيه الله - تعالى - وقدرته ، وبديع خلقه ، حيث أنزل - سبحانه - المطر من السماء ، ولو شاء لأمسككم أو لأنزله غير صالح للشراب .

قال - تعالى - : « أفأرىتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون » (١) .

وأنى - سبحانه - بلفظه فى ، المفيدة للظرفيه ، فى قوله - تعالى - « فيه تسمعون » ؛ للإشارة إلى أن الرعى فى هذا الشجر ، قد يكون عن طريق أكل مانتخته من الأعشاب .

وقوله - سبحانه - : « يذبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ... » ، تفصيل لأهم منافع السماء .

أى : يخرج لكم من الأرض ، بسبب الماء الذى أنزله عليه من السماء « الزرع » ، الذى هو أصل أغذيتكم ، وعماد معاشكم ، كالقمح والشعير وغيرها « الزيتون » ، الذى تستعملونه إداما فى أغذيتكم ، والنخيل والأعناب ، اللذين فيهما الكثير من الفوائد ، ومن التلذذ عند أكل ثمارها .

وأخرج لكم - أيضا - بسبب هذا الماء ، من كل الثمرات ، التي تشتهونها وتنتفعون بها ، والتي تختلف في أنواعها ، وفي مذاقها ، وفي روائحها ، وفي ألوانها ، مع أن الماء الذي سقيت به واحد ، والأرض التي نبتت فيها متجاورة .

ولاشك أن في هذا الإنبات بثلث الطريقة ، أكبر دلائل على قدرة الله - تعالى - . لأنه لا يقدر على ذلك سواه - سبحانه - .

وأستد - سبحانه - الإنبات إليه فقال : « ينبت لكم به . . . » ؛ لأنه الفاعل الحقيقي لهذا الإنبات والإخراج للزروع من الأرض ؛ أما غيره - سبحانه - فيلقى الحب في الأرض ، ويرجو الثمار والإنبات منه - عز وجل . قال - تعالى - : « أفرايتم ما تحرثون . أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه خرابا ما فضلتم تفسكرون . إنا لمغرمون . بل نحن محرمون » (١) . وقال - سبحانه - : « وفي الأرض قطع متجاورات ، وحنات من أعقاب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » (٢) .

وقال - عز وجل - : « أم من خلق السموات والأرض ، وأزله لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أله مع الله ، بل هم قوم يعدلون » (٣) .

وختم - سبحانه - الآية بقوله « إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » ، للحض على التفكر والتأمل في عظيم قدرته - سبحانه - حتى يصل المتأمل إلى إخلاص العبادة له - عز وجل .

(١) سورة الواقعة . آيات ٦٣ - ٧٠ .

(٢) سورة الرعد الآية ٤ .

(٣) سورة النمل الآية ٦٠ .

أى : إن فى ذلك المذكور ، من إنزال الماء من السماء ، وإنبات الزروع والثمار بسببه ، آية باهرة ، ودلالة عظيمة ، على وحدانيه الله - تعالى - وقدرته ، لقوم يحسنون التفكير ، ويجيدون التأمل فى خلقه ، أما الذين لا يحسنون التفكير والتأمل ، فهم كالأنعام بل هم أضل .

قال الألوسى ماملخصه : وقال - سبحانه - : « لقوم يتفكرون » ، لأن من تفكر فى أن الحبة والنواة ، تقع فى الأرض ، وتصل إليها نداوة تنفذ فيها ، فينشق أسفلها ، فيخرج منه عروق تنبسط فى أعماق الأرض ، وينشق أعلاها وإن كانت منتكسة فى الوقوع

من تفكر فى ذلك علم أن من هذه آثاره وأفعاله ، لا يمكن أن يشبهه غيره فى صفة من صفات الكمالات ، فضلاً عن أن يشاركه فى أخص صفاته التى هى الألوهية واستحقاق العبادة

وحيث كان الاستدلال بما ذكر ، مشتملاً على أمر خفى محتاج إلى التفكر والتدبر لمز له نظر شديد ، ختم - سبحانه - الآية بالتفكير ، (١) . ثم ساق - سبحانه - دلائل أخرى مما خلق لرفع الإنسان . تدل على وحدانيته وقدرته ، فقال - تعالى :

« وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَالنَّجْمُ مَسْخَرَاتٌ بِأَمْرِهِ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) .

وقوله « سخر » من التسخير بمعنى التذليل والتسكين ، يقال : سخر فلان

فلاناً تسخيراً ، إذا كلفه عملاً بلا أجره . والمراد به هنا : الإعداد والتهيئة لما يراد الانتفاع به .

وأنه . سبحانه . سخر لكم الشمس والقمر ، يد أبان في سيرهما بدون كلل أو اضطراب ، بل يسيران من أجل منفعتكم ومصالحكم بنظام ثابت ، كما قال . تعالى : لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ، (١) .

وأنه . سبحانه . أوجد النجوم مسخرات بأمره وإذنه ، لكي تهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ...

هذا وقد قرأ جمهور القراء هذه الأسماء : الليل والنهار ... إلخ بالنصب على المفعولية لفعل « سخر » كما قرأ الجمهور . أيضاً . « مسخرات » بالنصب على الخالية .

وقرأ ابن عاصم : « والشمس والقمر والنجوم ، بالرفع على الابتداء ، وقرأ . أيضاً قوله . « مسخرات » بالرفع على أنه خبر عنها .

وقرأ حفص برفع النجوم ومسخرات ، على أنهما مبتدأ وخبر : أما بقيه الأسماء السابقة فقرأها بالنصب .

وقوله « بأمره » متعلق بمسخرات . والمراد بأمره : إرادته ومهيئته وتديره ، الجاري على هذا الكون وفق حكمته وإذنه .

ثم ختم . سبحانه . الآية بقوله : « إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

أي : إن في ذلك المذكور من تسخير الليل والنهار وغيرهما لمنفعتكم ومصالحكم . يابني آدم . لآيات بينات ، ودلائل واضحات ، على وجوب العبادة لله . تعالى . وحده ، لقوم يعقلون نعم الله . تعالى . ، ويستدلون بها على وحدانيته . سبحانه . وقدرته .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - « إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يغشى الليل والنهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين ، (١) »

وقوله - سبحانه - : « وماذر لكم في الأرض مختلفا ألوانه . . . » معطوف على ما قبله من النعم وأصل الذرأ : الخلق بالتناسل والتوالد عن طريق الحمل والتفريخ . .

قال القرطبي : ذرأ الله الخلق يذروهم ذرأ ، أى خلقهم ، ومنه الذرية وهي نسل الثقلين ، واجمع الذرارى . ويقال : أتمى الله ذرأك وذروك أى : ذريتك

والمعنى : وسخر لكم - أيضاً - ما أوجده في الأرض من أجل منفعتكم من عجائب الأمور ، ومختلف الأشياء ، من حيوان ونبات ، ومعادن مختلفة الألوان والاجناس والخواص .

ولاشك أن في اختلاف الألوان والمناظر والهيئات وغير ذلك ، فيه الدلالة الواضحة على قدرة الله - تعالى - ، وعلى أنه الخالق لكل شئ . .

قال - تعالى - : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . . . »

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله « إن في ذلك لآية لقوم يذكرون أى : إن في ذلك لآية يبينها لكم ، لآية واضحة على قدرة الله - تعالى ، لقوم يعتبرون ، ويتذكرون آلاء الله ونعمه ، فيشكرونه عليها ، ويخلصون له العباداة .

وبعد أن ذكر - سبحانه - جملة من نعمه التي أوجدها لعباده في البر ، أتبع ذلك ببيان جانب من نعمه عليهم عن طريق خلقه للبحر ، فقال - تعالى - :

« وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون (١٤) » .

ففي هذه الآية الكريمة بين - سبحانه - أربع نعم على عباده في تسخير البحر لهم .

أما النعمة الأولى فتتجلى في قوله - تعالى - : « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً » .

والطري : ضد اليابس . والمصدر الطراوة ، وفعله طَرَوْ بوزن خشن وقرب ...

أي : وهو - سبحانه - وحده الذي ذلل لكم البحر ، بحيث مكنكم من الانتفاع به ، وأقدركم على الركوب عليه ، وعلى الغوص فيه ، وعلى الصيد منه ، لتأكلوا من أسماكها طرياً غصاً شهيياً .

ووصف - سبحانه - لحم أسماكها بالطراوة ، لأن أكله في هذه الحالة أكثر فائدة ، وألذ مذاقاً ، فالمنة بأكله على هذه الحالة أتم وأكمل .

وقال بعض العلماء : وفي وصفه بالطراوة ، تنبيه إلى أنه ينبغي التسارعة إلى أكله ، لأنه يسرع زليه الفساد والتغير ، وقد أثبت الطب أن تناولها بعد ذهاب طراوته من أضر الأشياء ، فسبحان الخبير بخلقها ، ومعرفة ما يضر لاستعماله وما ينفع ، وفيه أيضاً إيماء إلى كمال قدرته - تعالى - في خلقه الحلول الطري في الماء المر الذي لا يشرب .

: قد كره العلماء أكل الطافي منه على وجه الماء ، وهو الذي يموت حتم

أفقه في الماء فيطفو على وجهه ، الحديث جابر - رضى الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : « ما نضب عنه الماء فكلوا ، وما لفظه فكلوا ، وما طلقا فلا تأكلوا » .

فالمراد من ميتة البحر في الحديث : « هو الطهور ماؤه الحلى ميتته » ما لفظه البحر لا مامات فيه من غير آفة ، (١) .

وقوله « وتستخرجوا منه حليه تلبسونها » ، نعمة ثانية من نعم الله - تعالى - للإنسان في تسخير البحر له .

والحلية - بالكسر - اسم لما يتحلى به الناس . وجمعها حَلَى وحَلَى - بضم الحاء وكسرها - يقال . تحلت المرأة إذا لبست الحلى ، أى : ومن فوائد تسخير البحر لكم أنه سبحانه أقدركم على الفوص فيه ، لتستخرجوا منه ما يتحلى به نساؤكم كالؤلؤ والمرجان وما يشبههما .

قال - تعالى - « مرج البحرين يلتقيان » بينهما برزخ لا يبغيان . فبأى ألا . ربكما تكذبان . يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، (٢) .

والتعبير بقوله - سبحانه - تستخرجوا . . . ، يشير إلى كثرة الإخراج . فالسین وإنشاء للتأكيد ، مثل استجاب بمعنى أجاب . كما يشير إلى أن من الواجب على المسلمين أن يباشروا بأنفسهم إستخراج ما في البحر من كنوز وألا يتركوا ذلك لأعدائهم .

وأُسند - سبحانه - لباس الحلية إلى ضمير جمع الذكور فقال : « تلبسونها » على سبيل التغليب ، وإلا فإن هذه الحلية يلبسها النساء في معظم الأحيان .

قال الآرسى ما ملخصه : وقوله : « تلبسونها » ، أى : تلبسها نساؤكم ؛ وأسند الفعل إلى ضمير الرجال ، لاختلافهم بهم ، وكونهم متبوعين ، أو

لأنهم سبب للزينة ، فإنهم يتزين ليحسن في أعين الرجال ، فكان ذلك زينتهم ولباسهم .

قال ابن المنير : وقته در مالك - رضى الله عنه - حيث جعل للزوج الحبر على زوجته فيما له بال من مالها ، وذلك مقدر بالزائد على الثلث لحقه فيه بالتجمل . فانظر إلى مكنة حظ الرجال من مال النساء ، وهن زينتهن ، حتى جعل كحظ المرأة من مالها وزينتها ، فمعبى عن حظه في لبسها بلبسه . . . (١)

وقال القرطبي : « آمين ، الله - تعالى - على الرجال والنساء امتنانا عاما بما يخرج من البحر ، فلا يحرم عليهم شيء منه ، وإنما حرم الله - تعالى - على الرجال الذهب والحرير ، ففي الصحيح عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : قال رسول - صلى الله عليه وسلم - : لا تلبسوا الحرير فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة . »

وروى البخارى عن ابن عمر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اتخذ خاتما من ذهب . . ، فاتخذ الناس مثله ، فرمى به وقال : لا ألبسه أبدا . ثم اتخذ خاتما من فضة فاتخذ الناس خواتيم الفضة . . . (٢)

وقوله - سبحانه - : « وترى الفلك مواخر فيه ، نعمة ثالثة من نعمه - تعالى - في تسخير البحر للناس وأصل الخمر : الشق . يقال : شق الماء والأرض إذا شقما . ويقال : شقت السفينة تم - بحر ، وتم - بحر ، مخرأ ، ومخورأ ، إذا جرت في الماء وأخذت تشقه بمقدمتها . »

أى : وترى - أيها العاقل - بعينيك السذن وهى تشق البحر بسرعة ، متجهة من بلد إلى بلد ، ومن قطر إلى آخر ، لا يحرسها إلا رعاية الله تعالى وقدرته ، كما قال - سبحانه - : « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون . »

(١) تفسير الآلوسى ج ٢ ص ١١٣

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٨٧

وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ، وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون
إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين ، (١) .

والتعبير بقوله : « وترى .. » ، لاستحضار الحالة العجيبة عن طريق الرؤية
البصرية ، وهي حالة تدل على قدرة الله تعالى ورحمته بهياديه . حيث سخر
لهم السفن لتجري في البحر بأمره .

ثم بين - سبحانه - النعمة الرابعة من نعم تسخير البحر للناس فقال تعالى :
« ولتبتغوا من فضله ، والابتغاء : الطلب لأشياء عن رغبة ومحبة .

أى : وسخر لكم البحر - أيضاً - لتستخرجوا منه الحليمة ، ولتطلبوا
فضل الله تعالى ورزقه ، عن طريق التجارات والأبصار على ظهر البحر من
مكان إلى آخر . سعياً وراء الربح .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بحض الناس على شكره على نعمه فقال
« ولعلمكم تشكرون . » .

أى : ولعلمكم تشكرون الله - تعالى - على آلائه ، حيث سخر لكم البحر ،
وجعله وسيلة من وسائل منفعتكم ومعاشكم .

ثم انتقلت السورة المكريمة إلى الحديث عن فوائد الجبال والأنهار
والسبل والنجوم ، فقال - تعالى - :

« وألقى في الأرض رواسي أن تُمِدَّ بِكُمْ ، وأنهاراً ، وسُبُلًا لعلكم
تهتدون (١٥) وعلاماتٍ وبالنجم هم يهتدون (١٦) » .

ولفظ : « رواسي » جمع رأس من الرسو - بفتح الراء وسكون السين -
بمعنى الشبات والنسكن في المكان ، يقال رسا الشيء يرسو إذا ثبت . وهو صفة
لموصوف محذوف . أى : جبالات رواسي .

وتميد ، أى تضطرب وتميل . يقال : ماد الشيء يميد ميذا ، إذا تحرك ، ومادت الأغصان إذا تمايلت أى : وألقى - سبحانه - فى الأرض جبالا ثوابت لى تفر وتثبت ولا تضطرب .

فقوله : أن تميد بكم ، تعاميل لإلقاء الجبال فى الأرض .

قال القرطبي : وروى الترمذى بسنده عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم - قال : لما خلق الله الأرض جعلت تميد وتضطرب ، تخلق الجبال عليها فاستقرت ، فمجبت الملائكة من شدة الجبال . قالوا يارب هل من خلقك شيء أشد من الجبال ؟ قال نعم ، الحديد . قالوا يارب هل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال نعم النار . قالوا يارب هل من خلقك شيء أشد من النار ؟ قال نعم الماء ، قالوا يارب هل من خلقك شيء أشد من الماء ؟ قال نعم الريح . قالوا يارب : هل من خلقك شيء أشد من الريح ؟ قال نعم ، ابن آدم إذا تصدق بصدقة يمينه يخفيها عن شماله (١) .

هذا ، ومن الآيات التى تشبه هذه الآية قوله - تعالى - : «خلق السموات بغير عمد زرونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ..» (٢) .

وقوله - تعالى - : ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا ، (٣) .

ثم بين - سبحانه - نعم أخرى لما ألقاه فى الأرض فقال : «وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون ..»

أى : وجعل فى الأرض «أنهارا ، تجري من مكان إلى آخر ، فهى تنبع فى مواضع . وتصب فى مواضع أخرى ، وفيها نفع عظيم للجميع ، إذ منها يشرب الناس والدواب والأنعام والنبات ..

وجعل فيها كذلك طرقا مهيدة ، يسير فيها الساترون من مكان إلى آخر .

(١) تفسير القرطبي ١٠ ص ٩٠ (٢) سورة لقمان الآية ١٠

(٣) سورة النبأ الآية ٧٢١ .

و لعلكم تهتدون ، بتلك السبل إلى المكان الذي تريدون الوصول إليه ، بدون تحير أو ضلال .

وقد كرر القرآن الكريم هذا المعنى في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى - :
« و الله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا » (١) .

والمراد بالعلامات في قوله - تعالى - : وعلامات وبالنجم هم يهتدون ،
الآمارات والمعالم التي يضعها الناس على الطرق بإلهام من الله - تعالى - ،
للاعتدال بها عند السفر .

والمراد بالنجم : الجنس ، فيشمل كل نجم يهتدى به المسافر .

أى ومن مظاهر نعمه - أيضا - ، أنه - سبحانه - جعل في الأرض معالم
وأمارات من جبال كبار ، وآكام صغار ، وغير ذلك ، ليهتدى بها المسافرون
في سفرهم ، وتكون عوناً لهم على الوصول إلى غايتهم ، وبمواقع النجوم هم
يهتدون في ظلمات البر والبحر ، إلى الأماكن التي يرغبون الوصول إليها .

والضمير د هم ، في قوله « وبالنجم هم يهتدون » ، يشمل كل سالك في ظلمات
البر والبحر ، ويدخل فيه دخولا أوليا أهل مكة ، لأنهم كانوا كثيرى الأسفار
للتجارة ، كما كانوا معروفين بالاعتدال في سيرهم بمواقع النجوم .

وقدم - سبحانه - المتعلق وهو « وبالنجم » ، للاهتمام به ، إذ أن
الاعتدال بالنجوم ، أمر هام في حياة المسافرين ولا سيما الذين يسافرون
في البحر .

وعدل - سبحانه - عن الخطاب إلى الغيبة في قوله « هم يهتدون » ، على
سبيل الالتفات ، ليزداد الكلام طلاوة واقتباها إلى ما اشتمل عليه .

وشبه بهذه الآية قوله - تعالى - : « وهو الذى جعل لكم النجوم
لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر » ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، (٢) .

(١) سورة فوح الآية ١٩ ، ٢٠ . (٢) سورة الأنعام الآية ٩٧ .

ولم هذا نزل السورة السكينة ، التي هي سورة النعم ، قد حدثتنا في بضع عشرة آية . عن ألوان متنوعة . بن نعم الله - تعالى - على عباده .
حدثتنا عن نعمة الروح الذي يحيي القلوب الميتة وينقذها من الكفر والضلال ..
وحدثتنا عن نعمة خلق الإنسان ، وخلق السموات والأرض ...
وحدثتنا عن نعمة خلق الأنعام ، والخيول والبغال والحمير ...
وحدثتنا عن نعمة إنزال الماء من السماء ، وما يترتب على هذه النعمة من فوائد ومنافع .
وحدثتنا عن نعمة تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ...
لمصلحة الإنسان .

وحدثتنا عن نعمة تسخير البحر وتذليله للاقتفاع بخيراتة .
وحدثتنا عن نعمة الجبال والأنهار والسبل ...
حدثتنا عن كل ذلك وغيره . لكي يخلص الإنسان عبادته لحالقه ، ولكي يطيعه حق الطاعة ، ويشكره عليها ، ويستعملها فيها خلقت له .
وبعد أن حدثتنا السورة عن كل ذلك ، ساقتنا جملة من صفات الله - تعالى - . ووضحنا المشركين على شركهم ، وأبطلته بأبلغ أساليب ، ودعوتهم إلى الدخول في الدين الحق ، فقال - تعالى - :

« أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ، فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنْكِرَةٌ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) » .

والاستفهام في قوله - سبحانه - : : أفمن يخلق كن لا يخلق ... ، الإنكار والتوبيخ لا والله المشركين الذين عبدوا غير الله - تعالى - .

أى : أفمن يخلق هذه الأشياء العجيبة ، والمخلوقات البديعة ، التى بينا لكم بعضها ، وهو الله - عز وجل - ، كمن لا يخلق شيئاً على سبيل الإطلاق ، بل هو مخلوق ، كذلك الأصنام والأوثان وغيرها ، التى أشركتموها فى العبادة مع الله - تعالى - ؟

إن فاعلكم هذا لدليل واضح على جهلكم - أيها المشركون - وعلى انطباس بصيرتكم ، وقبح تفكيركم .

قال صاحب الكشف : فإن قلت من لا يخلق أريد به الأصنام ، فليأذا جى - بمن الذى هو لاولى العلم ؟

قلت : فيه أوجه : أحدها أنهم سموها آلهة وعبدوها فأجروها بحسرى أولى العلم ...

الثانى : المشاكلة بينه وبين من يخلق .

الثالث : أن يكون المعنى : أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولى العلم ، فكيف بما لا علم عنده . كقوله - تعالى - : ألهم أرجل يمشون بها ... ، معنى أن الآلهة - التى عبدوها - حالهم منحة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب لأن هؤلاء أحياء وهم أموات ، فكيف تصح لهم العبادة ، لا أنها لو صحت لهم هذه الأعضاء اصح أن يعبدوا .

فإن قلت الآية إلزام للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيها بالله - تعالى - : فكان من حق الإلزام أن يقال : أفمن لا يخلق كن يخلق ؟

قلت حين جعلوا غير الله مثل الله فى تسميته باسمه والعبادة له ، وسووا بينه

وبيّنه ، فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشيها بها ، فأفكر عليهم ذلك بقوله : « أفمن يخلق كمن لا يخلق .. » (١) .

وقوله - سبحانه - « أفلا تذكرون » ، زيادة في توبيخهم وفي التحكم بهم .

أى : أبلغ بكم السفه والجهل أنكم سويتم في العبادة بين من يخلق ومن لا يخلق ، والحال أن هذه التسوية لا يقول بها عاقل ، لأن من تفكر أدنى تفكر ، وتأمل أولاً تأمل ، عرف وتيقن أنه لا يصح التسوية في العبادة بين الخالق والمخلوق ، فهلا فكم كنتم قليلاً في أمركم ، لكي تفتبوا إلى رشدكم ، فتخلصوا للعبادة لله الخلاق العليم .

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمه على سبيل الإجمال ، بعد أن فصل جانباً منها في الآيات السابقة فقال - تعالى - « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، والمراد بالنعمة هنا جنسها ، الذي يشمل كل نعمه ، لأن لفظ العدد والإحصاء قرينة على ذلك ، وعلماء البيان يمدون استعمال المفرد في معنى الجمع اعتياداً على القرينة - من أبلغ الأساليب الكلامية .

أى : « وإن تعدوا نعمة الله - تعالى - التي أنعمها عليكم ، في أنفسكم ، وفيما سخره لكم ، لا تستطيعون حصر هذه النعم لسكثرتها وتنوعها . وما دام الأمر كذلك فاشكروه عليها ما استطعتم ، وأخلصوا له العبادة والطاعة .

وقوله : « إن الله لغفور رحيم » ، استئناف قصد به فتح باب الأمل أمامهم لكي يتداركوا ما فرط منهم من جحود وتقصير في حقّه - سبحانه -

أى : « إن الله - تعالى - لغفور لعباده على ما فرط منهم ، متى تابوا إليه

توبة نصوحا ، رحيم بهم ، حيث لم يؤاخذهم بذنوبهم ، بل منحهم نعمة مع تقصيرهم في شكره - تعالى .

قال ابن كثير - رحمه الله - قوله : : إن الله لغفور رحيم ، أى يتجاوز عنكم . ولو عا اباكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك ، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم ، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم ، ولكنه غفور رحيم ، يغفر الكثير ، ويجازى على اليسير ، (١) .

وقوله - سبحانه - : : والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ، بيان لكمال علمه - تعالى - وتحذير من الوقوع فيما نهى عنه ، لأنه - تعالى - لا تخفى عليه خافية .

أى : والله - تعالى - وحده ، يعلم ما تسرونه من أقوال وأفعال ، وما تظهرونه منها ، وهو محص عليكم ذلك ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر .

ثم وصف - سبحانه - الأوثان التى يعبدها المشركون من دونه ، بثلاثة أوصاف : تجعلها بمنزل عن النفع ، فضلا عن استحقاقها للعبادة ، فقال - تعالى - والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . اموات غصير أحياء ، وما يشعرون بأبأن يعثون .

وصفها - أولا - بالعجز التام ، فقال - تعالى - : : والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا . . . ،

أى : وهذه الآلهة التى تعبدونها من دون الله - تعالى - لا تخلق شيئا من المخلوقات مهما صغرت ، بل هم يخلقون بأيديكم ، فأنتم الذين تنحتون

الإصنام . كما قال - سبحانه - حكاية عن إبراهيم - عليه السلام - الذى قال لقومه على سبيل التهمك بهم : « أتعبدون ما تفتحتون . والله خلقكم وما تعملون » (١) .

وإذا كان الأمر كذلك فكيف تعبدون شيئا أنتم تصنعونه بأيديكم ، أو هو مفترى على من يوجده ؟ ١١٩

وهذه الآية السكريمة أصرح فى إثبات العجز للمعبودات الباطلة من سابقاتها التى تقول : « أفن يخلق كمن لا يخلق ... » لأن الآية السابقة نفتت عن المعبودات الباطلة أنها تخلق شيئا ، أما هذه الآية التى معنا فنفت عنهم ذلك ، وأثبتت أنهم مخلوقون غيرهم وهو الله - عز وجل - ، أو أن الناس يصنعونهم عن طريق النحت والتصوير ، فهم أعجز من عبدتهم ، وعليه فلا تكرار بين الآيتين .

وأما الصفة الثانية لتلك الأصنام فهى قوله - تعالى - « أموات غير أحياء » ، أى : هؤلاء المعبدون من دون الله - تعالى - ، هم أموات لا أثر للحياة فيهم ، فهم لا يسمعون ، ولا يبصرون ، ولا يغنون عن عابديهم شيئا . فقد دلت هذه الصفة على فقدانهم للحياة فقداناً تاماً .

وجله « غير أحياء » جىء بها لتأكيد موتهم . والدلالة على عراقة وصفهم بالموت ، حيث لم يأتوا بـ « شائبة للحياة فيهم » ، ولم يكونوا « أحياء » كعابديهم - ثم ماتوا ، بل هم أموات أصلاً .

أرجىء بها على سبيل التأسيس ، لأن بعض ما لا حياة فيه من المخلوقات قد تدركة الحياة فيما بعد ، كالنطفة التى يخلق الله - تعالى - منها حياة ، أما هذه الأصنام فلا يعقب موتها حياة ، وهذا أتم فى نقصها ، وفى جهالة عابديها .

وأما الصفة الثالثة لتلك الأصنام فهي قوله - تعالى - : وما يشعرون أيان يبعثون . .

ولفظ « أيان » ظرف زمان متضمن معنى متى .
وهذه الصفة تدل على جهلهم المطبق ، وعدم إحساسهم بشئ .
أى : أن من صفات هذه المعبودات الباطلة ، أنها لا تدري متى يبعثها الله - تعالى - لتكون وقودا للنار .

وبعضهم يجعل الضمير فى « يشعرون » يعود على الأصنام ، وفى « يبعثون » يعود على العابدين لها ، فيكون المعنى : وما تدري هذه الأصنام التى تعبد من دون الله - تعالى - ، متى تبعث عبيدتها للحساب يوم القيامة .

قال صاحب فتح القدير ما ملخصه : قوله : « وما يشعرون أيان يبعثون » الضمير فى « يشعرون » للآلهة ، وفى « يبعثون » للكفار الذين يعبدون الأصنام .

والمعنى : وما تشعر هذه الجنادات من الأصنام أيان يبعث عبيدتهم من الكفار ، ويكون هذا على طريقة التهكم بهم ، لأن شعور الجناد مستحيل بماهر من الأمور الظاهرة ، فضلا عن الأمور التى لا يعلمها إلا الله - سبحانه - .

ويجوز أن يكون الضمير فى الفعلين للآلهة . أى : وما تشعر هذه الأصنام أيان تبعث . ويدل على ذلك قوله تعالى - : « إنكم وما تعبدون من الله حصب جهنم . . . » (١) .

وبعد أن أبطل - سبحانه - عبادة غيره بهذا الأسلوب المنطوق الحكيم ، صرح بأنه لا معبود بحق سواه . فقال : « إلهكم إله واحد . »

أى إلهكم المستحق للعبادة والطاعة هو إله واحد لا شريك له ، لاى ذاته ولا فى صفاته ، فأخلصوا إله العبادة ، ولا تجعلوا له شركاء .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التي جعلت المشركين يصرّون على كفرهم ويستحبون العمى على الهدى ، فقال - تعالى - : فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ،

أي : فالكافرون الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وما فيها من ثواب وعقاب قلوبهم منكرة للحق ، جاحده لنعم الله ، منصرفة عن وحدانية الله - تعالى - وعن الأدلة الدالة عليها ، وحالهم فوق ذلك أنهم مستكبرون مغرورون ، لا يستمعون إلى موعظة واعظ ، ولا إلى إرشاد مرشد .

ومتي استولت على إنسان هاتان الصفتان - الجحود والاستكبار - ، حالفه البوار والخسران ، وآثر سبيل الغي على سبيل الرشd .

والتعبير عن المشركين بالموصول وصلته ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة .. دون التصريح بذواتهم ، لاشتهارهم بتلك الصفات الفبيحة ، وللايمان بأن عدم إيمانهم بالآخرة ، هو أساس خبيثتهم ، وخسرانهم وجحودهم .. ،

وعبر بالجملة الاسمية في قوله : قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ، للدلالة على تأصل صفتي الجحود والاستكبار في قلوبهم ، وعلى أن الإنكار للحق سمة من سماتهم التي يتحدثون عنها مهما وضحت لهم الأدلة على بطلانها ، وعلى أن التمسك بالظن والغرور لا ينفك عنهم ، وأنهم ممن قال - سبحانه - فيهم : « إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين »^(١) ، أي : صاغرين أذلاء .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم ، فقال : ولا جرم أن الله يعلم ما يصرّون وما يعلنون . إنه لا يحب المستكبرين ،

(١) سورة غافرة . الآية ٦٠

وكلمة « لاجرم » ، وردت في القرآن في خمسة مواضع ، وفي كل موضع كانت متلوة بأن وأسمها ، وليس بعدها فعل .

وجهور النحاة على أنها مركبة من « لا » ، و « جرم » ، تركيب خمسة عشر وممنها بعد التركيب معنى الفعل : حق وثبت ، والجملة بعدها فاعل .

قال الخليل : لاجرم ، كلمة تحقيق ولا تكون إلا جواباً ، يقال : فعلوا ذلك ، فيقال : لاجرم سيندومون .

وقال الفراء : « لاجرم » ، كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة ، فجرت على ذلك ، وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم ، وصارت بمنزلة حقاً ، فذلك يحجب عنها باللام ، كما يحجب بها عن القسم ، ألا تراهم يقولون لا جرم لأننك ...

والمعنى : حق وثبت أن الله - تعالى - يعلم ما يسره هؤلاء المشركون وما يعلنونه من أقوال وأفعال ، وسيجازيهم على ذلك بما يستحقونه من عقوبات ، لأنه - سبحانه - لا يحب المستكبرين عن الاستجابة للحق ، المغرورين بأموالهم وأولادهم ، الجاحدين لنعم الله وآلائه

قال الفرطبي : قال العلماء : وكل ذنب يمكن التستر منه وإخفاؤه ، إلا الكبير ، فإنه فسق يلزمه الإعلان ، وهو أصل العصيان كله .

وفي الحديث الصحيح : إن المتكبرين يحشرون أمثال الذر يوم القيامة ، يطوهم الناس بأقدامهم لتكبرهم ، أو كما قال صلى الله عليه وسلم : « تصغر لهم أجسامهم في المحشر حتى يضرهم صغرها ، وتعظم لهم في النار حتى يضرهم عظمها » (١)

وبعد أن أقامت السورة الكريمة الأدلة الساطعة ، على وحدانية الله - وقدرته ، وعلى بطلان عبادة غيره ... أتبع ذلك بحكاية بعض أقاويل

المشركين ، وردت عليها بما يدحضها ، وبيان سوء عاقبتهم ، وعاقبة أشباههم من قبلهم ، فقال - تعالى - :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ ، قَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَجْهَلُوا
أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ،
أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُونَ (٢٥) قَد مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَأَنَّى يَبَيِّنُهُمْ
مِنَ الْقَوَاعِدِ ، نَخْرَ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ
كَنتُمْ تَشَاقِقُونَ فِيهِمْ ، قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، إِنَّا الْخِزْيُ الْيَوْمَ وَالسُّوءُ
عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، فَأَلْقَوْا
السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ، بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)
فَاذْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَلَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) .

وقوله - سبحانه : ولما قيل لهم ماذا أنزل ربكم ، قالوا أساطير الأولين ،
حكاية لبعض ما كان يدور بين أولئك المستكبرين ، وبين غيرهم من أسئلة
واستفسارات حول القرآن الكريم .

والأساطير : جمع أسطورة ، كأعاجيب وأعجوبة ، وأحاديث وأحداث .
والمراد بها : الأكاذيب والقرصانات التي لا أصل لها ، والتي كانت مبثوثة
في كتب الأولين .

والمعنى : ولما قال قائل لهؤلاء الكافرين المستكبرين ، أى شيء أنزل
ربكم على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - .

قلوا له على سبيل الجحود للحق : لم ينزل عليه شيء ، وإنما هذا القرآن

الذي يتلوه محمد - صلى الله عليه وسلم - على أتباعه ، هو من أساطير الكهنة الأولين ، نقله من كتبهم ثم قرأه على من يستمع إليه .

روى ابن أبي حاتم عن السدي قال : اجتمعت قريش فقالوا : إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - رجل حلوا اللسان إذا كلبه الرجل ذهب بعقله ، فانظروا فإنا من أشرفكم المعدودين المعروفة أنسابهم ، فابعثوهم في كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة أو ليلتين ، فن جاءه يريده فردوه عنه .

نفرج ناس في كل طريق ، فمكنا إذا أقبل الرجل وافدا لقومه ينظر ما يقول محمد - صلى الله عليه وسلم - ووصل إليهم ، قال أحدهم : أنا فلان بن فلان ، فيعرفه نسبه ، ثم يقول للوافد : أنا أخبرك عن محمد - صلى الله عليه وسلم - إنه رجل كذاب لم يبقه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيهم ، وأما شيوخ قومه وخيارهم ففارقون له ، فيرجع الوافد . فذلك قوله - تعالى - : « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ، قالوا : أساطير الأولين » .

فإن كان الوافد من عزم الله له الرشاد ، فقالوا له مثل ذلك قال : بنس الوافد لقومي أنا ، إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم - من مكة - رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل ، وأنظر ما يقول ، وآتي قومي ببيان أمره . فيدخل مكة ، فيلقى المؤمنين فيسألهم : ماذا يقول محمد - صلى الله عليه وسلم - ؟ فيقولون : خيرا . . . (١)

وعبر - سبحانه - بالفعل وقيل ، المجهول ، للإشارة إلى أن هذا القول الذي تفوه به عتاة الكافرين ، كانوا يقولونه لكل من يسألهم عن القرآن الكريم ، لكي يصدوه عن الدخول في الإسلام . وجملة « ماذا أنزل ربكم » نائب فاعل لقيل .

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - « أساطير الأولين » خبر به لمبتدأ محذوف .

أى : قالوا هو أساطير الأولين أو المستول عنه : أساطير الأولين .
ولقد حكى القرآن قولهم الباطل هذا ، ورد عليه بما يدحضه في آيات
كثيرة ، ومن ذلك قوله - تعالى : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ، فهي
تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ،
إنه كان غفيرا رحيم » (١) .

ثم بين - سبحانه - عاقبة كفرهم ، ونطقهم بالباطل ، فقال - تعالى - :
« ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ... »

واللام فى قوله - ليحملوا - هى التى تسمى بلام العاقبة ، وذلك لأنهم
لما وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين ، كانت عاقبتهم تلك العاقبة السيئة .

والأوزار جمع وزر - بكسر الواو وسكون الزاى - بمعنى الشيء الثقيل .

والمراد بها الذنوب والآثام التى يشغل حملها على صاحبها يوم القيامة ، كما
قال - تعالى - : « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ؛ وإيسآن يوم القيامة
عما كانوا يفترون » (٢) .

والمعنى : نالوا ذلك فى القرآن الكريم ، لتسكون عاقبتهم أن يحملوا
أوزارهم كاملة غير منقوصة يوم القيامة .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله « ليحملوا » متعلق - بقالوا - كما هو
الظاهر ... واللام للعاقبة ، لأن الحمل مترتب على قولهم وليس باعفا ولا
معرضا لهم ...

وعن ابن عطية : أنها نحتمل أن تسكون لام التحليل ومتعلقة بفعل مقدر
لا يقالوا ، أى : قد سار ذلك منهم ليحملوا ... (٣)

(١) سورة الفرقان . الآيتان ٥ ، ٦ (٢) سورة العنكبوت . الآية ١٣

(٣) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ١٢٤

وقال - سبحانه - ، دكاملة ، ، لتأكيد أنه لا يرفع عنهم شيء من ذنوبهم ، بل سيعاقبون عليها جميعها دون أن ينقص منها شيء ،

قال الفخر الرازي : وهذا يدل على أن الله - تعالى - قد يستقط بمض العقاب على المؤمنين ، إذ لو كان هذا المعنى حاصلًا في حق الكل ، لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل معنى . . . (١)

وقال بعض العلماء : ويصور التعبير هذه الذنوب بكونها أحمالا ذات ثقل - رساءت أحمالا وأنقلا - ، فهي توقر النفوس كما توقر الأحمال الظهور ، وهي تشغل القلوب ، كما تشغل الأحمال العوائق ، وهي تتعب وتثقل كما تتعب الأنقال حاملها ، بل هي أدهى وأشد ، (٢) :

وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم أنه بلغه أنه يتمثل للكافر عمله في صورة أقيح ماخلاق الله وجهها ، وأتنته ربحا ، فيجاس إلى جنبه كلما أفزعه شيء زاده فزعا ، وكلما تخوف من شيء زاده خوفا . فيقول له بشر الصاحب أنت ؟ فيقول له وما تعرفني ؟ فيقول : لا . فيقول : أنا عملك كان قبيحا ، فلذلك تراني قبيحا ، وكان منتنا فلذلك ترثني منتنا . طاطىء إلى أركبك ، فطالما ركبتني في الدنيا ، فيركبه ، وهو قوله - تعالى - ، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة . . . (٣)

وقوله . ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، بيان لأنقال أخرى يحملونها فوق أنقالهم .

أى : أن أولئك المستكبرين ، قالوا في القرآن إنه أساطير الأولين ، فكانت عاقبة قولهم الباطل أن حملوا آثامهم الخاصة ، وإن حملوا فوقها جانبًا من آثام من كانوا سببا في ضلالتهم .

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٠ ص ١٨

(٢) في ظلال القرآن ١٤ ص ٢١٦٧ للأستاذ سيد قطب .

(٣) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٦٦

قال ابن كثير : أى يصير عليهم خطيئة لغواثهم لغيرهم ، واقتداء أولئك بهم ، كما جاء فى الحديث . « من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك عن آثامهم شيئاً » .

كما قال - تعالى - : « ويحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ، وليدانن يوم القيامة عما كانوا يفترون » ، (١) .

فهذه الآية وأمثالها ، لا تعارض بينها وبين قوله - تعالى - « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، وقوله : « ولا تسكب كل نفس على غيرها ... »

لأن هؤلاء المستكبرين لم يكتفوا بضلالهم فى أنفسهم ، بل تسبوا فى إحضال غيرهم ، فعوقبوا على هذا التسبب السيئ ، الذى هو فعل من أفعالهم البغيضة .

وقوله « بغير علم » ، فى موضع الحال من الضمير المنصوب فى قوله « يضلونهم » .

أى : يضلون ناساً لا علم عندهم ، فهم كالأنعام بل هم أضل ، وفى ذلك ما فيه من مدح أهل العلم والتفكير ، لأن الآية السكرية قد بينت أن أئمة الكفر ، يستطيعون إحضال من لا علم عنده ، أما أصحاب العقول السليمة فلن يستطيعوا إحضالهم .

قالوا : واستدل بالآية على أن المقلد يجب عليه أن يبحث ، وأن يميز بين الحق والباطل ، ولا يعتبر بسبب جهله .

وقيل أن قوله « بغير علم » ، فى موضع الحال من الضمير المرفوع فى قوله « يضلونهم » .

أى : هم يضلون غيرهم حالة كونهم غير عالمين بما يترتب على ذلك من
آثام وعقاب ، إذ لو علموا ذلك لما أقدموا على هذا الإضلال لغيرهم .
ثم ختم — سبحانه — الآية السكرية بقوله : « ألا ساء ما يزرون » .
قال الجمل : و « ساء » فعل ماضٍ لإنشاء الذم بمعنى بتس ، و « ما » تمييز بمعنى شيئاً ،
أو فاعل بساء ، و « يزرون » صفة لما والعائد محذوف ، أو « ما » اسم موصول ،
وقوله « يزرون » صلة الموصول ، والعائد محذوف أى : يزرونه ، والمخصوص
بالذم محذوف ، (١) .

والتقدير : بتس شيئاً يزرونه ويحملونه نتيجة كفرهم وإضلالهم لغيرهم ؛
وافتححت الجلة السكرية بأداة الاستفتاح « ألا » ، للاهتمام بما تضمنته
التحذير ، حتى يقلعوا عن كفرهم ، ويثوبوا إلى رشدهم ، ويحترسوا عن
الوقوع فى الباطل من القول .

ثم سلى الله - تعالى - نبيه - والمؤمنين ، فبين لهم أن هؤلاء المستسكبين
الذين قالوا فى القرآن أنه أساطير الأولين ، سيحقيق بهم مكرهم السيئ ، كما
حاق بالذين من قبلهم . فقال - تعالى - : « قد مكر الذين من قبلهم ، فأتى الله
بنبيائهم من القواعد ، فخر عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث
لا يشعرون » .

وقوله — سبحانه — « مكر » من المكر ، وهو التدبير المحكم ، أو
صرف التغير عما يريد به بجهلته ، وهو مذموم إن تحرى به الماكر الشر
والباطل ، ومحمود إن تحرى به الخير والحق .
والمراد به : هذا النوع الأول .

والمراد بالذين من قبلهم : الكفار الذين كانوا قبل كفار مكة ، كقوم
نوح وهود وصالح ...

وقوله : « فأتى الله بنيانهم ... ، أى : أهلكتهم ، كما فى قوله - تعالى -
« فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ... » (١) .

ويقال : أتى فلان من مأمته أى : نزل به الهلاك من جهة أمته . وأتى
عليه الدهر . أى : أهلكته وأفناه . ومنه الأترو . وهو الموت والبلاء .

يقال : أتى على فلان أتو ، أى موت أو بلاء يصيبه

والقواعد : جمع قاعدة . وهى أساس البناء ، وهى ما يكون نباتة
واستقراره .

والمعنى : لا تهتم - أيها الرسول الكريم - بما يقوله المستكبرون من
قومك فى شأن القرآن الكريم لى يصرفوا الناس عن الدخول فى الإسلام ،
فقد مكر الذين من قبلهم بأنيائهم ، فكانت عاقبة مكرهم أن « أتى الله بنيانهم »
من القواعد ، بأن اجثت هذا البنيان من أصله ؛ و« قتلته » من أساسه « فخر
عليهم السقف من فوقهم ، أى : فسقط عليهم - سقف بنيانهم فأهلكهم » وأتاهم
العذاب ، المبير المدمر « من حيث لا يشعرون » ولا يحتسبون بأنه سيأتيهم
من هذه الجهة ، بل كانوا يتوقعون أن ما شيدوه سيحطمهم من الممالك .

فالآية الكريمة تصور بأسلوب بديع معجز ، كيف أن هؤلاء المالكين ،
قد حصنوا أنفسهم بالبناء المحكم المتين ، ليتقوا ما يؤذيهم ، إلا أن جميع
هذه التحصينات قد هوت وتساقطت على رؤوسهم ، أمام قوة الله - تعالى -
التي لا ترد ، فإذا بالبناء الذى بذوه ليحتموا به ، قد صار مقبرة لهم

وصدق الله إذا يقول : « ومكروا مكرا ، ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون .
فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم
خاوية بما ظلدوا ، إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون » (٢) .

(١) سورة الحشر . الآية ٢

(٢) سورة النمل الآيات ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢

وقال - سبحانه - : وفخر عليهم السقف من فوقهم ، مع أن السقف لا يكون إلا من فوق ، لتأكيد الكلام وتقويته .

وقال القرطبي : قال ابن الأعرابي : وكذا ليعلم أنهم كانوا حالين تحته والعرب تقول : خر علينا سقف ، ووقع علينا حائط ، إذا كان يملكه وإن لم يكن وقع عليه . فجاء بقوله : من فوقهم ، ليخرج هذا الشك الذي في كلام العرب ، فقال : من فوقهم أي : عليهم وقع وكانوا تحته فهاكوا وما أفنوا (١) .

هذا ، ومن المفسرين الذين رجحوا أن الآية مسوقة على سبيل التمثيل ، الفخر الرازي . فقد قال : وفي قوله - سبحانه - : فأتى الله بنيانهم من القواعد ، قولان : الأول : أن هذا محض التمثيل .

والمعنى أنهم رتبوا حبالاً ليمكروا بها على أنبياء الله ، لجعل الله - تعالى - حالهم في تلك الحبل ، مثل حال قوم بنوا بنياناً وعموده بالأساطين ، فاهدم ذلك البناء ، وضعفت تلك الأساطين ، فسقط السقف عليهم ، ونظيره قولهم : من حفر بئراً لأخيه أوقعه الله فيه .

- ووجه الشبه أن ما عودوه سبب بقائهم ، صار سبب إستهصالهم وفنائهم -- .

الثاني : أن المراد منه عادل عليه الظاهر ، وهو أن الله - تعالى - أمسك عليهم السقف وأمانهم تحته .

والأول أقرب للمعنى (٢) .

ومن المفسرين الذين رجحوا أن الكلام على حقيقة ، الإمام ابن جرير ،

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٩٧

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٢٠ ص ٢٠

فقد قال - بعد أن سرد بعض الأقوال - : وأولى الأقوال بتأويل الآية قول من قال : معنى ذلك ، تساقطت عليهم سقوف بيوتهم ، إذ أتى على أصولها وقواعدهما أمر الله ، فانكسخت بهم ، نازلهم ، لأن ذلك هو الكلام المعروف من قواعد البنيان ونحو السقف .

وتوجيه معاني كلام الله إلى الأشهر الأعرف منه ، أولى من توجيهها إلى غير ذلك ما وجد إليه سبيل ، (١) .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه ابن جرير - رحمه الله - أولى بالقبرل ، لأنه مادام اللفظ صالحاً للحمل على الحقيقة ، فلا داعي لصرفه عن ذلك .

وقد حكى لنا القرآن الكريم صفوها من العذاب الذي أنزله الله - تعالى - بالظالمين ، ومن ذلك قوله - تعالى - : **وَفَكَلا أَخَذنا بِذُنُوبِهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلنا عَلَيْهِ حاصِبا . وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذنا الصَّيْجَةَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا ، وما كانَ اللهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ، (٢) . ثم بين - سبحانه - مصيرهم في الآخرة ، بعد أن بين عاقبة مكرهم في الدنيا فقال - تعالى - : **ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ ، وَيَقولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشْأَقُونَ فِيهِمْ**

أي : هذا هو مصير هؤلاء المستكبرين في الدنيا ، أما مصيرهم في الآخرة فإن الله - تعالى - يذلمهم ويهينهم ويفضحهم على رؤوس الأشهاد ، ويقول لهم على سبيل التقريع والتوبيخ : **أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَعادُونَ وَتُخاصِمُونَ الْمُؤْمِنِينَ فِي شَأْنِهِمْ ، قاتِلِينَ لَهُمْ : إِنْ كُنْمْ لَابِدْلكُمْ مِنْ إِثْمِ أَيْمَانِكُمْ فِي الْعِبادة .**

رجى - ثم المفيدة للترتيب النسبي ، للإشارة إلى ما بين الجزأين من تفاوت فإن خزي الآخرة أشد وأعظم مما نزل بهم من دمار في الدنيا .

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٦٨

(٢) سورة العنكبوت . الآية ٤٠

والاستفهام في قوله : أين شركائي . . . ، لالتهم بهم وبعبوداتهم الباطلة
التي كانوا يعبدونها في الدنيا ، فانهم كانوا يقولون للمؤمنين : إن صح ما تقولونه
من العذاب في الآخرة ، فإن الأصنام ستشفع لنا .

أى : أين هؤلاء الشركاء ليدفعوا عنكم ما نزل بكم من خزي وذل وعذاب
مبين ١٤ وأذيتاف . . سبحانه . . الشركاء اليه ، لزيادة توبيخهم ، لأنهم
في هذا اليوم العظيم ، يعلمون علم أتيقين أنه لا شركاء له . . سبحانه . .
وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - : « ويوم يناديهم فيقول أين شركائي
الذين كنتم تزعمون » (١)

قال الجمل ماملخصه : وقوله : « تشاقون » من المشاقة وهي عبارة عن كون
كل واحد من الخصمين في شق غير شق صاحبه .
وقرأ نافع : « تشاقون بكسر النون خفيفة » ، وقرأ الباقر بفتح النون .
ومفعوله محذوف . أى : تشاقون المؤمنين ، أو تشاقون الله ، بدليل القرارة
الأولى (٢)

ثم حكى . سبحانه . ما يقوله أولوا العلم في هذا الموقف الهائل الشديد
فقال - تعالى - : قال الذين أوتوا العلم ، إن الخزي اليوم والسوء على
الكافرين ،

والمراد بالذين أوتوا العلم ، كل من إهتدى إلى الحق في الدنيا ؛ وأخلص
فه - تعالى - العبادة والطاعة .

أى : قال الذين هداهم الله - تعالى - إلى صراطه المستقيم ، في هذا اليوم
العصيب ، إن الخزي الكامل ، في هذا اليوم ، والسوء الذى ليس بعده سوء ،
على هؤلاء الكافرين ، أصحاب القلوب المنكورة للحق ، وانفوس الجاحدة
لليوم الآخر وما فيه من حساب . .

(١) سورة القصص : الآية ٧٤

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٦٩

رجى . بجملة « قال الذين أوتوا العلم . . . غير معطوفة على ما قبلها ، لأنها واقعة موقع الجواب لقوله - سبحانه - « أين شركائى . . . » والتنبيه على أن الذين أوتوا العلم سارعوا بالجواب بعد أن وجم المستكبرون ، وعجزوا عن الإجابة .

وقولهم هذا يدل على شنائتهم بأعداء الله - تعالى - ، وتوبيخهم لهم على كفرهم ، واستكبارهم عن الاستماع إلى كلمه الحق .

وقال - سبحانه - : « قال الذين أوتوا العلم . . . » بلفظ الماضى ، مع أن هذا القول سيكون فى الآخرة ، للإشارة إلى تحقق وتوحيده ، وأنه كان لا محالة .

ثم صور - سبحانه - أحوال هؤلاء الكافرين ساعة انتزاع أرواحهم من أجسادهم . وساعة وقوفهم للحساب ، فقال - تعالى - : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، فأنفوا نسلم ما كنا نعمل من سوء . . . »

قال الألوسى : وفى الموصول أوجه الإعراب الثلاثة : الجر على أنه صفة للكافرين ، أو بدل منه ، أو بيان له ، والنصب والرفع على القطع للذم . وجوز بعضهم كونه مرتفعاً بالابتداء ، وجملة « فأنفوا » خبره . . . (١)

والمراد بالملائكة : عزرائيل ومن معه من الملائكة

والمراد بظلمهم لأنفسهم : إشرائهم مع الله - تعالى - آله أخرى فى العبادة .

أى : إن أشد أنواع الخزى والعذاب يرم القيامة على الكافرين ، الذين تنتزع الملائكة أرواحهم من أجسادهم وهم مازالوا باقين على الكفر والشرك دون أن يتوبوا منها ، أو يقلعوا عنها .

وقوله : « ظالمى أنفسهم » حال من مفعول تتوفاهم .

وفى وصفه هؤلاء الكافرين بـكونهم ، ظالمى أنفسهم ، إشعار إلى أن الملائكة تنتزع أرواحهم من جنودهم بغلظة وقسوة ، ويشهد لذلك قوله - تعالى - : « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم » (١)

وقوله « فأتقوا السلم » بيان لما صار إليه هؤلاء المستكبرون من ذل وخضوع فى الآخرة ، بعد أن كانوا مغترين متجبرين فى الدنيا .

وأصل الإلقاء يكون فى الأجسام والمحسات فاستعير هنا لإظهار كمال الخضوع والطاعة ، حيث شبهوا بمن ألقى سلاحه أمام الأقوى منه ، بدون أية مقاومة أو حركة .

والمراد بالسلم : الاستسلام والاستكانة .

أى : أنهم عندما عاينوا الموت ، ونجفت لهم الحقائق يوم القيامة ، خضعوا وإستكانوا وإستسلموا ، بعد أن كانوا فى الدنيا يتكبرون على المؤمنين . ويستخرون منهم .

وجملة « ما كنا نعمل من سوء » مقول لقول محذوف .

أى : عندما عاينوا الحقائق إستسلموا وإنقادوا ، وقالوا : ما كنا فى الدنيا نعمل عملا سيئا ، قوها منهم أن هذا القول ينفعهم .

وقد حكى الله - تعالى - عنهم فى آيات أخرى ما يشبه هذا القول ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا ، والله ربنا ما كنا مشركين » .

وقوله - سبحانه - « بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون » تكذيب لهم فى دعواهم أنهم ما كانوا يعملون السوء لأن لفظ « بلى » لإبطال ما نفوه .

أى : بلى كنتم تعملون سوء ، لأن الله - تعالى - لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ، وسيجازيكم عنها بما تستحقون وهذا التأكيد لهم قد يكون من الملائكة بأمر الله - تعالى - وقد يكون من قبله - سبحانه - .

وقوله - سبحانه : « فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها . . . » ، بيان لما لم يمتد إلى أمرهم من عذاب مهين .

وأبواب جهنم قد ذكر - سبحانه - عددها في قوله - تعالى - : « لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » (١)

أى : فادخلوا - أيها الكافرون - من أبواب جهنم ، حالة كونكم خالدين فيها خلوداً أبدياً ، « لبئس مثوى المتكبرين » ، أى فلبئس مقام المتعاضدين عن الإيمان بالله جهنم .

وبذلك نرى الآيات السكرية ، قد بينت بأسلوب مؤثر ، مصير المستكبرين الذين وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين ، والذين جادلوا المؤمنين بالباطل ليدحضوا به الحق . . .

وبعد أن بين - سبحانه - أقوال المستكبرين ، وأحوالهم ، وسوء عاقبتهم أتبع ذلك ببيان أحوال المؤمنين . وبينان ما أعد لهم من خيرات فقال - تعالى - :

« وقيلَ للذين اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ، قَالُوا خَيْرٌ ، الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ، وَلَنَرِيهم دَارَ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتٌ مِّنْ دُونِهَا يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ، كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) » .

فقرله - سبحانه - : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً... »
 بيان لما ردد به المؤمنون الصادقون ، على من سألهم عما أنزله الله - تعالى - على
 نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم -
 وهو معطوف على ما قبله ، للمقابلة بين ما قاله المتقون ، وما قاله
 المستكبرون .

ووصفهم بالتقوى ، للاشعار بأن صيانتهم لأنفسهم عن ارتكاب ما نهى
 الله - تعالى - عنه ، وخوفهم منه - سبحانه - ومراقبتهم له ، كل ذلك حملهم
 على أن يقولوا هذا القول السديد ، وكلمة خيرا ، مذهب لفصل محذوف
 أى : أنزل خيرا . أى : رحمة وبركة وفورا وهداية ، إذ لفظ « خيرا » من
 الألفاظ الجارية لكل فضيلة .

قال صاحب الكشف : فإن قلت لم نصب هذا ورفع الأول ؟

قلت : قصداً بين جواب المقر وجواب الجاحد ، يعنى أن هؤلاء لما سئلوا
 لم يتلعنموا وأطبقوا الجواب على السؤال بينما مكشوفاً مفعولاً للإنزال ، فقالوا
 خيراً . وأوأمك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا : هو أساطير الأولين
 وليس من الإنزال فى شىء ، (١)

وقوله - سبحانه - : « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، جملة مستأنفة
 لبيان ما وعدهم به - تعالى - على أعمالهم الصالحة من أجر وثواب .
 أى : هذه سنتنا فى خلقنا أننا نجازى الذين يعملون الصالحات ، بالجزاء الحسن
 الكريم ، دون أن نضيع من أعمالهم شيئاً .

وقوله « حسنة » صفة لموصوف محذوف أى : مجازاة حسنة بسبب
 أعمالهم الصالحة .

كما قال - تعالى - في آية أخرى : « من عمل صالحا من ذكرا أو أنثى وهو مؤمن ، فلننجيئنه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (١) ثم بين - سبحانه - جزاءهم في الآخرة فقال : « ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين » .

والمراد بدار الآخرة : الجنة ونعيمها .

وه خير ، صيغة تفضيل ، حذفتم منزهتها لكثرة الالتهام على سبيل التخفيف ، كما قال ابن مالك :

وغالبا أغناهم خير وشر عن قولهم أخير منه وأشر

ونعم : فعل ماضٍ لإنشاء المدح ، وهو ضد بشر .

والمعنى : ولدار الآخرة وما فيها من عطاء غير مقطوع ، خير لهؤلاء المتقين مما أعطيتهم في الدنيا ، ولنعم دارهم هذه الدار . قال - تعالى - : « بدل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى » (٢) .

ووصفها - سبحانه - بالآخرة ، لأنها آخر المنازل ، فلا أنتقال عنها إلى دار أخرى ، كما قال - تعالى - : « خالدين فيها لا يبدلون عنها حولا » . والمخصوص بالمدح محذوف لتقدم ما يدل عليه ، والتقدير : ولنعم دار المتقين ، دار الآخرة .

ثم وصف - سبحانه - ما أعدّه لهم من نعيم فقال : « جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار » .

والعدن : الإقامة الدائمة : يقال : عدن فلان يبلى كذا ، إذا توض فيه وأقام دون أن يبرحه أى : لهؤلاء المتقين جنات دائمة باقية يدخلونها بسرور وجور ، تجري من تحت بساطتها وأشجارها الأنهار .

(١) سورة النحل الآية ٩٧

(٢) سورة الأعلى الآيتان ١٦ ، ١٧

« لهم فيها ما يشاءون ، مما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، كذلك يحزى الله المتقين ، أى : مثل هذا الجزاء الحسن ، يحزى الله — تعالى — عباده المتقين ، الذين جنبوا أنفسهم مالا يرضيه .

ثم حكى — سبحانه — ما تحيهم به الملائكة فقال : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين » يقولون سلام عليكم

أى : هذا الجزاء الحسن لهؤلاء المتقين ، الذين تتوفاهم الملائكة ، أى تقبض أرواحهم ، حال كونهم طيبين ، أى : مطهرين من دنس الشر والفسوق والعصيان .

« يقولون ، أى الملائكة لهؤلاء المتقين عند قبض أرواحهم ، « سلام عليكم ، أى : أمان عليكم من كل شر ومكروه .

« ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ، أى : بسبب ما قدمتموه من أعمال صالحه وشبيه بهذه الآية قوله — تعالى — : « وإن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة ، أن لا تخافوا ولا تحزفوا وأبشروا بالجنة التى كنتم تعدون ، (١) .

هذا ، ولا تعارض بين قوله — تعالى — « تتوفاهم الملائكة ، وبين قوا فى آية أخرى « قل يتوفاكم ملك الموت ، وبين قوله فى آية ثالثة « الله يتوفى الأنفس حين موتها ، .

لأن إسناد المتوفى إلى ذاته — تعالى — ، باعتبار أن أحدا لا يموت إلا بمشيئته — تعالى — ، وإسناده إلى ملك موت باعتباره هو المأمور بقبض الأرواح ، وإسناده إلى الملائكة باعتبارهم أعوانا له ولا تعارض — أيضا . بين قوله — تعالى — « ادخلوا الجنة بما كنتم ، وبين ما جاء فى الحديث الصحيح : « لن يدخل أحدا عمله الجنة

لأن الأعمال الصالحة إنما هي أسباب عادية لدخول الجنة ، أما السبب الحقيقي فهو فضل الله - تعالى - ورحمته ، حيث قبل هذه الأعمال ، وكافأ أصحابها عليها .

وبعد أن بينت السورة الكريمة جانباً من أقوال المتقين ، وبشرتهم بما يسرهم وشرح صدورهم ، عادت مرة أخرى لتهديد الكافرين ، لعلمهم يزدجرون أو يتذكرون ، فقال - تعالى - :

« هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ، وَلا سَكُنَ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ ما كَانُوا يَعمَلُونَ ، وَحَاقَ بِهِمْ ما كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤) » .

والاستفهام في قوله - سبحانه - « هل ينظرون... » ، إنكارى في معنى النفي ينظرون هنا بمعنى ينتظرون ، من الإنظار بمعنى الإهمال ، والضمير المرفوع يعود إلى أولئك المتكبرين الذين وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين ، والذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، كما جاء في الآيات السابقة .

أى : ما ينتظر أولئك المتكبرون الذين لا يؤمنون بالآخرة ، إلا أن تأتيهم الملائكة لنزع أرواحهم من أجسادهم ، أو يأتى أمر ربك - أيها الرسول الكريم - بإهلاكهم ، أو يأنزال العذاب بهم من حيث لا يشعرون .

وليس المراد من الجمله الكريمة ، أنهم ينتظرون ذلك على سبيل الحقيقة ، لأن إصرارهم على الكفر جعلهم يستهينون بهذا التهديد وإنما المراد أنهم حين أصرروا على الكفر مع ظهور البراهين على بطلانه ، صار حالهم كحال المترقب لنزول أحد الأمرين : قبض الملائكة لأرواحهم ، أو نزول العذاب بهم .

فالجمله الكريمة تهديد لهم على تماميهم فى الكفر ، وتحريضهم على الإيمان قبل فوات الأوان .

قال الجار : وء أو ، فى قوله ، أو يأتى أمر ربك ، مانعة خلو ، فإن كلا من الموت والعذاب يأتهم وإن اختلف الوقت ، وإنما عبر بأو دون الواو ، للإشارة إلى كفاية كل واحد من الأمرين فى تعذيبهم (١) .

وقوله - سبحانه - كذلك فعل الذين من قبلهم تسليية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم من أذى .

أى : مثل هذا الفعل الشنيع الذى صدر عن الكافرين من قومك - يا محمد - فعل الذين من قبلهم من أقوام الرسل السابقين ، كهقوم نوح وقوم هود ، وقوم صالح ، فإنهم قد آذوا رسلهم . كما آذاك قومك .
وقد أنزلنا بهم ما يستحقون من عقاب دنيوى ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

وقوله - سبحانه - وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسم يظلمون ، بيان لعدالة الله - تعالى - وأنه - سبحانه - لا يظلم الناس شيئاً .

أى : وما ظلمهم الله حين أنزل بهم عقابه ؛ ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم بترديهم فى الكفر ، وإصرارهم عليه ، ومحاربتهم لمن جاء لإخراجهم من الظلمات إلى النور .

وقوله - سبحانه - : فأصابهم سيئات ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستترنون ، معطوف على قوله ، كذلك فعل الذين من قبلهم ، وما بينهما اعتراض .

وفاق : بمعنى أحاط ، من الحيط بقصر بمعنى الإحاطة ، وبأبه باع ، يقال : باع يحيط ، وخص فى الاستعمال بإحاطة الشر ، ومنه قوله - تعالى - : لا يحيط المسكر السىء إلا بأهله ، .

أى : هكذا تمادى أسلافهم فى الكفر والجحود ، فأصابهم جزاء سيئات

أعمالهم ، وأحاط بهم العذاب من كل جانب ، بسبب كفرهم وسخريتهم بالرسول وبما أخبروهم به من حساب وثواب وعقاب في الآخرة ، وسيقال لهؤلاء المجرمين يوم القيامة وهم يردون النار : « هذه النار التي كنتم بها تكذبون » (٢) .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين ، قد هددتا الكافرين ودعتهما إلى الدخول في الحق ، وحذرتاهم من أنتماج نهج الظالمين من قبلهم .

ثم حكى - سبحانه - بعض أقوالهم الباطلة ، ومعاذيرهم الفاسدة ، ورد عليها بما يدحضها ويدفعها ، فقال - تعالى - :

« وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا ، وَلَا حَرِّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، قَبْلَ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ، أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَهُمْ مِنْ هَدَىٰ اللَّهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِنَّ تَحْرِيصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧) » .

إن هذه الآيات الكريمة ، تعالج شبهة من الشبهات القديمة والحديثة .
 قديمة ، لأن كثيرا من مجادلي أرسل - عليهم الصلاة والسلام ، موهوا بها ..
 وحديثة ، لأنها كثير ا ما تراود الذين يتمسكون بالآوهام ، لإرضاء لنزواتهم وشهواتهم ...

لأنهم جميعاً يقولون عند ارتكابهم للقبائح والمنكرات : هذا أمر الله وهذا
قضاؤه ، وتلك مشيئته وإرادته ، ولو شاء الله عدم فعلنا لهذه الأشياء لما فعلناها
وما دام الله - تعالى - قد قضى علينا بها فما ذنبنا ؟ ولماذا يعاقبنا عليها ما دام
قد شاءها لنا ؟

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكي هذه الشبهة بأسلوبه الخاص فيقول :
« وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبائنا ،
ولا أحرارنا من دونه من شيء . . . »

أه : « وقال الذين أشركوا ، مع الله - تعالى - آلهة أخرى في العبادة ،
لنبيهم - صلى الله عليه وسلم - لو شاء الله ، تعالى - لنا عبادته وحده لعبدناه نحن
وآبائنا الذين هم قوتنا . »

ولو شاء لنا ولا آبائنا - أيضاً - ألا نحرم شيئاً من حرمناه من البحائر
والسوائب وغيرهما ، لتمت مشيئته ، ولما حرمنا شيئاً لم يأذن به - سبحانه - .

ولكنه - عز وجل - لم يشأ ذلك ، بل شاء لنا أن نشرك معه في العبادة
هذه الأصنام ، وأن نحرم بعض الأنعام ، وقد رضى لنا ذلك ، فلماذا تطالبنا
يا محمد - صلى الله عليه وسلم - بتغيير مشيئته الله ، وتدعونا إلى الدخول في دين
الإسلام ، الذي لم يشأ لنا الله - تعالى - الدخول فيه ؟

هذه حججهم ، ولا شك أنها حجة داحضة ، لأنهم يميلون شركهم وفسوقهم
على مشيئته الله - تعالى - مع أن مشيئته - تعالى - لم يطلع عليها أحد من خلقه
حتى يقولوا ما قالوا . . .

ولنما الذي أظلمنا عليه - سبحانه - أنه أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم -
لهدايتنا ، ومنحنا العقول التي نميز بها بين الحق والباطل ، فممن أطاع
الرسول - صلى الله عليه وسلم - سعد وفاز ، ومن أعرض عن هدايته خسر

وخاب قال - تعالى - : «إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا إنا هديناه السبيل ، إما شاكرا وإما كفورا ، .

وقال - سبحانه - : «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . . . »

ولقد حكى - سبحانه - شبهة المشركين هذه في آيات أخرى ورد عليها ، ومن ذلك قوله - تعالى - : «وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم أن هم إلا بخرصون ، (١) .

وقوله - سبحانه - : «سيقول الذين أشركوا لو شاء ما أشر كنا ولا آبائنا ، ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذا قوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإنه أقيم إلا تخرصون . قل فله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين . . . » (٢)

هذا ، وقد قلنا عند تفسير هذه الآيات ماملخصه : نريد أن نزيد هذه الشبهة القديمة الحديثة تمحيضا وكشفنا ودفعنا ، فنقول لأولئك الذين يبررون ارتكابهم للوبقات بأنها واقعة بمشئة الله :

نقول لهم : نحن معكم في أنه لا يقع في ملكه - سبحانه - إلا ما يشاؤه . فالطائع تحت المشيئة ، والعاصي تحت المشيئة ، ولكن هذه المشيئة لم تجبر أحدا على طاعة أو معصية ، وقضاء الله هو علمه بكل ما هو كائن قبل أن يكون وليس العلم صفة تأثير وجبر .

ولقد شاء - سبحانه - أن يجعل في طبيعه البشر الاستعداد للخير والشر ، ووجههم العقل ليبتدوا به ، وأرسل إليهم الرسل لينموا فيهم لاستعدادهم ، وسن لهم

(١) سورة الزخرف الآية ١٩ .

(٢) سورة الأنعام الآيات من ١٤٨ - ١٥٠ .

شريعة لتكون مقياساً ثابتاً لما يأخذون وما يدعون ، كي لا يتركهم لعقولهم وحدها .

وإذا فمشيئته الله متحققة حسب سنته التي ارتضاها ، سواء اتخذ العبد طريقه إلى الهدى أو إلى الضلال ، وهو مواخذ إن ضل ، وما جور إذا هتدى غير أن سنة الله اقتضت ، أن من يفتح عينه يبصر النور ، ومن يغمضها لا يراه .

كذلك من يفتح قلبه لإدراك دلائل الإيمان يهتدى ، ومن يحجب قلبه عنها بضل . سنة الله ولن تجد لسنة تبديلاً .

وإذا فزعم الزاعمين بأن الله شاء هذا ، على معنى أنه أجبرهم عليه ، فهم لا يستطيعون عنه فسكاً ، إنما هو زعم باطل لا سند له من العلم والتفكير الصحيح ... (١) .

وقوله - سبحانه - : « كذلك فعل الذين من قبلهم ، تسلياً للرسول الله صلى الله عليه وسلم - عما قاله هؤلاء المشركون من كذب ، وما نطقوا به من باطل :

واسم الإشارة - كذلك ، يعود إلى إشراكهم وتحريرهم لما أحله الله تعالى أي : مثل ذلك الفعل الشنيع الذي فعله قومك معك يا محمد ، فعل أشباههم السابقون مع أنبيائهم الذين أرسلهم الله - تعالى - لهدايتهم ، فلا تبتئس - أيها الرسول الكريم - بما فعله مشركو قومك . فإننا لولا وجودك فيهم ، لأنزلنا بهم ما أنزلنا على سابقهم من عذاب .

والاستفهام في قوله - تعالى : « فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ، إنكارى في معنى النفي

والبلاغ : اسم مصدر بمعنى الإبلاغ . والمبين : الواضح الصريح .
 أى : ما على الرسل الكرام الذين أرسلهم الله - تعالى - لإرشاد أقوامهم
 إلى الصراط المستقيم ، إلا الإبلاغ الواضح ، المظهر لأحكام الله ، والمميز
 بين الحق والباطل ، أما إجبار الناس على الدخول في الحق فليس من
 وظيفة .

قال - تعالى - : « وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك ،
 البلاغ وعلينا الحساب » (١)

وقال - تعالى - : « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء » . . . (٢)

ثم بين - سبحانه - أن من رحمته بعباده ، أن أرسل إليهم الرسل مبشرين
 ومنذرين ، لئلا يكون الناس على الله حجة بعد الرسل ، فقال - تعالى - :
 « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ، أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » . . .

والطاغوت : اسم لكل معبود من دون الله - تعالى - ، كالأصنام والأوثان
 وغير ذلك من المعبودات الباطلة ، مأخوذ من طغا يطفئ طغوا . . . إذا جاوز
 الحد في الضلال . . .

أى : ولقد اقتضت حكمتنا ورحمتنا ، أن نبعث ، في كل أمة ، من الأمم
 السالفة ، رسولا ، من رسلنا الكرام ، ليرشدوا الناس إلى الحق والخير ،
 وليقولوا ، أن اعبدوا الله - تعالى - وحده ، واجتنبوا ، عبادة الطاغوت ،
 الذى يضل ولا يهدي .

وأكد - سبحانه - الجملة بالام وقد ، للرد على ما زعمه المشركون من أن
 الله - تعالى - لم ينكر عليهم عبادتهم لغيره ، وأنه - سبحانه - راض

لتحريرهم لما أحله، حيث بين لهم - عز وجل - أنه قد أرسل الرسل للدعوة إلى عبادته وحده، ولتجنب عبادة أحد سواه .
و « أن » في قوله « أن اعبدوا » تفسيريه، لأن البعث يتضمن معنى القول، إذ هو بعث للتبليغ .

ثم بين - سبحانه - موقف هؤلاء الأقوام من رسلهم فقال - تعالى - :
« ففهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة ... »

أى : بعثنا في كل أمة من الأمم السابقة رسولا لهداية أبنائها . فمن هؤلاء الأبناء من هداهم الله - تعالى - إلى الحق وإلى الصراط المستقيم . بأن وفقهم لإليه، لانتشراح صدورهم له، ومنهم من أثبت وحقت عليه الضلالة، لاستجابته العمى على الهدى .

وأسند - سبحانه - هداية بعض أفراد هذه الأمم إليه، مع أنه أصر جميعهم - على السنة رسله - بالدخول في طريق الهدى، للرد على المشركين الذين أحالوا شركهم وفسوقهم على مشيئة الله، إذ أن الله - تعالى - قد بين للناس جميعا طريق الخير وطريق الشر، فمنهم من استجاب للأولى، ومنهم من انحدر إلى الثانية، وكلاهما لم يقصره الله - تعالى - فسرا على الهدى أو الضلال .

فاهتداء المبتدئين إنما هو بسبب اختيارهم لذلك، واتباعهم للرسل، وضلال الضالين إنما هو بسبب استجواذ الشيطان عليهم .

وعبر - سبحانه - في جانب الضالين بقوله : « ومنهم من حقت عليه الضلالة » للإشارة إلى أنهم لم يستجيبوا لما أرشدهم - سبحانه - إليه، بل ظلوا ثابتين مصممين على البقاء في طريق الضلالة، « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، والله لا يهدي القوم الفاسقين » (١) .

وقوله - سبحانه - : « فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »

تحريض لهم على التأمل في آثار المكذبين ، لعلمهم عن طريق هذا التأمل والتدبر
نعموبون إلى رشدهم ، ويعدون إلى صوابهم ، ويدركون سنة من سنن الله
في خلقه ، وهي أن العاقبة العلية للمتقين ، والعاقبة السيئة للكافرين .

والفاء في قوله « فسيروا ... » للتفريع ، وقد جرى بها للإشعار بوجوب
المبادرة إلى التأمل والاعتبار .

أى : إن كنتم في شك عما أخبرناكم به ، فسارعوا إلى السير في الأرض ،
لتروا بأعينكم آثار المجرمين ، الذين كذبوا الرسل . وأسندوا شركهم إلى
مشيئة الله . لقد نزل بهؤلاء المكذبين عذاب الله ، فدمرهم تدميراً ، ولأنكم
تقرؤن عليهم مصبحين . وبالأيل أفلا تعقلون ، (١) .

ثم أخبر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن حرمه على هداية
المصرين على ضلالهم ، أن يهدي من واقع أمرهم شيئاً ، فقال - تعالى - « إن
تحرص على هدايتهم فإن الله لا يهدي من يضل ... »

والفعل المضارع « يحرص » بكسر الراء ماضيه « حرص » بفتحها كضرب
يضرب .

والحرص : شدة الرغبة في الحصول على الشيء ، والاستئثار به .
وقوله « فإن الله لا يهدي من يضل » ، تعليل لجواب الشرط المحذوف ،
والتقدير :

إن تحرص - أيها الرسول الكريم - على هداية هؤلاء المصرين على كفرهم
لن ينفعهم حرصك . فإن الله - تعالى - قد اقتضت حكمة أن لا يهدي من يضل
فيه الضلالة بسبب سوء اختياره وفساد استعداده .

وفي الجملة السكرية إشارة إلى ما جبل عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - من مكارم

الأخلاق ، فإنه مع ما اتقىه من مشركى قومه من أذى وعناد وتكذيب ...
كان حريصا على ما ينفعهم ويسعدهم .

قال الألوسى ما ملخصه : وقوله « فإن الله لا يهدي من يضل » جواب الشرط
على معنى « فاعلم ذلك » ، أو « لئلا يجازى المحذوف » ، أى : إن تحرص على هدايتهم
لن ينفع حرصك شيئا . فإن الله لا يهدي من يضل .

والمراد بالموصول كفار قريش المعبر عنهم قبل ذلك بالذين أشركوا ،
ووضع الموصول موضع ضميرهم للتخصيص على أنهم ممن حقت عليهم الضلالة
والأشعار بعلامة الحكم ...

ومعنى الآية : أنه - سبحانه - لا يخلق الهداية جبرا وقسرا فيمن يخلق فيه
الضلالة بسوء اختياره .

و « من » على هذا . مفعول « يهدى » وضمير الفاعل فى « يضل » ، لله -
تعالى - والعائد محذوف ، أى من يضله .

وقرأ غير واحد من السبعة « فإن الله لا يهدى ... » بضم الياء وفتح
الدال - على البناء المفعول .

و « من » على هذا نائب فاعل ، والعائد وضمير الفاعل كما مر ... (١)
والمعنى على هذه القراءة : إن تحرص على هدايتهم - يا محمد - لن ينفعهم
حرصك ، فإن من أضله الله - تعالى - لا يهديه أحد .
وقوله : « وما لهم من ناصرين » ، تذييل مؤكد لما قبله .

أى : وليس لهؤلاء الضالين من ناصر يدفع عنهم عذاب الله - تعالى - إن
نزل بهم : أو يصرفهم عن سبيل الغى الذى آثروه على سبيل الرشاد .
وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من

الله شيئا . . . ، (١) وقوله - تعالى - : « من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون » (٢) .

• • •

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك مقولة أخرى من مقولاتهم الباطلة ، التي أكدوها بالإيمان المغلظة ، ورد عليها بما يدفعها ، فقال - تعالى - :

« وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ، لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ بَلِيٍّ وَعَدَّ عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لَيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَن نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠) » .

، قوله - سبحانه - : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ » معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك ، وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا نحن ولا آباؤنا » . « لا يظنون بأنهم قد جمعوا بين إنكار التوحيد وإنكار البعث بعد الموت . »

والقسم : الحلف : وسمى الحلف قسماً ، لأنه يكون عند إقسام الناس إلى مصدق ومكذب والجد - بفتح الجيم - المشقة . يقال جهد فلان دابته وأجهد بها ، إذا حمل عليها فوق طاقتها . وجهد الرجل في كذا ، إذا جد فيه وبالع ، وبابه قطع .

والمراد بقوله : « جهد أيمانهم » أنهم أكدوا الإيمان ووثقوها بكل ألفاظ

(١) سورة المائدة الآية ٤١

(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٦

التأكيد والتوثيق ، على أنه لا يبعث ولا حساب بعد الموت ، لأنهم يزعمون أن إعادة الميت إلى الحياة بعد أن صار ترابا وعظاما نخرة ، أمر مستحيل .

وقد أكدوا زعمهم هذا بالقسم ، للتدليل على أنهم متثبتين بما يقولونه ، ومتيقنين من صحة ما يدعونه ، من أنه لا يبعث الله من يموت ..

قال القرطبي : قوله - تعالى - « وأقسموا بالله جهد إيمانهم » هذا تعجيب من صنعهم ، إذ أقسموا بالله وبالغوا في تغليظ الدين بأن الله لا يبعث من يموت .

ووجه العجب أنهم يظهرون تعظيم الله فيقسمون به ثم يعجزونه عن بعث الأموات .

وقال أبو العالية : كان لرجل من المسلمين على مشرك دين فتقاضاه ، وكان في بعض كلامه : والذي أرجو ، بعد الموت إنه لكذا ، فأقسم المشرك بالله : لا يبعث الله من يموت فنزلت الآية ،

وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : قال الله - تعالى - كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك . وشتى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه لإياي فقوله : إن يعيدني كما بداني ، وأما شتمه لإياي فقوله : إنخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد ، لم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، (١)

وقوله - سبحانه - « بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون » تكذيب لهم فيما زعموه من أن الله - تعالى - لا يبعث من يموت ، ورد عليهم فيما قالوه بغير علم . و « بلى » حرف يؤتى به لإبطال النبي في الخبر والاستفهام .

أي : بلى سيبعث الله - تعالى - الأموات يوم القيامة ، وقد وعد بذلك

وعدا صدقا لاخلف فيه ولا تبدل ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذا الحقيقة
لجهلهم بمكالم قدرة الله - تعالى - ، وعموم علمه ، ونفاذ إرادته ، وسمو حركته .
قال الجمل : وقوله : وعدا عليه حقا ، هذان المصدران منصوبان على
المصدر المؤكد ، أى : وعد ذلك وعدا ، وحق حقا . وقيل : حقا نعنا لوعدا .
والتقدير . بلى يبعثهم وعد بذلك وعدا حقا ، (١)

وجىء بقوله ، عليه ، لتأكيد هذا الوعد . تفضلا منه - سبحانه - وكرما
للمراد بالحق هنا : الصدق الذى لا يتخلف ، والثابت الذى لا يتبدل .
أى : وعدا صادقا ثابتا لا يقبل الخلف ، لأن البعث من مقتضيات حكمته
- سبحانه - .

والمراد بأكثر الناس : المشركون ومن كان على شاكلتهم فى إنكار
البعث والحساب والثواب والعقاب يوم القيامة .

وفى التنبص على أكثر الناس ، مدح للأقلية منهم ، الذين آمنوا بالبعث
وبالآخرة وما فيها من حساب ، وهم المؤمنون الصادقون ،

هذا ، وقد حكى - سبحانه - مزاعم المشركين ورد عليها فى آيات كثيرة
ومن ذلك قوله - تعالى - : **وَقَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا** ، قل بلى وربى
تبعثن ، ثم انتبهون بما عملتم ، (٢)

وقوله - تعالى - : **وَضَرَبْنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ** ، قال من يحىي العظام
وهى رميم . قل يحىيها الذى أنشأها أول مرة ، (٣)

ثم بين - سبحانه - الحكمة من بعث الناس يوم القيامة ، فقال - تعالى - :
لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ،

(١) حاشية الجمل عن الجلالين ج ٢ ص ٥٧١

(٢) سورة التغابن الآية ٧

(٣) سورة يس الآية ٧٨ ، ٧٩

واللام في قوله : اييبين لهم . . . ، وفي قوله : وليعلم . . . ، متعلقة بما دل عليه حرف : بلى ، وهو يبعثهم .

أى : بلى يبعث الله - تعالى - الموتى ، ليظهر لهم وجه الحق فيما اختلفوا فيه في شأن البعث وغيره ، وليعلم الذين كفروا علم مشاهدة ومعاينة ، أنهم كانوا كاذبين في قسمهم أن الله - تعالى - لا يبعث من يموت ، وفي غير ذلك من أقوالهم الباطلة ..

وفي إظهار الحق ، وفي بيان كذبهم يوم البعث ، حسرة وندامة لهم ، حيث ظهر لهم ما أنكروه في الدنيا ، وما كانوا يستهزئون به ، عندما كان الرسل - عليهم الصلاة والسلام - يدعونهم إلى نبذ الشرك ، وإلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده .

فآية الكريمة قد بينت حكمتين لبعث الناس للحساب يوم القيامة ، الأولى إظهار ما اختلفوا فيه في شأن البعث وغيره مما جاءتهم به الرسل . والثانية : إظهار كذب المكافرين الذين أنكروا البعث واستهزؤوا بمن دعاهم إلى الإيمان به .

وقوله - سبحانه - : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » استئناف لتأكيد قدرة الله - تعالى - النافذة ، وشوطها لكل شيء من بعث وغيره ، وذلك لأن السكناهم لما أتسموا بالله جهد أيمانهم بأنه - سبحانه - لا يبعث الموتى ، ورد عليهم بما يطال مزاعمهم ، أتبع ذلك ببيان أن قدرته - تعالى - لا يتعاضى إليها شيء ، ولا يحول دون نفاذها حائل . . .

قال الإمام ابن كثير : أخبر - سبحانه - عن قدرته على ما يشاء ، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون ، والمراد من ذلك إذا أراد كونه . فإنما يأمر به مرة واحدة فيكون كما يشاء ، قال - تعالى - : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » ، وقال - سبحانه - : « ما خلقكم ولا بحكم إلا كنفس واحدة » .

وقال - سبحانه - في هذه الآية ، إنما أمرنا إذا أردناه أن نقول له كن ، فيكون ، أى : يأمر به دفعة واحدة فإذا هو كائن . قال الشاعر :

إذا ما أراد الله أمرا فإنما يقول له د كن ، قوله فيكون

أى : د أنه - تعالى - لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به ، فإنه - سبحانه - لا يمانع ولا يخاف ، لأنه الواحد القهار العظيم ، الذى قهر سلطانة وحبروته وعزته كل شئ (١) .

وقال بعض العلماء : وعبر - تعالى - عن المراد قبل وقوعه باسم الشئ ، لأن تحقق وقوعه كالوقوع بالفعل ، فلا تنافي الآية لإطلاق الشئ - على خصوص الموجود دون المهدوم ، لأنه لما سبق فى علم الله أنه يوجد ذلك الشئ - وأنه يقول كن فيكون - ، كان تحقق وقوعه بمنزلة وقوعه

أو لأنه أطلق عليه اسم الشئ . باعتبار وجوده المتوقع كتسمية العصير خمرًا فى قوله د إني أراني أعصر خمرًا . . . نظرا لما يؤول إليه . . . (٢) .

وقوله د فيكون ، قرأه الجمهور بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى : فهو يكون . . .

وقرأ ابن عاصم والكسائي د فيكون ، بالنصب عطفا على قوله د أن نقول له

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكمت جانباً من أقوال المفسرين ، وردت عليها بما يبطلها ، ويزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم .

وبعد أن عرضت السورة الكريمة لأقوال المفسرين وردت عليها . . .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٩١ .

(٢) تفسير أضواء البيان ج ٣ ص ٢٧٢ للشيخ محمد الأمين الدنقيطى .

(٦ - سورة النحل)

أتبعت ذلك بذكر جانب من الثواب العظيم الذي أعدّه الله - تعالى - للمؤمنين الصادقين ، الذين غارقوا الدار والأهل والخلائ ، من أجل إعلاء كلمة الله - تعالى - ، فقال - سبحانه - :

« وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) .

أخرج ابن جرير عن قتادة قال : قوله - تعالى - : « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ... » هؤلاء أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم ، حتى لحق طائفة منهم بالحبيشة ، ثم بوأهم الله - تعالى - المدينة فجعلها لهم دار هجرة ، وجعل لهم أنصارا من المؤمنين

وعن ابن عباس : هم قوم هاجروا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أهل مكة ، بعد أن ظلمهم المشركون ، (١) .

والذي نراه أن الآية الكريمة تشمل هؤلاء ، وتشمل غيرهم ممن هاجر من بلده إلى غيرها ، رجا ثواب الله ، وخدمة لدينه .

وإنما هجرة في الأصل تطلق على المفارقة والمشاركة الديار وغيرها ، واستعملت شرعا في المهاجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان ، أو من دار الكفر إلى غيرها لنشر دعوته الإسلام .

وقوله « لَنَبُوْنَهُمْ » من النبوة بمعنى الإحلال والإسكان والإنزال يقال بوأ فدرن فلانا منزلا ، إذا أسكنه فيه ، وهياه له ...

« وحسنة ، صفة لموصوف محذوف أى : لشبوتهم تبوئة حسنة ، أو دارا
حسنة »

والمراد بهذه الحسنة ما يشدل نزولهم في المدينة ، ونصرهم على أعدائهم ،
ولابدال خوفهم أمنا ...

قال القرطبي في المراد بالحسنة هنا ستة أقوال : نزول المدينة ؛ قاله بن عباس
والحسن ... اثنى : الرزق الحسن . قاله مجاهد . الثالث : النصر على عدوهم ،
قاله الضحاك ، الرابع : لسان صدق ، حكاه ابن جرير . الخامس : ما استولوا
عليه من البلاد ... السادس : ما بقى لهم في الدنيا من ثناء ، وما صار فيها
لأولادهم من الشرف ..

ثم قال : وكل ذلك قد اجتمع لهم بفضل الله - تعالى - ، (١) .

والمعنى : والذين هاجروا في سبيل الله ، وفارقوا قومهم وأوطانهم وأمرهم
وأولادهم ... من أجل إعلاء كلمته ، بعد أن تحملوا الكثير من أذى المشركين
وظلمهم وطفيتانهم ...

هؤلاء الذين فعلوا ذلك من أجل نصرة ديننا ، لنسكنهم في الدنيا مساكن
حسنة يرضونها ، ولنعطينهم عطاء حسنا يمدحهم ، ولننصرتهم على أعدائهم
نصرة مؤزرا ...

وقوله « في الله » أى : في سبيله ، ومن أجل نصرة دينه . فحرف « في »
مستعمل للتعليل ، كما في قوله - صلى الله عليه وسلم - : « دخلت امرأه النار
في هرة حبستها ... »

والمقصود أن هذا الأجر الجزيل إنما هو المهاجرين من أجل إعلاء كلمة
الله ، ومن أجل نصرة الحق ، وليس لمن هاجر لنشر الظلم أو الفساد في
الأرض ...

وأستند فعل ، ظلموا ، إلى المجهول ، لظهور الفاعل من السياق وهو
المشركون .

وفي ذلك إشارة إلى أن هؤلاء المهاجرين لم يفارقوا ديارهم ، إلا بعد أن
أصابهم ظلم أعدائهم لهم ، كتعذيبهم لإيائهم ، وتضييقهم عليهم ، إلى غير ذلك
من صنوف الأذى ...

وأكد - سبحانه - الجزاء الحسن الذي وعدهم به باللام وبنون
التوكيد ، لثبوتهم ... ، ، زيادة في إدخال السرور والطمأنينة على قلوبهم ،
وجبرا لكل ما اشتملت عليه الهجرة من مصاعب وآلام وأضرار ...

إذ الحسنة - كما قلنا - تشمل كل حسن أعطاه الله - تعالى - المهاجرين
في هذه الدنيا ...

أما في الآخرة فأجرهم أعظم ، وثوابهم أجزل ، كما قال - تعالى - :
« ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » .

والضمير في قوله « لو كانوا يعلمون » يعود على أعدائهم الظالمين .

أي : ولثواب الله - تعالى - لهم في الآخرة على هجرتهم من أجل إعلاء
كلمته ، أكبر وأعظم ، ولو كان أعداؤهم الظالمون يعلمون ذلك لدخلوا في دين
الإسلام ، ولأقلموا عن ظلمهم لهؤلاء المهاجرين .

وكان جملة « لو كانوا يعلمون » جوابا عن سؤال تقديره : كيف
لم يقتد بهم من بقي على الكفر مع هذا الثواب الذي أعده الله لهؤلاء
المهاجرين ؟

فكان الجواب : لو كان هؤلاء الكافرون يعلمون ذلك لأقلموا
هن كفرهم .

ويصح أن يكون الضمير يعود على المهاجرين ، فيكون المعنى : لو كانوا يعلمون علم مشاهدة ومعاينة ما أعدّه الله لهم ، لما حزنوا على مفارقه الأوطان والأولاد والأموال ، ولا زادوا حبا وشوقا واجتهادا في الهجرة .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عمر بن الخطاب ، أنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول له : خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما ذخره لك في الآخرة أفضل ، ثم تلا هذه الآية (١) .

وجوز بعضهم أن يكون الضمير يعود للمتخلفين عن الهجرة . أى : لو علم هؤلاء المتخلفون عن الهجرة ، ما أعدّه - سبحانه - من أجر للمهاجرين ، لما تخلفوا عن ذلك .

وعلى أية حال فلا مانع من أن يكون الضمير يعود على كل من يتأقلى العلم ، بهذا الثواب الجزيل لهؤلاء المهاجرين فى سبيل الله - تعالى -

ثم وصف - سبحانه - هؤلاء المهاجرين بوصفين كريمين فقال : الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ، أى : هذا الأجر العظيم لهؤلاء المهاجرين ، الذين صبروا على ما أصابهم من عدوان وظلم ، وفوضوا أمرهم إلى خالقهم ، فاعتمدوا عليه وحده ، ولم يعتمدوا على أحد سواه .

وصفتا الصبر والتوكل على الله . إذا دخلا فى قلب ، حملا على اعتناق كل فضيلة ، واجتناب كل رذيلة .

وعبر عن صفة الصبر بصيغة الماضى للدلالة على أن الصبر قد آذن إبالانتهاء لانقضاء أسبابه وهو ظلم أعدائهم لهم ، لأن الله - تعالى - قد جعل لهم مخرجا بالهجرة ، وذلك بشاره لهم .

وعبر عن صفة التوكل بصيغة المضارع للإشارة إلى أن هذه الصفة ديدنهم

في كل وقت ، فهم متوكلون عليه - سبحانه - وحده في السموات والارض ، وفي
العصر والبصر ، وفي المنشط والمساكنه ..

والمأمل في هاتين الآيتين الكرمتين ، يراها قد غرستا في النفوس محبة
هذا الدين ، والاستهانة بكل ألم أضر أو مصيبة في سبيل إعلاء كلمته ، والرغبة
فيما عند الله - تعالى - من أجر وثواب .

ثم رد - سبحانه - على المشركين الذين أنكروا أن يكون الرسول - صلى الله
عليه وسلم - من البشر ، فبين - سبحانه - أن الرسل السابقين الذين لا ينكر
نبوتهم كانوا من البشر ، فقال - تعالى - .

« وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ
الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ
لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) » .

قال الإمام ابن كثير : عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : لما بعث الله
- تعالى - محمدا - صلى الله عليه وسلم - رسولا ، أنكرت العرب ذلك ، وأمن
أنكر منهم ، وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا ، فأنزل الله : « أكان
للناس عجا أن أوحينا إلى رجل منهم ... » ، وقال : « وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ
إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ » ، (١)

أي : وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ أيها الرسول الكريم - لهداية الناس وإرشادهم
إلى الحق إلا رجلا مثلك ، وقد أوحينا إليهم بما يبلغونه إلى أقوامهم ، من
فصائح وتوجيهات وعبادات وتشريعات ، وقد لقي هؤلاء الرسل من أقوامهم ،
مثل ما لقيت من قومك من أذى وتكذيب وتعت في الأسئلة ...

فالقصود من الآية الكريمة تسليمة النبي - صلى الله عليه وسلم - والرد على
المشركين فيما أثاروه حوله - صلى الله عليه وسلم - من شبهات .

وقد حكى القرآن في مواطن عدة إنكار المشركين لبشرية الرسل ورد عليهم بما يخبرهم ، ومن ذلك وقوله - تعالى - : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى ... » (١)

وقوله - تعالى - : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم ، إلا أن قالوا ، أبأنت الله بشرا رسولا » (٢) .

وقوله - تعالى - : « ذلك بأنهم كانت قلوبهم غشاوة ، فقالوا أبشر يهودنا ، فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد » (٣) .

والمراد بأهل الذکر في قوله « فاسألوا أهل الذکر إن كنتم لاتعلمون » علماء أهل الكتاب أى : لقد اقتضت حکمتنا أن يكون الرسول من البشر في كل زمان ومكان ، فإن كنتم في شك من ذلك - أيها المكذبون - فاسألوا علماء أهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى ، فسيبينون لكم أن الرسل جميعا كانوا من البشر ولم يكونوا من الملائكة .

وهذه الجملة الحکريّة معترضه بين قوله - تعالى - « وما أرسلنا ... » وبين قوله بعد ذلك : « بالبينات والزبر ... » ، للمبادرة إلى توبيخ المشركين وإبطال شبهتهم ، لأنه قد احتج عليهم ، بمن كانوا يذهبون إليهم لسؤالهم عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

وفي قوله - تعالى - « إن كنتم لاتعلمون ، إيمان إلى أنهم كانوا يعلمون أن الرسول لا يكرهون إلا من البشر ، ولكنهم قصدوا بإنكار ذلك الجحود والمكابرة ، والتعوية لتضليل الجاهل ، ولذا جئ في الشرط بحرف « إن » المفيد للشك .

(١) سورة يوسف الآية ١٩ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٩٤ .

(٣) سورة التغابن الآية ١٠ .

وجواب الشرط لهذه الجملة محذوف ، دل عليه ما قبله . أى : لمن كنتم
رأتعلمون ، فاسألوا أهل الذكر .

وقبل المراد بأهل الذكر هنا : المسلمون مطلقا ، لأن الذكر هو القرآن ،
وأهله هم المسلمون .

ونحن لا ننكر أن الذكر يطلق على القرآن الكريم ، كما فى قوله - تعالى -
« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، إلا أن المراد بأهل الذكر هنا :
علماء أهل الكتاب ، لأن المشركين كانوا يستفسرون منهم عن أحوال النبي
- صلى الله عليه وسلم - ، أكثر من استفسارهم من المسلمين .

قال الآلوسى ماملخصه قوله - تعالى - : « فاسألوا أهل الذكر ... » أى :
أهل الكتاب من اليهود والنصارى . قاله : ابن عباس والحسن والسدى وغيرهم .
وقال أبو حيان فى البحر : والمراد من لم يسلم من أهل الكتاب ، لأنهم
الذين لا يتهمون عند المشركين فى إخبارهم بأن الرسل كانوا رجالا ، فإخبارهم
بذلك حجة عليهم . والمراد كسر حجتهم وإلزامهم ، وإلا فالحق واضح فى
نفسه لا يحتاج إلى إخبار هؤلاء ... (١)

قالوا : فى الآية دليل على وجوب الرجوع إلى أهل العلم فيما لا يعلم ، وعلى
أن الرسل جميعا كانوا من الرجال ولم يكن من بينهم امرأة قط .

والجار والمجرور فى قوله : « بالبينات والزبر ... » متعلق بقوله
« وما أرسلنا ... » ودخل تحت حكم الاستثناء مع « رجالا » .

والمراد بالبينات : الحجج والمعجزات الدالة على صدق الرسل .

والزبر : جمع زبور بمعنى زبور أى مكتوب . يقال زبرت الكتاب
من باب نصر وضرب . أى : كتبت كتابه عظيمة .

أى : وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - إلا رجالا مؤيدين بالمعجزات الواضحات ، وبالكتب العظيمة المشتملة على التشريعات الحكيمة والآداب الحميدة ، والعقائد السليمة ، التي تسعد الناس في دينهم وفي دنياهم .
وقوله - سبحانه - : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » بيان للحكم التي من أجلها أنزل الله - تعالى - القرآن على النبي - صلى الله عليه وسلم - .

أى : وأنزلنا إليك - أيها الرسول الكريم - القرآن ، لتعرف الناس بحقيقة وأسرار ما أنزل لهم أيهم في هذا القرآن من تشريعات وآداب وأحكام ومواظب ولعلهم بهذا التعريف والتبيين يتفكرون فيما أرشدتهم إليه ، ويعملون بهديك ويقفون بك في أقوالك وأفعالك ، وبذلك يفوزون ويسعدون .

فأنت ترى أن الجملة السكينة قد اشتملت على حكمتين من الحكم التي أنزل الله - تعالى - من أجلها القرآن على النبي - صلى الله عليه وسلم - .

أما الحكمة الأولى : فهي تفسير ما اشتمل عليه هذا القرآن من آيات خفي معناها على أتباعه ، بأن يوضح لهم - صلى الله عليه وسلم - ما أجمله القرآن الكريم من أحكام ، ويؤكد لهم - صلى الله عليه وسلم - هذه الأحكام . . .

ففي الحديث الشريف عن المقدم بن معد يكرب ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : ألا ولاني أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أن يكتنه يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه

وأما الحكمة الثانية : فهي التفهيم في آيات هذا القرآن ، والانتعاظ بها ، والعمل بمقتضاها ، قال - تعالى - : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته » . ولتذكر أولوا الألباب .

والمراد بالناس في قوله - تعالى - : « لتبين للناس » ، الممرم ، ويدخل فيهم المعاصرون لنزول القرآن الكريم دخولا أوليا .

وأُسند - سبحانه - التبیین إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - لأنه هو المبلغ عن الله - تعالى - ما أمره بقبليغه .

قال الجمل : قوله - تعالى - وأزلفنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ...
يعنى : أنزلنا إليك - يا محمد - الذكر الذى هو القرآن ، وإنما سماه ذكراً ، لأن فيه مواعظ وتنبها للغافلين ، ولتبين للناس ما نزل إليهم ، يعنى ما أجل إليك من أحكام القرآن ، وبيان الكتب التى يطلب من السنة ، والمبين لذلك الجمل هو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ولهذا قال بعضهم : متى وقع تعارض بين القرآن والحديث ، وجب تقديم الحديث ، لأن القرآن مجمل والحديث مبين ، بدلالة هذه الآية ، والمبين مقدم على الجمل ، (١) .

وبعد أن ردت السورة الكريمة على ما أثاره المشركون من شبهات حول الدعوة الإسلامية ، أتبع ذلك بتهديم من سوء عاقبة ما هم فيه من كفر وعصيان وعناد ، فقال - تعالى - :

« أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ، أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ فِي هُمْ مُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧) » .

قال الآرسى ماملخصه : قوله - تعالى - : « أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ » هم عند أكثر المفسرين ، مشركو مكة ، الذين مكروا برسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ورأوا صد أصحابه عن الإيمان ...
وقيل : هم الذين احتالوا لهلاك الأنبياء ... والمعول عليه ما عليه أكثر المفسرين ، (٢) .

والاستفهام فى الآية الكريمة للتعجيب والتوبيخ .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٧٢

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ١٥٠

والفاء للعطف على مقدر دل عليه المقام .

قال بعضهم مالم خصه : كل ما جاء في القرآن الكريم ، من همزة إستفهام بعدها ، أو العطف أو فآؤه . فالأظهر فيه ، أن الفاء والواو كتأهما عاطفة ما بعدها على محذوف دل عليه المقام . . .

والتقدير هنا : أجهل الذين مكروا السيئات وعيد الله لهم بالعقاب . فأمنوا
مكره . . . (١)

والمراد بمكروهم هنا : سعيهم بالفساد بين المؤمنين ، على سبيل الإخفاء والخذاع .

والسيئات : صفة لمصدر محذوف . أى : مكروا المسكرات السيئات .
والمسكرات - بفتح السكاف - جمع مكره - بسكونها - وهى المرة من المسكر .
ويحوز أن تكون كلمة السيئات مفعولاً به بتضمين مكروا ، وهى :
فعلوا . . .

والخسف : التغيب فى الأرض ، بحيث يصير المحذوف به فى باطنها .
يقال : خسف الله بفلان الأرض ، إذا أهلكه بتغيبه فيها .
ومنه قوله - تعالى - : « نخسفنا به وبداره الأرض . . . » .
واللهى أجهل الذين اجترحوا السيئات وعيدنا ، فأمنوا عقابنا وتوهوا
أنهم لن يصيبهم شئ من عذابنا ، الذى من مظاهره خسف الأرض بهم ، كما
خسفناهم بقارون من قبلهم ١١٩

لأن جملهم هذا الدليل على انطماس بصيرتهم ، واستحواذ الشيطان عليهم .
وقوله : أو يأتيتهم العذاب من حيث لا يدعرون ، بيان للون آخر من ألوان
تهديدهم .

أى : فى قدرتنا أن نخسف بهم الأرض ، وفى قدرتنا أيضا أن نرسل عليهم العذاب فجأة فيأتهم من جهة لا يتوقعون مجيئه منها ، ولا يترقبون الشر من ناحيتها .

وفى الجملة السكرية إشارة إلى أن هذا العذاب الذى يأتهم من حيث لا يشعرون . عذاب لا يمكن دفعه أو الهروب منه ، لأنه أتاهم بغتة ، ومن جهة لا يترقبون الشر منها .

وشبهه بهذا قوله - سبحانه - : فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا
وقوله - سبحانه - : : أو يأخذهم فى تقلبهم فاهم بمعجزين ، بيان لنوع ثالث من أنواع التهديدات التى هددهم الله - تعالى - بها .
والأخذ فى الأصل : حوز الشئ وتحصيله . والمراد به هنا : القهر والإهلاك والتدمير ومنه قوله - تعالى - : : فأخذهم أخذذة رابية ، وقوله - تعالى - : : كذبوا بآياتنا كاذبا فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر . .
والثقل : الحركة السريعة لإقبال وإدبارا ، من أجل السعي فى شئون من متاجرة ودماملة وسفر وغير ذلك .

ومنه قوله - تعالى - : لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد . .
أى : فى قدرتنا أن نخسف بهم الأرض ، وأن نرسل عليهم العذاب من حيث لا يشعرون ، وفى قدرتنا كذلك أن نهلكهم وهم يتحركون فى مناكب الأرض خلال سفرهم أو إقامتهم ، فإنهم فى جميع الأحوال لا يعجزوا فأخذهم ، ولا مهرب لهم مما نريده بهم .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : : أفأمن أهل القرى أن يأتهم بأسنا بينات وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتهم بأسنا ضحى وهم يلهبون . أفأمنوا مكر الله ، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .^(١)

وقوله - سبحانه - : دَأْوُ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوْفٍ فَإِنْ رَبِّكُمْ لَرْءُوفٌ رَحِيمٌ .
قال بعض العلماء : والتخوف فى اللغة يأتى مصدر تخوف القاصر ، بمعنى
خاف ، ويأتى مصدر تخوف المتعدى بمعنى تنقص . وهذا الثانى لغة هذيل ،
وهى من اللغات الفصيحة التى جاء بها القرآن (١) .

والمعنى على الأول : أَوْ يَأْخُذْهُمْ وَهُمْ فِى حَالَةِ خَوْفٍ وَتَوَقُّعٍ لِنُزُولِ
العذاب بهم ، كما نزل بالذين من قبلهم .

ولأن هذا المعنى أشار ابن كثير بقوله : دَأْوُ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوْفٍ ، أى :
أَوْ يَأْخُذْهُمْ اللَّهُ - تعالى - فى حال خوفهم من أخذه لهم ، فإنه يكون أبلغ
وأشد حالات الأخذ ، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد ... (٢)

والمعنى على الثانى : أَوْ يَأْخُذْهُمْ وَهُمْ فِى حَالَةٍ تَنْقُصُ فِى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ
وَأَوْلَادِهِمْ ، حتى يهلكوا ، فيكون هلاكهم قد سبقه الفقر والقحط والمرض ،
وفى ذلك ما فيه من عذاب لهم ، وحسرة عليهم .

قال القرطبي : وقال سعيد بن المسيب : بينما عمر بن الخطاب - رضى الله
عنه على المنبر قال : أيها الناس ما تقولون فى قول الله عز وجل - . . دَأْوُ يَأْخُذْهُمْ
عَلَى تَخَوْفٍ ، فسكت الناس .

فقال شيخ من بنى هذيل : هى لغتنا يا أمير المؤمنين . التخوف : التنقص .
فقال عمر : أتعرف العرب ذلك فى أشعارهم ؟ قال نعم : قال شاعرنا
أبو كبير الهزلى يصف ناقة تَنْقُصُ السير سنامها بعد اكتنازه :
نَحْوَى الرَّحْلِ مِنْهَا قَامِ مَكَارِدَا كَيَا تَخَوَّفَ عَوْدُ النَّبَّعَةِ السَّقْفَيْنِ

(١) تفسير التحرير والتنوير . للشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٩٤ .

فقال عمر : أيها الناس : عليكم بديوانكم شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم ،^(١) .

وختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « فإن ربكم لرؤوف رحيم »
ليبيان فضله - سبحانه - على عباده ، حيث لم يعالجهم بالعقوبة ، بل أمهلهم أعلمهم
يتوبون إليه ويستغفرونه .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حذرت الكافرين من التمادى في
كفرهم ، وهددتهم : بخسف الأرض بهم ، أو بنزول العذاب عليهم من حيث
لا يشعرون ، أو بإهلاكهم وهم في الأرض يكدحون . . .

وبعد أن خوف - سبحانه - الماكرين بما خوف ، أمتع ذلك بما يدل
على كمال قدرته وعظمته وجلاله ، حيث خضعت جميع المخلوقات لذاته - سبحانه -
فقال .. تعالى .. :

« أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ، يَتَفَيَّؤُ ظِلَّالَهُ عَنْ اليمينِ
والشمالِ سجداً لله وهم داخِرُونَ (٤٨) ولله يسجد ما في السمواتِ
وما في الأرض من دابةٍ ، والملائكةُ وهم لا يستكبرون (٤٩) يخافونَ
ربَّهم من فوقهم ويفعلونَ ما يؤمرون (٥٠) » .

قرأ جمهور القراء : « أَوَلَمْ يَرَوْا ... » ، وقرأ حمزة والكسائي : « أَوَلَمْ تَرَوْا ،
بالتاء ، على الخطاب ، على طريقة الالتفات .

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١١٠ . وتخوف في البيت بمعنى تنقص ،
والرحل : السفر . والتامك : المرتفع . والقرد المتراكم لخمه بعضه فوق بعض
من السمن . والنبعة : شجرة من أشجار الجبال يتخذ منها القسي . والسفن :
ما يقطع به الحشب . فكانه يقول : إن هذه الناقة قد تنقص السفر سنامها ،
كما تنقص المنشار أو ما يقبضه أعواد الأشجار .

وقوله « من شئ » ، بيان الإيهام الذى فى « ما » ، الموصولة فى قوله « إلى ما خلق الله » .

وقوله (يتفيؤ) من التفيؤ ، بمعنى الرجوع . يقال : فاء فلان يفيء إذا رجع . وفاء الظل فياً ، إذا عاد بعد إزالة ضوء الشمس له . وتفيؤ انطلال : تنقلها من جهة إلى أخرى بعد شروق الشمس ، وبعد زوالها ...

والظلال : جمع ظل ، وهو صورة الجسم المنعكس إليه نور .

و (داخرون) من الدخور بمعنى الانقياد والخضوع . يقال : دخر فلان يدخر دخوراً ، ودخر - بزنة فرح - يدخر دخراً ، إذا انقاد لغيره وذل له .

والمعنى : أعمى هؤلاء المشركون الذين مكروا السيئات ، ولم يروا ما خلق الله - تعالى - من الأشياء ذوات الظلال - كالجبال والأشجار وغيرها - وهى تنقل ظلالها من جانب إلى جانب ، ومن جهة إلى جهة ، باختلاف الأوقات وهى فى كل الأحوال والأوقات منقادة لأمر الله - تعالى - ، جارية على ما أَراده لها من امتداد وتقلص وغير ذلك ، خاضعة كل الخضوع لما سخرت له ..

قال ابن كثير - رحمه الله - : يخبر - تعالى - عن عظمتة وجلاله ، الذى خضع له كل شئ - ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها ، جهادها وحبواتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة ، فأخبر أن كل ماله ظل ينفياً ذات اليمين وذات الشمال - أى بكرة وعشياً - ، فإنه ساجد بظله لله - تعالى - ^(١) .

والاستفهام فى قوله - تعالى - (أولم يروا ...) : للإنكار والتوبيخ ، والروية بصرية ..

أى : قد رأوا كل ذلك ، ولكنهم لم يفتفؤوا بما رأوا ، ولم يتعظوا بما شاهدوا ..

والمراد بقوله : « عن اليمين والشمائل ، جهتهما ، وليس المراد التقييد بذلك ، إذ أن الظل أحيانا يكون أمام الإنسان وأحيانا يكون خلفه . وإنما ذكر اليمين والشمائل اختصارا للكلام .

وأفرد اليمين ، لأن المراد به جنس الجهة ، كما يقال : المشرق ، أى جهة المشرق ، وجمع : الشمائل ، - مفردة شمال - ، لأن المفصود تعدد هذه الجهة باعتبار تعدد أصحابها .

وقال الشوكاني : قال الفراء : « وحد اليمين ، لأنه أراد واحدا من ذرات الأطلال ، وجمع الشمائل ، لأنه أراد كلها .

قال الواحدي : « وحد اليمين والمراد به الجميع لإيجازا في اللفظ ، كقوله : « ويولون الدبر » ، ودلت الشمائل على أن المراد به الجمع . وقيل : إن العرب إذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عن إحداهما بلفظ الواحد ، كما في قوله - تعالى - « وجعل الظلمات والنور ... » (١)

وقوله - سبحانه - « سجدا لله وهم داخرون » حال من « ظلالة ، أى : حال كون هذه الأشياء وظلالها سجدا لله - تعالى - ، وحال كون الجميع لا يتمتع عن أمر الله - تعالى - ، بل الكل خاضع له - سبحانه - كل الخضوع .

وجاء قوله - تعالى - « وهم داخرون » بصيغة الجمع الخاصة بالعقلاء ، تغليباً لهم على غيرهم ثم أتبع - سبحانه - هذه الآية السكرية ، بآية أخرى مؤكدة لها ، ومبينة أن كل المخلوقات لن تمتنع عن السجود لله - تعالى - ، سواء أكانت لها ظلال أم لا ، فقال - سبحانه - : « والله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة ، والملائكة وهم لا يستكبرون .. »

والدابة : كل ما يدب على وجه الأرض ، مشقة من الدب بمعنى الحركة .

قال الجبل : قال العلماء ، السجود على فؤدين : سجود طاعة وعبادة كسجود المسلم لله - عز وجل - وسجود اتياد وخضوع كسجود الظلال . فقوله ، وقته يسجد ما في السموات وما في الأرض . ، يحتمل النوعين ، لأن سجود كل شيء بحسبه ، فسجود المسلمين والملائكة سجود طاعة وعبادة ، وسجود غيرهم سجود خضوع وانقياد . . . (١)

وأورث دماء الموصولة على من ، تغليباً لغير العقلاء ، لكثرتهم ولإرادة العموم .

وقوله : د من دابة ، بيان لما في الأرض ، إذ الدابة ما يندب على الأرض أو - كما يقول الألوسي - بيان لما فيهما ، بناء على أن الدبيب هو الحركة الجسمانية ، سواء أكانت في أرض أو سماء . . . (٢)

وقوله : والملائكة ، معطوف على دماء ، في قوله د ما في السموات وما في الأرض ، من باب عطف الخاص على العام .

وخصمهم - سبحانه - بالذكر تشريفاً لهم . ورفعاً لمنزلتهم ، وتعريضاً بالمؤمنين الذين عبدوا الملائكة . أو قالوا هم بنات الله .

وقوله : وهم لا يستكبرون ، أي : والملائكة لا يستكبرون عن إخلاص العبادة له ، وعن السجود لذاته - سبحانه - بل هم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

ثم وصفهم - سبحانه - بالخشية منه ، وبالخوف من عقابه فقال : يخافون ربهم من فوقهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

أي : أن من صفات الملائكة ، أنهم يخافون ربهم الذي هو من فوقهم

(١) حاشية الجبل على الجلالين ج ٢ ص ٥٧٤ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٢ ص ١٥٧ .

بجلاله وقهره وعلمه - بلا تشبيه ولا تمثيل - ، ويفعلون ما يؤمرون به من الطاعات ، ومن كل ما يكلفهم به - سبحانه - دون أن تصدر منهم مخالفة .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد وصفت الله - تعالى - بما هو أهل له - سبحانه - من صفات القدرة والجلال والكبرياء ، حتى بنى الضالون إلى رشدكم ، ويخلصوا العبادة لحالقمهم - عز وجل -

وبعد أن بين - سبحانه - أن كل شيء في هذا الكون خاضع لقدرته ، أتبع ذلك بالتهى عن الشرك ، ووجوب إخلاص العبادة له ، فقال - تعالى -

« وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ، فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ، أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بَكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ ، ثُمَّ إِذْ مَسَّكُمْ الضَّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأُرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) » .

قال الإمام الرازي : أعلم أنه - سبحانه - لما بين في الآية الأولى ، أن كل ما سوى الله - تعالى - ، سواء أكان من عالم الأرواح أم من عالم الأجسام ، منقاد وخاضع لجلاله - تعالى - وكبريائه - أتبعه في هذه الآية بالتهى عن الشرك ، وبيان أن كل ما سواه واقع في ملكه وتحت تصرفه ، وأنه غنى عن الكل ، فقال - تعالى - : « وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ... » (١)

أى : وقال الله - تعالى - لعباده عن طريق رسله - عليهم الصلاة والسلام - لا تتخذوا شركاء معى في العبادة والطاعة ، بل اجعلوا محلى وحدى ، فأنا الخالق لكل شيء والقادر على كل شيء ...

قال الألوسي : وقوله ، وقال الله . . . معطوف على قوله - سبحانه -
« والله يسجد ما في السموات وما في الأرض . . . »

ولإظهار الفاعل ، وتخصيص لفظ الجلالة بالذكر ، للإيدان بأنه - تعالى -
« تعين الألوهية ، والمنهى عنه هو الاشراف به ، لا أن المنهى عنه هو مطلق
اتخاذ إلهين . . . » (١)

وقوله « اثنين » صفة للفظ إلهين أو مؤكدا له . وخص هذا العدد بالذكر ،
لأنه الأقل ، فيعلم انتفاء اتخاذ ما فوقه بالطريق الأولى .

وقوله - سبحانه - « إنما هو إله واحد » بيان وتوكيد لما قبله ، وهو
مقول لقوله - سبحانه - : « وقال الله . . . »

أى : « وقال الله لا تتخذوا معى فى العبادة إلها آخر » ، وقال - أيضا - إنما
المستحق للعبادة إله واحد والقصر فى الجملة السكينة من قصر الموصوف على
الصفة ، أى : « الله وحده هو يختص بصفة الوحدة » .

وقوله - سبحانه - « عن الشرك فى آيات كثيرة » ، وأقام الأدلة على بطلانه
ومن ذلك قوله - تعالى - « لا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما
مدحورا » ، وقوله - سبحانه - « لو كان فىهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، فسبحان
الله رب العرش عما يصفون . . .

والفاء فى قوله « فإياى فارهبون » واقعة فى جواب شرط مقدر وإياى
مفعول به لفعل محذوف يقدر دؤخرا ، يدل عليه قوله « فارهبون » .

والرهبة : الخوف المصحوب بالتهجرز ، وفعله رهب بزة طرب .
والمعنى : « إن رهبت شيئا فإياى فارهبوا دون غيرى » ، لأنى أنا الذى
لا يعجزنى شيء .

وفى الجملة السكينة التفات من الغيبة إلى الخطاب ، للمبالغة فى التخويف ،

لذ تخويف الحاضر أبلغ من تخويف الغائب ، لاسيما بعد أن وصف - سبحانه - ذاته بما وصف من صفات القهر والغلبة والكبرياء .

وقدم المفعول وهو إياي ، لإفادة الحصر ، وحذف متعلق الرهبة ، للعموم .

أى : ارهبون في جميع ما تأتون وما تدرنون ...

والمأمل في هذه الآية الكريمة يراها قد اشتملت على ألوان من المؤكيدات للنهى عن الشرك ، والأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، تارة عن طريق التقرير ، وقال الله ... ، وتارة عن طريق النهى الصريح ، وتارة عن طريق التخصيص ...

وذلك لكي يقلع الناس عن هذه الرذيلة الذمكره ، ويؤمنوا بالله الواحد القهار .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على كمال قدرته ، ونفاذ إرادته ، فقال - تعالى - وله ما فى السموات والأرض ، وله الدين وأصبأ ... ،

والمراد بالدين هنا : الطاعة والخضوع بامثال أمره واجتناب نهيه ، وقد أتى الدين بمعنى الطاعة فى كثير من كلام العرب ، ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم فى معلقته :

وأيا ما لنا غرا كراما عصينا الملك فيها أن فدينا

أى : عصيناه وامتنعنا عن طاعته وعن الخضوع له .

وقوله : وأصبأ ، من الوصوب بمعنى الدوام والثبات ، يقال : وصبأ الشئ - يصب - بكسر الصاد - وصوبا ، إذا دام وثبت . ومنه قوله - تعالى - ودحورا ولهم عذاب وأصبأ (١) ، أى : دائم .

أب : وته - تعالى - وحده ما في السموات وما في الأرض ملكا وخلقاً ، لا شريك له في ذلك ، ولا منازع له في أمره أو نهيه ... وله - أيضاً - الطاعة الدائمة ، والخضوع الباقي الثابت الذي لا يحول ولا يزول .

والآية السكرية معطوفة على قوله : وإنما هو إله واحد ، والاستفهام في قوله : أفغير الله تنقون ، الإنكار والتمجيب ، والفاء للتعقيب ، وهي معطوفة على محذوف ، والتقدير : أفبعد أن علمتم أن الله - تعالى - له ما في السموات والأرض ، وله الطاعة الدائمة ... تنقون غيره ، أو ترهبون سواه ؟

إن من يفعل ذلك لا يكون من جملة العقلاء ، وإنما يكون من الضالين الجاهلين .

ثم بين - سبحانه - أن كل نعمة في هذا الكون ، هو - سبحانه - مصدرها وموجدّها ، فقال : وما بكم من نعمة فن الله ... ، أي : وكل نعمة عندهم كعافية في أبدانكم ، ونماء في مالكم ، وفترة في أولادكم ، وصلاح في بالكم ... فهي من الله - تعالى - وحده .

فالمراد بالنعمة هنا النعم الكثيرة التي أنعم بها - سبحانه - على الناس ، لأنه لم يقدم دليل على أن المراد بها نعمة معينة ، وعلماء البيان يعدون استعمال المفرد في معنى الجمع - اعتماداً على القرينة - من أبلغ الأساليب الكلامية ، وما هو موصولة مبتدأ ، متضمنة معنى الشرط . وقوله : فن الله ، خبرها .

وقوله : من نعمة ، بيان لما اشتملت عليه ما من إلهام .

وقوله - سبحانه - : ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم ، إذا فريق منكم يرمي بكم أن تكون ، بيان لطبيعة الإنسان ، ولواقفه من خالقه - عز وجل - والضر : يشمل المرض والبلاء والفقر وكل ما يتضرر منه الإنسان .

وقوله : تجارون ، من الجوار بمعنى - رفع الصوت بالاستغاثة وطلب العون ، يقال : جأ رجل يجار جأراً وجواراً ، إذا رفع صوته بالدعاء وتضرع واستغاث وأصله : صياح الوحش . ثم استعمل في رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة .

أى : كل ما يصاحبكم من نعمة فهو من الله - تعالى - ، فذكان من الواجب عليكم أن تشكروه على ذلك ، ولكنكم لم تفعلوا ، فإنكم إذا نزل بكم الضر ، صحتم بالدعاء ، ورفعتهم أصواتكم بالتضرع ، ليكشف عنكم ما حل بكم ، فإذا ما كشف - سبحانه - عنكم الضر ، صرغان ما يرفع فريق منكم في الشرك الذي نهى الله - تعالى - عنه .

و د ثم ، في هاتين الآيتين للتراخي الرتبى ، لبيان الفرق الشاسع بين حالتهم الأولى وحالتهم الثانية .

والتعبير بالمس في قوله د ثم إذا مسكم الضر . . ، للإيماء بأنهم بمجرد أن ينزل بهم الضر ولو نزولاً يسيراً ، جأوا إلى الله - تعالى - بالدعاء لكشفه .

وقدم - سبحانه - الجار والمجرور في قوله د فإليه تجأرون ، لإفادة القصر ، أى إليه وحده ترفعون أصواتكم بالدعاء ليرفع عنكم ما نزل بكم من بلاء د لا إلى غيره ؛ لأنكم تعلمون أنه لا كاشف للضر إلا هو - سبحانه - و د إذا ، الأولى في قوله د ثم إذا كشف . . . ، شرطية والثانية وهى قوله د إذا فريق منكم . . . ، فجائية وهى جواب الأولى .

وهذا التعبير يشير إلى مسارعة فريق من الناس ، إلى جحود نعم الله - تعالى - بمجرد أن يكشف عنهم الضر بدون تريث أو تمهل .

وقال - سبحانه - د فريق منكم يرهم بشر كون ، لتسجيل الشرك على هذا الفريق ولإنصاف غيره من المؤمنين الصادقين ، الذين يشكرون الله

- تعالى - في جميع الأحوال : ورواظبون على أدلاء ما كلفهم به في السراء والضراء .

وهذا المعنى الذى تضمنته هاتان الآيتان ، قد جاء ما يشبهه في آيات كثيرة منها قوله - تعالى : - « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا منه الشر فدو دعاء عريض ، (١) »

وقوله - سبحانه - : « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه ، أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره ، مر كأن لم يدعنا إلى ضره منه ... » (٢)

فهذه الآيات الكريمة تصور الطياع البشرية أكل تصوير وأصدقه ، إذ الناس - إلا من عصم الله - يجأرون إلى الله - تعالى - بالدعاء عند الشدائد والمحن ، وينسونه عند السراء والرخاء ...

واللام في قوله « ليكفروا بما آتيناهم ... » يصح أن تكون للتعليل ، وأن تكون هي التي تسمى بلام العاقبة أو الصيرورة .

قال الشوكاني : « واللام في « ليكفروا بما آتيناهم ... » لام كى . أى : لكي يكفروا بما آتيناهم من نعمة كشف الضر ، حتى لا يأن هذا المكفر منهم الواقع في موقع الشكر الواجب عليهم ، غرض لهم ومقصد من مقاصدكم . وهذا غاية في العتو والعتاد ليس وراءها غاية . »

وقيل : اللام للعاقبة : يعنى ما كانت عاقبة تلك التضرعات إلا الكفر ... (٣)

وقوله - سبحانه - « فتمتعوا فسوف تعلمون » تهديد ووعد لهم على جحودهم لنعم الله - تعالى - والجملة الكريمة معمولة لقول محذوف .

(١) سورة فصلت الآية ٥١

(٢) سورة يونس الآية ١٢

(٣) تفسير الشوكاني ج ٢ ص ١٢٩

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - أعمالوا ما شئتم فسوف تعلمون سره عاقبتكم يوم القيامة . .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانباً من عقائدهم الباطلة ، وأعمالهم القبيحة التى تمجها العقول السليمة ، والأفكار القويمة . فقال - تعالى - :

« وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَجْعَلُونَ نَصِيبًا رِزْقًاهُمْ ، تَاللَّهِ لَتَسَاءُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سِبْغَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ، أَيَسْكُنُ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ مَبْدُؤُهُ فِي التَّرَابِ ، إِلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِثْلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمِثْلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) » .

وقوله - سبحانه - : « وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَجْعَلُونَ نَصِيبًا رِزْقًاهُمْ . . . » معطوف على ما سبقه بحسب المعنى ، لتسجيل رذائلهم ، وتعداد جناياتهم . . . وضمير الجمع في قوله « لِمَا لَا يَجْعَلُونَ » ، يصح أن يعود إلى الكفار ، كالذى قبله في « وَيَجْعَلُونَ » ،

فيكون المعنى : إن هؤلاء المشركين يفعلون ما يفعلون من إشراكهم بالله - تعالى - ومن التضرع إليه عند الضرر وفسيانه عند الرخاء . . . ولا يكتفون بذلك ، بل ويجعلون للأصنام التى لا يعملون منها ضراً ولا نفعاً ، نصيباً مما رزقناهم من الحرت والأنعام وغيرهما .

ويصح أن يعود ضمير الجمع في قوله « لِمَا لَا يَجْعَلُونَ » ، للأصنام ، فيكون المعنى : ويجعلون للأصنام التى لا تعلم شيئاً لأنها جماد لا يعقل ولا يبصر . . . يجعلون لها نصيباً مما رزقناهم . . .

قال الألوسي : قوله : « لما لا يعلمون ، أى لأهلهم التى لا يعلمون أحوالها وأنها لا تضر ولا تنفع ، على أن « ما » مرسولة ، والعائد محذوف ؛ وضمير الجمع للكفار . أولآهلهم التى لا علم لها بشئ لأنها جماد . على أن « ما » موصولة - أيضا - عبارة عن الآلهة ، وضمير « يعلمون » ، عائد عليها . ومنه قوله « يعلمون » متروك لقصد العموم ، وصيغة جمع المقلاد لوصفهم الآلهة بصفاتهم . . . (١)

وقال - سبحانه - نصيبا ، بالثنيكير ، للإيماء بأنه نصيب كبير وضعوه في غير موضعه ووصفه بأنه ما رزقهم - سبحانه - لتحويل جهلهم وظلمهم ، حيث تركوا التقرب إلى الرافق الحقيقى - جل وعلا - ، وتقربوا بجانب كبير ما رزقهم به - سبحانه - إلى جمادات لا تنفى عنهم شيئا .

وما أجملته هذه الآية الكريمة عن جهائهم ، فصلته آيات أخرى منها قوله - تعالى - في سورة الأنعام : « وجعلوا لله ما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون » ، (٢)

وقوله - سبحانه - « تالله لتسألن عما كنتم تفترون » ، تهديد ووعد لهم على سوء أفعالهم . أى : أقسم بذاتى لتسألن - أيها المشركون - سؤال توبيخ وتأنيب في الآخرة ، عما كنتم تفترونه من أكاذيب في الدنيا ، ولأعاقبتكم العقاب الذى تستحقونه بسبب إفتراءكم وكفركم . وصدرت الجملة الكريمة بالقسم ، لتأكيد الوعد ، ولبيان أن العقاب أمر محقق بالنسبة لهم وجاءت الجملة الكريمة بأسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، لأن توبيخ الحاضر أشد من توبيخ الغائب .

(١) تفسير الألوسى ١٤ ص ١٦٢

(٢) راجع تفسيرنا لهذه الآية في كتابنا « تفسير سورة الأنعام » ص ٢٥٢

وسؤالهم يوم القيامة عما اجترحوه - مع أنه سؤال تفرع وتأنيد - إلا أنه يدل على عدل الله - تعالى - مع هؤلاء الظالمين ، لأنه لم يعاقبهم إلا بعد أن سألهم ، وبعد أن ثبت لإجرامهم وفي ذلك ما فيه من تعليم العباد أن يكونوا منصفين في أحكامهم ...

وقوله - سبحانه - : « يجعلون لله البنات سبحانه » بيان لرديلة أخرى من رذائلهم الكثيرة ، وهو معطوف على ما قبله . .

وهذه الآية الكريمة تحكي ما كان شائعاً في بعض قبائل العرب ، من أنهم كانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله . قالوا : وكانت قبيلة خزاعة وقبيلة كنانة تقولان بذلك في الجاهلية .

أى : أن هؤلاء المشركين لم يكتفوا بجعل نصيب مما رزقناهم لآلهتهم ، بل أضافوا إلى ذلك رديلة أخرى ، وهى أنهم زعموا أن الملائكة بنات الله - تعالى - ، وأشركوها معه في العبادة ...

وقوله « سبحانه » مصدر نائب عن الفعل ، وهو منصوب على المفعولية المطلقة ، وهو في محل جملة مترضة ، وقعت جواباً عن مقالهم السيئة ، التى حكاه الله - تعالى - عنهم ، وهى « يجعلون لله البنات » .

أى : تمزه وتقدس الله - عز وجل - عن أن يكون له بنات أو بنين ، فهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

والمراد بما يشتهونه في قوله - عز وجل - « ولهم ما يشتهون » الذكور من الأولاد .

أى : أن هؤلاء المشركين يجعلون لأصنامهم نصيباً مما رزقناهم ، ويجعلون لله - تعالى - البنات ، أما هم فيجعلون لأنفسهم الذكور ، ويختارونهم ليسكونوا خلفاء لهم .

وشبيه بهذه الآية السكرية قوله - تعالى - : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أمهدوا خلقهم . ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا بخرصون ، » (١) .

ثم صور - سبحانه - حالتهم عندما يبشرون بولادة الأنثى ، وحكى عاقبتهم الجاهلية المنسكرة فقال - تعالى - : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به . . . »

قال الآلوسی : قوله « وإذا بشر أحدهم بالأنثى . . . » أي : أخبر بولادتها . وأصل البشارة الإخبار بما يسر . لكن لما كانت ولادة الأنثى تسوءهم حملت على مطلق الإخبار . وجوز أن يكون ذلك بشارة باعتبار الولادة ، بقطع النظر عن كونها أنثى . . . » (٢)

وقوله « كظيم ، من الكظم بمعنى الحبس . يقال : كظم فلان غيظه . إذا حبسه وهو ممثلي به . وفعله من باب ضرب ... »

والمعنى : وإذا أخبر أحد هؤلاء الذين يجعلون لله البنات « بولادة الأنثى دون الذكر ، صار وجهه مسودا كئيبا كأن عليه غبرة ، زهقه فترة - أي تعلاه ظلمة وسواد - ، وصار جسده ممثلا بالحزن المكتوم ، والغيظ المحبوس ، وأصبح يتوارى ويتخفى عن أعين الناس خجلا وحياء ، من أجل أن زوجته ولدت له أنثى ولم تلد له ذكرا ... »

وقوله - سبحانه - « أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ، تصوير بليغ لموقف ذلك الشريك مما بشر به وهو ولادة الأنثى .

فالضمير المنصوب في قوله « أيمسكه ويدسه ، يعود على المبشر به وهو الأنثى .

(١) سورة الزخرف الآيات ١٩ ، ٢٠

(٢) تفسير الآلوسی ج ١٤ ص ١٦٩

والهون بمعنى الهوان والذل .

ويدسه من الدس بمعنى الإخفاء للشيء في غيره . والمراد به . دفن الآثى حية في التراب حتى تموت وهو المشار إليه في قوله - تعالى - « وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت » .

أى : أن هذا المشرك بعد أن يبشر بولادة الآثى ، يدور بذهنه أحد أمرين : إما أن يمسخها ويبقيها على هوان وذل ، وإما أن يدسها ويخفيها في التراب . بأن يدفنها فيه وهى حية حتى تموت ،

والجار والمجرور في قوله « على هون » يصرح أن يكون حالا من الفاعل وهو المشرك : أى أيمسك المبشر به مع رضاه - أى المشرك - بهوان نفسه وذلها بسبب هذا الإمساك ...

ويصح أن يكون حالا من المفعول وهو الضمير المنصوب . أى أيمسك هذه الآثى ويبقيها بقاء ذلة وهوان لها ، بحيث لا يورثها شيئا من ماله ، ولا يعاملها معاملة حسنة ...

ومن بلاغة القرآن أنه عبر بقوله « أيمسكه على هون » ليشمل حالة المشرك وحالة المبشر به وهو الآثى .

وقوله - تعالى - : « ألا ساء ما يحكمون » ذم لهم على صنيعهم السيئ ، وعلى جهلهم الفاضح .

أى : بش الحكم حكمهم ، وبس الفعل فعلهم ، حيث نصبوا البنات إلى الله - تعالى - ، وظلموهن ظلما شنيعا ، حيث كرهوا وجودهن ، وأقدموا على قتلن بدون ذنب أو ما يشبه الذنب .

وصدر سبحانه - هذا الحكم العادل عليهم بحرف « ألا » الاستفتاحية . لتأكيد هذا الحكم ، ولتحقيق أن ما أقدموا عليه ، إنما هو جور عظيم ، قد تمائزوا عليه بسبب جهلهم الفاضح ، وتفكيرهم السيئ .

أُسند - سبحانه - الحكم إلى جميعهم ، مع أن من فعل ذلك كان بعضا منهم ، لأن ترك هذا البعض يفعل ذلك الفعل القبيح هذا الترك ، هو في ذاته جريمة يستحق عليها الجميع العقوبة ، لأن سكوتهم على هذا الفعل مع قدرتهم على منعه يعتبر رضا به .

ثم أجمع - سبحانه - هذا الذم لهم بذم آخر على سبيل التأكيد فقال - تعالى - : « للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم » .

والسوء : مصدر ساءه يسره سوءا ، إذا عمل معه ما يسكره ، وإضافة المثل إلى السوء للبيان .

والمراد بمثل السوء : أفعال المشركين الفبيحة التي سبق الحديث عنها .

والمعنى للذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب ... صفة السوء ، التي هي كالمثل في القبيح . وهي وأدهم البنات ، وجعلهم لآلهتهم . نصيبا مما رزقناهم ، وقولهم . الملائكة بنات الله ، وفرحهم بولادة الذكور للاستظهار بهم

فهذه الصفات تدل على غباثتهم وجهلهم وقبح تفكيرهم

أما الله - عز وجل - فله المثل الأعلى ، أن الصفة العليا ، وهي أنه الواحد الأحد ، المنزه عن الوالد والولد ، والمبرأ من مشابهة الحوادث ، والمستحق لكل صفات الكمال والجلال في الوجدانية ، والقدرة والعلم ... وغير ذلك مما يليق به - سبحانه - .

وهو - عز وجل - العزيز ، في ملكه بحيث لا يغلبه غالب ، الحكيم ، في كل أفعاله وأقواله .

وبعد أن ساق - سبحانه - ما يدل على جهالات المشركين ، وانطماس بصائرهم ، وسوء تفكيرهم ، أتبع ذلك بالحديث عن مظاهر رحمته بخلقه وعن

جانب من جرائم المشركين ، وعن وظيفة القرآن الكريم ، فقال - تعالى - :

« وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ ، وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ ، لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى ، لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ (٦٢) تَا اللَّهُ نَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ، فَهُمْ وَليَهُمُ الْيَوْمَ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) » .

و د لو ، في قوله - تعالى - : د ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم حرف
لامتناع لامتناع ، أى : حرف شرط يدل على امتناع وقوع جوابه ، لأجل
لامتناع وقوع شرطه ، وقد امتنع هنا إهلاك الناس ، لامتناع إرادة الله
— تعالى — ذلك .

وقوله ، يؤاخذ ، مفاعلة من المؤاخذة بمعنى العقوبة ، فالمفاعلة في معنى
الفعال المجرد . فعنى أخذ الله - تعالى - الناس يؤاخذهم : أخذهم وعاقبهم بسبب
ذنوبهم .

والأخذ بمعنى العقاب قد جاء في القرآن الكريم في آيات كثيرة . ومن ذلك
قوله - تعالى - . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم
شديد .

والإباء في بظلمهم ، للسببية ، والظلم : مجاوزة الحدود التي شرعها الله - تعالى -
وأعظمه الإشرak بالله - تعالى - .

كما قال - تعالى - « إن الشرك لظلم عظيم » ،

والمراد من المؤاخذه بسبب ظلمهم : تعجيل العقوبة لهم في الدنيا .

والضمير في قوله - سبحانه - « عليها » ، يعود على الأرض . وصح عود الضمير عليها مع أنه لم يسبق ذكر لها ، لأن قوله « من دابة » يدل على ذلك ، لأنه من المعلوم ، أن الدواب تدب على الأرض .

ونظيره قوله - تعالى - في آية أخرى « ما ترك على ظهرها من دابة » ، وقوله « حتى توارث بالحجاب » أي : الشمس . فإنه وإن كان لم يجر لها ذكر إلا أن المقام يدل عليها .

ورجوع الضمير إلى غير المذكور في الكلام إلا أن المقام يدل عليه كثير في كلام العرب ، ومنه قول حاتم الطائي :

أماوى ما يغنى الثراء عن النقى

إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فقوله « حشرجت وضاق بها » المقصود به الروح أو النفس ، ولم يجر لها ذكر ، إلا أن قوله « وضاق بها الصدر » يعين أن المراد بها النفس .

والمراد بالساعة في « لا يستأخرون عنه ساعة » مطلق الوقت الذي هو غايه في القلة .

والمعنى : ولو عاجل الله - تعالى - أناس بالعقوبة ، بسبب ما اجتروا من ظلم وآثام ، لأهلكهم جميعا ، وما ترك على ظهر الأرض من دابة تدب عليها ، ولمكنه - سبحانه - فضلا منه وكرما ، لا يعاجلهم بالعقوبة التي تستأصلهم بل يؤخرهم إلى أجل مسمى ، أي : إلى وقت معين محدد تنتهي عنده حياتهم ، وهذا الوقت المحدد لا يعلمه إلا هو - سبحانه - « فإذا جاء أجلهم » .

أي : فإذا حان الوقت المحدد لهلاكهم ، فارقوا هذه الدنيا بدون أدنى تقديم أو تأخير عن هذا الوقت .

هذا ، ومن العلماء من ذهب إلى أن المراد بالناس هنا : الكفار خاصة ، لأنهم هم الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى . .

ويبدو لنا أن المراد بالناس هنا : العموم ، لأن قوله « من دابة » يشمل كل ما يطلق عليه اسم الدابة ، ولأن النكرة في سياق النفي إذا زيدت قبلها لفظة « من » تكون نصاً صريحاً في العموم .

وإلى العموم أشار ابن كثير عند تفسيره للآية بقوله : يخبر الله - تعالى - عن حله بخلقه مع ظلمهم ، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا مازك على ظهر الأرض من دابة ، أي : لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بني آدم . ولكن الرب - جل وعلا - يحلم ويستتر ويغفر . . . (١) .

وقال القرطبي : فإن قيل : فكيف يعم بالهلاك مع أن فيهم مؤمناً ليس بظالم ؟

فالجواب : يجعل هلاك الظالم افتقاراً وجزاء ، وهلاك المؤمن معوضاً بثواب الآخرة ، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : إذا أراد الله - تعالى - بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ثم عثوا على نياتهم - وأعمالهم - ، (٢) .

وشبهه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى - : « وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب » ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه مؤثلاً ، (٣) .

وقوله - تعالى - : « ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم صحص فيه الأبصار » ، (٤) .

وقوله - تعالى - : « إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون » ، (٥) .

(١) تفسير ابن كثير ج ، ص ٤٩٧ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٢٠ (٣) سورة الكهف الآية ٥٨

(٤) سورة إبراهيم الآية ٤٢ (٥) سورة نوح الآية ٤

ثم حكى - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائل المشركين فقال - تعالى -
 • ويجعلون لله ما يكرهون ... •

أى : أن هؤلاء المشركين لا يكتفون بإنكارهم البعث وبجحدهم نعم الله - تعالى - : بل أضافوا إلى ذلك أنهم يثبتون له - سبحانه - وينسبون إليه كذبا وزورا - ما يكرهونه لأنفسهم ، فهم يكرهون أن يشار بهم أحد في أموالهم أو في مناصبهم ، ومع ذلك يشركون مع الله - تعالى - في العبادة آلهة أخرى ، ويكرهون أراذل الأموال ، ومع ذلك يجعلون لله - تعالى - أراذل أموالهم . ويجعلون لأصنامهم أكرمها ، ويكرهون البنات ، ومع ذلك ينسبونهن إليه - سبحانه -

فالجملة السكريمة تنمى عليهم أنانيتهم ، وسوء أدبهم مع خالقهم - عز وجل - وقوله - سبحانه - : وتصف ألسنتهم بالكذب أن لهم الحسنى ... ، تصوير بليغ لما جبلوا عليه من كذب صريح ، وبهتان واضح .

ومعنى : • تصف ، تقول وتذكر • بشرح وبيان وتفصيل ، حتى ألسنتها تذكر أوصاف الشيء . • وجملة • أن لهم الحسنى ، بدل من • الكذب ،

والحسنى : نأيت الأحسن ، والمراد بها زعمهم أنه إن كانت الآخرة حقا ، فسيكون لهم فيها أحسن نصيب وأعظمه ، كما كان لهم في الدنيا ذلك ، فقد روي أنهم قالوا : إن كان محمد - صلى الله عليه وسلم - صادقا فيما ينخبر عنه من أمر البعث ، قلنا الجنة ...

والمعنى : أن هؤلاء المشركين يجعلون لله - تعالى - ما يكرهونه من الأولاد والأموال والأثر كراه ، وتنطق ألسنتهم بالكذب نطقا واضحا صريحا إذ زعموا أنه إن كانت الآخرة حقا ، فسيكون لهم فيها أحسن نصيب ..

وهذا الزعم قد حكاه القرآن عنهم في آيات متعددة منها قوله - تعالى -

وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين ، (١)
وقوله - تعالى - « أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا
وولدا ... » (٢) .

قال صاحب الكشف : فإن قلت ما معنى وصف ألسنتهم الكذب ؟ قلت :
هو من فصيح الكلام وبليغه . جعل قولهم كآفة عين الكذب ومعضه ، فإذا
أنطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته ، وصورته بصورته . كقولهم :
وجهاها يصف الجمال ، وعينها تصف السحر ،

وقال بعض العلماء : والتعبير القرآني في قوله « وتصف ألسنتهم الكذب » ،
يجعل ألسنتهم ذاتها كأنها الكذب ذاته ، أو كأنها صورة له ، تحكيه وتصفه
بذاتها ، كما تقول : فلان قوامه يصف الرشاقة ... لأن ذلك القوام بذاته
تعبير عن الرشاقة ، مفصح عنها ...

كذلك نل - سبحانه - وصف ألسنتهم الكذب .. ، فهي بذاتها تعبير
عن الكذب ، أطول ما قالت الكذب ، وللكثرة ما عبرت عنه ، حتى صارت
رمزا عليه ، ودلالة له ، (٤)

وقوله - سبحانه - « لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون » ، تكذيب
لهم فيما زعموه من أن لهم الحسنى ، ووعيد لهم بإلقائهم في النار .

وكلية ، لا جرم ، وردت في القرآن الكريم في خمسة مواضع ، متلوة بأن
واسمها وليس بعدها فعل . وجمهور النحاة على أنها مركبة من « لا » و « جرم » ،
تركيب خمسة عشر . ومعناها بعد التركيب معنى حق وثبت . والجملة بعدها
فاعل ، أي : حق وثبت كونهم لهم النار وأنهم مفرطون فيها ،

(١) سورة سبا الآية ٣٥

(٢) سورة مريم الآية ٢٧

(٣) تفسير الكشف ج ٢ ص ٤٣٢

(٤) في ظلال القرآن ج ١٤ ص ٢١٧٩

وقوله - سبحانه - «مفرطون» قرأها الجمهور - بسكون الفاء وفتح
الراء - بصيغة إسم المفعول من أفرطه بمعنى قدمه . يقال : أفرطته إلى كذا .
أي : قدمته إليه .

قال القرطبي : «فأفرط : الذى يتقدم غيره إلى الماء . ومنه قول النبی
- صلى الله عليه وسلم - : أنا أفرطكم على الخوض : أى : متقدمكم ... » (١)
أر من أفرط إذا نسيه وتركه . تقول : أفرطت فلانا خلني ، إذا
تركته ونسيته .

والمعنى : أن هؤلاء الذين يزعمون أن لهم الحسنی في الآخرة كذبوا في
زعمهم ، وخجروا في إفكهم ، فإنهم ليس لهم شيء من ذلك ، وإنما الأمر الثابت
الذى لا شك فيه ، أن لهم في الآخرة النار ، وأنهم مفرطون فيها ، مقدمون
إليها بدون إهمال ، ومتروكون فيها بدون إكتراث بهم ، كما يترك الشيء الذى
لا قيمة له . قال تعالى : فالיום ننسأهم كما نسأ يومهم هذا ، (٢)

وقرأ نافع : أنهم مفرطون ، - بسكون الفاء - وكسر الراء - بصيغة
إسم الفاعل . من أفرط اللازم بمعنى أسرف وتجاوز الحد . يقال : أفرط
فلان في كذا ، إذا تجاوز الحدود المشروعة .

فيكون المعنى : لا جرم أن لهم النار ، وأنهم مفرطون ومسرفون في
الأقوال والأعمال التى جعلتهم خطايا لها ، ووقودا لنيرانها . كما قال - تعالى -
« وأن المسرفون هم أصحاب النار » ، (٣)

ثم وجه - سبحانه - خطايا لتبئيه - صلى الله عليه وسلم - على سبيل
التسلي والتثبيت ، حيث بين له أن ما أصابه من مشركى قومه ، قد فعل

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٢١

(٢) سورة الأعراف الآية ٥١

(٣) سورة غافر الآية ٤٣

ما يشبهه المشركون السابقون مع أقيانهم ، فقال - تعالى - : « وانا الله لقد أرسلنا
إلى أمم من قبلك ، فزین لهم الشيطان أعمالهم ، فهو وليهم اليوم ، ولهم
عذاب أليم . »

وقوله « زين » من التزيين وهو تصيير الشيء زينا ، أى : حسنا والزينة :
هى ما فى الشيء من محاسن ترغب الناس فيه .

والمعنى : أقسم لك - أيها الرسول الكريم - بذاتى ، لقد أرسلنا رسلا
كثيرين إلى أمم كثيرة من قبلك ، وكانت النتيجة أن إستحوذ الشيطان على
نفوس عامة هؤلاء المرسل اليهم ، حيث زين لهم الأفعال القبيحة ، وقبح لهم
الأعمال الحسنة ، وجعلهم يفتنون من رسلهم موقف المكذب لأقوالهم ،
المعرض عن إرشاداتهم ، المحارب لدعوتهم ...

وقوله - سبحانه - : « فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم » ، بيان لسوء
عاقبة هؤلاء الذين زين لهم الشيطان سوء أعمالهم فرأوه حسنا .

قال الإمام الشوكاني ما ملخصه : والمراد باليوم فى قوله - تعالى - « فهو
وليهم اليوم » ، يحتمل أن يكون المراد به زمان الدنيا - أى مدة أيام الدنيا -
فيكون المعنى : هو قريتهم فى الدنيا . ويحتمل أن يكون اليوم عبارة عن يوم
القيامة وما بعده . فيكون للحال الآتية . ويكون الولى بمعنى الناصر .
والمراد بقى الناصر عنهم بأبلغ الوجوه ، لأن الشيطان لا يتصور منه النصرة
أعلا فى الآخرة ...

ويحتمل أن يكون المراد باليوم بعض زمان الدنيا ، وهو على وجهين : الأول
أن يراد البعض الذى مضى ، وهو الذى وقع فيه التزيين للأمم الماضية من
الشيطان ، فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية . الثانى : أن يراد البعض
الحاضر ، وهو وقت نزول الآية . والمراد تزيين الشيطان لكفار قريش
أعمالهم ، فيكون لضمير فى « وليهم » ، لكفار قريش . فيكون المعنى : فهو ولى

هؤلاء المشركين اليوم أى : معينهم على الكفر والمعاصى ولهم ولا مشالهم عذاب أليم فى الآخرة ، (١)

ثم بين - سبحانه - أهم الوظائف التى من أجلها أنزل كتابه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم - فقال : وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ،

أى : وما أنزلنا عليك - أيها الرسول الكريم - هذا القرآن ، إلا من أجل أن تبين لمن أرسلت إليهم رجة الصواب فيما اختلفوا فيه من أمور العقائد والعبادات والمعاملات والحلال والحرام وبذلك يعرفون الحق من الباطل ، والخير من الشر .

وسميت هذه المعانى بأسلوب القصر ، لقصد الإحاطة بأهم الغايات التى من أجلها أنزل الله - تعالى - كتابه على نبيه الكريم ؛ ولترغيب السامعين فى تقبل إرشادات هذا الكتاب بنفس منسرحة ، وقلب مفتوح .

وقوله وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ، ثناء آخر على هذا الكتاب الكريم .

أى : أنزلنا عليك هذا الكتاب يا محمد ، لتبين للناس عن طريقه وجه الحق فيما اختلفوا فيه من أمور الدين ، وليكون هذا الكتاب هداية إلى الطريق القويم ، ورحمة لقوم يؤمنون به ، ويسيروا فى كل أمورهم على هدى تعالىمه وإرشاداته وتشريعاته . . .

وقال - سبحانه - وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ، للإشارة إلى أن الظفر بما أشتمل عليه القرآن من خبرات ، إنما هو لقوم قد توجهت نفوسهم إلى الإيعان به ، وفتحت قلوبهم لا تقبل هداياته . . .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد بينت لنا جانباً من مظاهر

فضل الله - تعالى - على عباده ، وردت على المشرّكين فيما زعموه من أن لهم في الآخرة العاقبة الحسنى ، وسلّت النبي - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم من أذى ، وبينت أهم الوظائف التي من أجلها أنزل الله - تعالى - كتابه .



ثم ساقّت السورة الكريمة ألواناً من نعم الله - تعالى - على خلقه ، ومن ذلك : نعمة إنزال الماء من السماء ، ونعمة خلق الأنعام ، ونعمة إيجاد النخيل والأعناب ، فقال - تعالى - :

« وَاقُلْ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَأَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ، نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٦٧) » .

والمراد بالسماء في قوله - تعالى - : « وَاقُلْ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » : جهة العلو أو السحاب المنتشر في طبقات الجو العليا والذي تنزل منه الأمطار .

والمراد بإحياء الأرض : تحريك القوى النامية فيها ، وإظهار ما أودعه الله - تعالى - فيها من نبات وأزهار ، وثمرات ، وغير ذلك مما تنبته الأرض .

والمراد بموتها : خلوها من ذلك ، بسبب استيلاء القحط والجذب عليها . قال - تعالى - : « وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ » .

أي : وكما أنزل الله - تعالى - كتابه ليكون هداية ورحمة لقوم يؤمنون ،

أنزل - سبحانه - أيضاً الماء من السماء على الأرض ، فتحولت بسبب نزول هذا الماء المبارك الكثير عليها ، من أرض جدياء خامدة ، إلى أرض خضراء رايية .

ثم حرص - سبحانه - عباده على التدبر والشكر فقال - تعالى - : « إن في ذلك لآية لقوم يسمعون » .

أى : إن في ذلك الذى فعلناه بقدرتنا وحدها ، من إنزال الماء من السماء ، وإحياء الأرض به من بعد موتها ، لآية عظيمة ، وعبرة جليلة ، ودلالة واضحة تدل على وحدانيتنا وقدرتنا وحكمتنا ، لقوم يسمعون ما يتلى عليهم من كلام الله - تعالى - ، سماع تدبر واعتبار ، فيعملون بما اشتمل عليه من توجيهات حكيمة وإرشادات سديدة ...

فالمراد بالسمع : سمع القلوب والعقول ، لاسمع الآذان فقط ، إذ سمع الآذان بدون وعى واستجابة للحق ، لاقيمة له ، ولافائدة ترجى من ورائه .

ثم أرشد - سبحانه - إلى مظاهر آخر من مظاهر وحدانيته ، وعظيم قدرته وعجيب صنعته ، وسعة رحمته ، حيث خلق للناس الأنعام ، وسقام من ألبانها ، فقال - تعالى - : « وإن لسك في الأنعام العبرة »

والأنعام : تطلق على الإبل والبقرة والغنم من الحيوان ، ويدخل في الغنم المعر .

والعبرة : مصدر بمعنى العبور ، أى : التجاوز من محل إلى آخر ، والمراد هنا : العظة والاعتبار والانتقال من الجهل إلى العلم ، ومن الغفلة إلى اليقظة .

أى : وإن لسكم - أيها الناس - في خلق الأنعام ، وفيما يخرج منها من ألبان لعبرة عظيمة ، وعظه بليغة ، ومنفعة جليلة توجب عليكم إخلاص العباد لله - تعالى - وحده ، ومداومة الشكر له على نعمه .

فالتسكير في قوله « لعبرة » : للتفخيم والتهويل .

وقوله - تعالى - : « نسقيكم بما في بطونه » ، استئناف بياني ، كأنه قيل : وما وجه العبرة في الأنعام ؟ فكان الجواب : « نسقيكم بما في بطونه » .

قال الألوسي : والضمير في « بطونه » يعود للأنعام ، وهو اسم جمع ، واسم الجمع يجوز تكثيره وإفراده باعتبار لفظه ، ويجوز تأنيده وجمعه باعتبار معناه ... ، (١)

وقوله - سبحانه - : « من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » ، بيان لمواطن العبرة ومحل النعمة ، وعظم الدلالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ورحمته ...

والفرث : الطعام المتبقى في أمعاء الحيوان بعد هضمه . وأصل الفرث : التفتيت ، يقال فرثت كبده . أى : فتنتها .

قال الجمل ماملا بخصه : والفرث : الأشياء المأكولة المنهضمة بعض الانهضام في الكرش - يفتح الكاف وكسر الراء - ، فإذا خرجت من الكرش لا تسمى فرثا بل تسمى روثا . وقوله « لبنا » ، مفعول ثان لنسقيكم ، والاول هو الكاف ، (٢)

والخالص : النقي الصافي الخالي من الشوائب والأكدار . يقال خالص الشيء من التلف خلوصا - من باب قعد - إذا سلم منه ...

والسائغ : اللذيذ الطعم ، السهل المدخل إلى الخلق . يقال : سائغ الشراب يسوغ موعا - من باب قال - إذا سهل مدخله في الخلق

أى : نسقيكم من بين الفرث والدم الذى اشتملت عليه بطون الأنعام ، « لبنا » نافعا لأبدانكم « خالصا » من رائحة الفرث ، ومن لون الدم ، مع أنه

(١) تفسير الألوسي ج ١٤ ص ١٧٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٨٠

موجود بينهما « سائفا للشاربين » بحيث يمر في الحلق بسهولة ويسر ، ويشعر شارب به بلذة وارتياح ...

وقدم - سبحانه - قوله : « من بين فرث ودم » على قوله « لبنا » ، لأن خروج اللبن من بينهما هو موطن العبرة ، وموضع الدليل الاسمي على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته ..

قال صاحب الكشف : قوله - تعالى - « من بين فرث ودم » أي : يخلق الله اللبن وسيطا بين الفرث والدم يكتنفانه ، وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله - تعالى - ، بحيث لا يبغي أحدهما عليه بلون ولا علم ولا رائحة ، بل هو خالص من ذلك كله ... فسبحان الله ما أعظم قدرته ، وأطلف حكمته ، لمن تفكر وتأمل . وسئل « شقيق » عن الإخلاص فقال : تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم .

ثم قال - رحمه الله - : فإن قلت : أي فرق بين « من » الأولى والثانية ؟ قلت : الأولى للتبويض ؛ لأن اللبن بعض ما في بطونها ... والثانية ، لا ابتداء الغاية ، لأن بين الفرث والدم مكان الإسقاء الذي منه يبدأ ...

ولما قدم - قوله « من بين فرث ودم » ، لأنه موضع العبرة ، فهو قمع بالتقديم ،^(١)

وقال الألوسي عند تفسيره لهذه الآية : « ومن تدبر في بدائع صنع الله - تعالى - فيما ذكر من الاخلاط والالبان وإعداد مقارنها ومجاريها ، والأسباب المولدة لها ، وتسخير القوى المتصرفة فيها ... اضطر إلى الاعتراف بكمال علمه - سبحانه - وقدرته ، وحكمته ، وتناهى رأفته ورحمته :

حكم حارت البرية فيهما - وحقيق بأنهما تختار^(٢)

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٦١٦ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٤ ص ١٧٨ .

والحق ، أن هذه الآية الكريمة من أكبر الأدلة على وحدانيه الله - تعالى ونفاذ قدرته ، وعجيب صنعته ، حيث استخرج - سبحانه - من بين فريث ودم في بطون الأنعام ، لبننا خالصا ساتنا للشاربين .

وهذا الاستخراج قد تسكلم العلماء المتخصصون عن كيفية وعصر مرحله ..
كلما يقوى إيمان المؤمنين ، ويدفع باطل الملحدين .

هذا ، وفي الآية الكريمة إشارة إلى أن اللبن نعمة جزيلة من نعم الله - تعالى - على خلقه .

قال القرطبي مالم يخصصه : روى أبو داود وغيره عن ابن عباس قال : أتني رسول الله صلى الله عليه وسلم - بأبن فئرب ، ثم قال : « إذا أكل أحدكم طعاما فليقل : اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه ، وإذا سقى لبنا فليقل : اللهم بارك لنا فيه ، وزدنا منه ، فإنه ليس شيء يحزى - عن الطعام والشراب إلا اللبن ، .

ثم قال الإمام القرطبي : قال علماؤنا : فكيف لا يكون كذلك ، وهو أول ما يقتضى به الإنسان ، وتنمو به الأبدان ، فهو قوت به قوام الأجسام ، وقد جعله الله - تعالى - علامة لجبريل على هداية هذه الأمة ، ، ففي الحديث الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : جئاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن . فقال لي جبريل : اخترت الفطرة ... ، (١)

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن نعمة أخرى من نعم الله التي لا تحصى ، وهى نعمة ثمرات النخيل والأعناب ، فقال - تعالى - : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ... ،

قال الجمل مالم يخصصه : قوله - سبحانه - « ومن ثمرات النخيل والأعناب .. »

خير مقدم ، ومن تبعيضية ، والمبتدأ محذوف تقديره ثمر ، وقوله « تتخذون »
فعل لهذا المبتدأ المحذوف ، أى : ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون
منه سكرًا ورزقًا حسنًا .

ويحوز أن يكون الجار والمجرور متعلقا بمحذوف ، والتقدير : ونسقيكم
من ثمرات النخيل والأعناب ، أى : من عصيرهما ، وحذف لدلاله نسقيكم
قبله عليه . وقوله « تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا » بيان وكشف عن كيفية
الإسقاء ...

والضمير فى قوله « منه » يعود على المضاف المحذوف الذى هو العصير ،
أو على المبتدأ المحذوف وهو الثمر .. (١)

والسكر - بفتح السين والكاف - اسم من أسماء الخمر . يقال : سكر فلان
- بوزن فرح - يسكر سكرًا ، إذا غاب عقله وإدراكه فهو سكران وسكر
- بفتح السين وكسر الكاف - .

وأما الرزق الحسن ، فالمراد به ما كان حلالا من ثمرات النخيل والأعناب
كالتمر والزبيب وغير ذلك مما أحله الله - تعالى - من ثمارهما .

وعلى هذا المعنى سار جمهور العلماء من السلف والخلف .

قال الألوسى ما ملخصه : والسكر : الخمر . قال الأخطل :

بئس الصُّحَّاة وبئس الشرب شربهم . إذا جرى فيهم المزاج والسكر .

- والمزاج : نوع من الأشربة . والسكر ما يسكر وهو الخمر -

وفسروا الرزق الحسن . بالخل والتمر والزبيب وغير ذلك . .

ثم قال : وتفسير « السكر » بالخمر ، هو المروى عن ابن مسعود ، وابن

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٨٠ .

عمر ، وأبي رزين ، والحسن ، ومجاهد ، والشعبي . . . والنخعي . . . مع خلق آخرين . . . (١) .

وعلى هذا التفسير الذي قاله جمهور العلماء يكون السكر غير الرزق الحسن ، ويكون العطف للتغدير .

ومن العلماء من فسر السكر بأن اسم للخل ، أو للعصير غير المسكر ، أو لما لا يسكر من الأنبذة ، وقد بسط الإمام القرطبي القول في هذه المسألة فقال ما لم يخصصه : قوله - تعالى - «سكرا» السكر ما يسكر ، هذا هو المشهور في اللغة . قال ابن عباس : نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر .

والمراد بالسكر : الخمر . وبالرزق الحسن : جميع ما يؤكل ويشرب حلالا من هاتين الشجرتين .

وقد قيل : أن السكر : الخل بلغة الحبشة . الرزق الحسن : الطعام . وقيل السكر : العصير الخلو الحلال ، وسمى سكرا ، لأنه قد يصير مسكرا إذا بقي ، فإذا بلغ الأسكار حرم

وقال الخفيفون . المراد بقوله «سكرا» ، ما لا يسكر من الأنبذة . والدليل عليه أن الله - سبحانه - امتن على عباده بما خلق لهم من ذلك ، ولا يقع الامتنان إلا بمحل لا بمحرم ، فيكون ذلك دليلا على جواز شرب ما دون المسكر من النبيذ ، فإذا انتهى إلى السكر لم يجوز . وعضدوا هذا من السنة بما روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : «حرم الله الخمر بعينها والسكر من غيرها» (٢)

وأصحاب هذا الرأي كأنهم يرون أن عطف الرزق الحسن على السكر من باب عطف الشيء على مرادفه ، كما في قوله - تعالى - «لعل جعلنا منكم

(١) تفسير الألوسي ج ٢٤ ص ١٨٠

(٢) تفسير القرطبي ج ٦٠ ص ١٢٨

شرعة ومنهاجا ، وليس من باب العطف المقتضى المغايرة ، فالسكر عندهم ليس هو الخمر ، وإنما هو الخل أو العصير أو النبيذ غير المسكر ..

ويبدو لنا أن ماذهب إليه الجمهور من أن السكر هو الخمر أولى بالقبول ، لأن هذا التفسير هو المروى عن جمع من الصحابة ومن التابعين ، ولأن الأصل في العطف أنه يقتضى المغايرة .

قال ابن العربي : أسد هذه الأقوال قول ابن عباس : نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر ، والمراد بالسكر الخمر ، فتكون هذه الآية منسوخة لأنها مكية باتفاق العلماء ، وتحريم الخمر مدي^(١)

وقال صاحب تفسير آيات الأحكام بعد أن ذكر أدلة الأحناف ورد عليها : والحاصل أننا نرى أن الآية ليس فيها مايشهد بالخل ، إذ الكلام في الامتتان بخلق الأشياء لمنافع الانسان ، ولم تنحصر المنافع في حل تناول ، فقد قال الله - تعالى - في شأن الخمر : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ... » فهل انحصرت منافع السكر - على فرض أنه النبيذ - في الشرب ؟^(٢) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ، أى : إن في ذلك الذى ذكرناه لكم من إخراج اللبن من بين فرت ودم ، ومن اتخاذ السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ، « لآية ، باهرة ، ودلالة واضحة ، على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته ، « لقوم يعقلون »

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٢٨

(٢) راجع تفسير آيات الأحكام ج ٢ ص ٥٢ لفضيلة الشيخ محمد عني

السائس - رحمه الله .

هذه التوجيهات الحكيمة ، فيدركون أن من يفعل كل ذلك وغيره ، هو المستحق للعبادة والطاعة ، ألاله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل - أيضا - على وحدانيته وقدرته ، عن طريق إخراج العمل الذي فيه شفاء للناس بواسطة حشرة ضعيفة وهي النحلة ، فقال - تعالى - :

« وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ، يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) » .

وقوله - سبحانه - « وَأَوْحَىٰ » من الوحي ، وهو هنا بمعنى الإلهام ، وهو - كما يقول القرطبي - ما يخلق الله - تعالى - في القلب ابتداء من غير سبب ظاهر ، ومنه قوله - تعالى - : « ونفس وما سواها ، فإلهمها فجورها وتقواها ، ومن ذلك إلهم البهائم لفعل ما ينفعها ، وترك ما يضرها ، وتدبير معاشها .. » (١)

وقال صاحب المكشاف : والإيحاء إلى النحل : إلهامها والقذف في قلوبها على وجه هو أعلم به ، لاسبيل لأحد إلى الوقوف عليه ، وإلا فتأنقها في صنعها وإلهامها في تدبير أسرها ، وإصابتها فيما يصلحها دلائل شاهدة على أن الله - تعالى - أودعها علما بذلك وفطنها ، كما أودع أولى العقول عقولهم ... » (٢)

والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - ويشمل كل من يصلح للخطاب من الأمة الإسلامية .

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٢٢

(٢) تفسير المكشاف ج ٢ ص ٦١٨

والنحل : اسم جنسى يفرق بينه وبين واحده بالتاء ، ويطلق على الذكر والأنثى ، وسمى بذلك لأن الله - تعالى - نحله أى منحّه العسل الذى يخرج منه . وقوله - سبحانه - « أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون » بيان لما ألهمه الله للنحل من أوامر . ولما كلفها به من أعمال .

و « أن » مفسرة لأن الإيجاء فيه معنى القول دون حروفه وما بعدها لا محل له من الإعواب ، ويجوز بأن تكون مصدرية فيكون ما بعدها فى محل نصب على تقدير الجار . أى : بأن اتخذى .

واللهنى : وألهم ربك النحل وأرسلها وهداها إلى أن تتخذ من فجوات الجبال بيوتا تسكن فيها ، وكذلك من تجاريف الأشجار ، وما يرفعه الناس ويعرشونه من السقوف وغيرها .

يقال : عرش الشيء - بكسر الراء وضمة - إذا رفعه عن الأرض ، ومنه العريش الذى صنع لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم بدر لمشاهدة سير المعركة .

قال صاحب الكشف : فإن قلت ما معنى « من » فى قوله أن اتخذنى من الجبال بيوتا ومن الشجر وما يعرشون ، ؟ وهلا قبل فى الجبال وفى الشجر ؟

قلت : أريد معنى البعضية : وأن لا يقبى بيوتها فى كل جبل ، وكل شجر ، وكل ما يعرش ، ولا فى كل مكان منها .

وقد علق الشيخ ابن المنير على هذا الكلام بقوله : ويتبين هذا المعنى الذى نبه عليه الزحشرى فى تبعض « من » المتعلقة بإتخاذ البيوت باضلاق الأكل ، كأنه - تعالى - وكل الأكل إلى شهوتها واختيارها فلم يحجز عليها فيه ، وإن حجر عليها فى البيوت ، وأمرت بإتخاذها فى بعض المواضع دون بعض لأن مصلحة الأكل على الإطلاق باستمرار مشتهاها منه ، وأما البيوت فلا تحصل مصلحتها فى كل موضع . ولهذا المعنى دخلت ثم - فى قوله « ثم كلى » . -

لثغافوت الأمر بين الحجر عليهما في إتخاذ البيوت ، والإطلاق لها في تناول الثمرات ، كما تقول : باع الحلال فيما تأكله ثم كل أى شيء شئت . فتوسط ثم لثغافوت . الحجر والإطلاق فسبحان اللطيف الخبير ، (١)

وقوله : « ثم كل من كل الثمرات فاسلكى سبيل ربك ذللاً... » بيان للون آخر من الإلهامات التى ألهمها الله - تعالى - لإياها .

والسبل : جمع سبيل . والمراد بها الطرق التى تسلكها النحلة في خروجها من بيتها وفي رجوعها اليه وأضاف - سبحانه - السبل اليه ، لأنه هو خالقها وموجدتها .

وذلكلا : جمع ذلول وهو الشيء الممهّد المنقاد ، وهو حال من السبل ، أى : فاسلكى سبيل ربك حال كونها ممهّدة لك ، لا عسر في سلوكها عليك ، وإن كانت صعبة بالنسبة لغيرك .

قالوا : ربما أجذب عليها ما حولها ، فتتجمع الأماكن البعيدة للمرعى ، ثم تعود إلى بيوتها دون أن تضل عنها

وقيل إن « ذلولاً » حال من النحلة أى : ثم كل من الثمرات ، فاسلكى سبيل ربك ، حالة كنك منقاد لما يراود منك ، مطيع لما سخر لك الله له من أمور تدل على قدرته وحكمته - سبحانه - .

وقوله - تعالى - : « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » كلام مستأنف ، عدل به من خطاب النحلة إلى خطاب الناس ، تعديداً للنعم ، وتنبهها على مواطن العظات والعبر الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته وعجيب صنعته في خلقه ،

أى : يخرج من بطون النحل - بعد أكلها من كل الثمرات وبعد إتخاذها

ليوتها - شراب هو العسل ، مختلف ألوانه ما بين أبيض وأصفر وغير ذلك من ألوان العسل ، على حسب اختلاف مراعيها وما أكلها وسنمها ، وغير ذلك مما اقتضته حكمته - سبحانه - .

والضمير في قوله - تعالى - وفيه شفاء للناس ، يعود على الشراب المستخرج من بطونها وهو العسل .

أى : فى العسل شفاء عظيم للناس من أمراض كثيرة تعرض لهم وقيل : الضمير يعود إلى القرآن الكريم ، والتقدير : فيما قصصنا عليكم فى هذا القرآن الشفاء للناس .

وهذا القيل وإن كان صحيحا فى ذاته ، إلا أن السياق لا يدل عليه ، لأن الآية تتحدث عما يخرج من بطون النحل وهو العسل ، ولا وجه للمدول عن الظاهر ، ومخالفة المرجع الواضح ...

قال الإمام ابن كثير : والدليل على أن المراد بقوله ، فيه شفاء للناس ، هو العسل ، الحديث الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - ، أن رجلا جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخى استطلق بطنه فقال : د اسقه عسلا ، فذهب فسقا عسلا ثم جاء فقال : يا رسول الله ، سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا . قال : د اذهب فاسقه عسلا ، فذهب فسقا عسلا ثم جاء فقال يا رسول الله ، سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - د صدق الله وكذب بطن أخيك . اذهب فاسقه عسلا د فذهب فسقا عسلا فبرى . . .

ثم ساق الإمام ابن كثير بعد ذلك جملة من الأحاديث فى هذا المعنى منها ما رواه البخارى عن ابن عباس قال : الشفاء فى ثلاثة : فى شرطة محجم ، أو شربة عسل . أو كية بنار ، وأنهى أمى عن السكى . .

وروى البخارى - أيضا .. عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقول : « إن كان فى شيء من أدويةكم - أو يكون فى شيء من أدويةكم - خير : ففى شرطة مخجم ، أو شربة عسل ، أو لدغة بنار ، توافق الداء ، فما أحب أن أكوى » (١) .

وقال صاحب فتح البيان : وقد اختلف أهل العلم هل هذا الشفاء الذى جمعه الله فى العسل عام لكل داء ، أو خاص ببعض الأمراض .

فقال طائفة : هو على العموم فى كل حال ولكل أحد .

وقالت طائفة أخرى : إن ذلك خاص ببعض الأمراض ، ولا يقتضى العموم فى كل علة وفى كل إنسان ، وليس هذا بأول لفظ خصص فى القرآن فالقرآن مملوء منه ، ولغة العرب يأتى فيها العام كثيرا بمعنى الخاص ، والخاص بمعنى العام .

وما يدل على هذا ، أن العسل نكرة فى سياق الإثبات فلا يكون عاما باتفاق أهل اللسان . ومحققى أهل الأصول . وتذكيره إن أريد به التعظيم لا يدل إلا على أن فيه شفاء عظيما لمرض ، أو أمراض ، لاسلك مرض ، فإن تنكير التعظيم لا يفيد العموم . . .

ثم قال : قلت : وحديث البخارى : أن أخى استطلق بطنه . . . أوضح دليل على ما ذهب إليه طائفة من تعميم الشفاء ، لأن قوله - صلى الله عليه وسلم - صدق الله ، أى : أنه شفاء ، فلو كان لبعض دون بعض لم يكرر الأمر بالمعقاة (٢) .

والذى نراه ، أن من الواجب علينا أن نؤمن لإيماننا جازما بأن العسل

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٧٥ .

(٢) تفسير فتح البيان ج ٥ ص ٢٦٧ للشيخ صديق خان .

المذكور فيه شفاء للناس ، كما صرح بذلك القرآن الكريم ، وكما أرشد إلى ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم -

وعليتنا بعد ذلك أن نقوض أسر هذا الشفاء وعموميته وخصوصيته لعلم الله - تعالى - وقدرته وحكمته ويكفيينا بقينا في هذا المجال ، لإصرار النبي - صلى الله عليه وسلم - على أن يقول للرجل الذي استطلق بطن أخيه أكثر من مرة ، اذهب فاسقه عسلا .

وقد تولى كثير من الأطباء شرح هذه الآية الكريمة شرحا عليها وإفيا ، وبينوا ما اشتمل عليه عسل النحل من فوائد (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) .

أي : إن في ذلك الذي ذكرناه لكم من أمر النحل ، من إلهامها اتخاذ البيوت العجيبة ، ومن إدارتها لشئون حياتها بدقة متناهية ، ومن سلوكها الطرق التي جعلها الله مدلة في ذهابها وإيابها للحصول على قوام حياتها ، ومن خروج العسل من بطونها إن في ذلك وغيره ، لآية باهرة ، وعبرة ظاهرة ، ودلالة جليلة ، على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعظمته ، لقوم يحسنون التفكير فيما أخبرهم الله - تعالى - عنه ، ويوقنون بأن لهذا الـكون رباً واحداً لا إله إلا هو ، تبارك الله رب العالمين .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد ساقنا لنا ألواناً من عجائب صنع الله في خلقه ، كاستخراج اللب من بين فرث ودم ، وكتخاذ السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ، وكاستخراج العسل الذي فيه شفاء للناس من بطون النحل .

(١) راجع على سبيل المثال كتاب : الإسلام والطب الحديث ، للدكتور عبد العزيز إسماعيل .

فهذه الأشربة قد أخرجها الله - تعالى - من أجساد مخالفة لها في شكلها ، وقد ساقها - سبحانه - في آيات جمع بينها التناقض الباهر في عرض هذه النعم ؛ مما يدل على أن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا . .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن عجائب خلق الله - تعالى - في الأنعام والأشجار والنحل . . . ساقى السورة الكريمة ألوانا أخرى من مظاهر قدرته - تعالى - في خلق الإنسان ، وفي التفاضل في الأرزاق ، ومن نعمه على عباده في إيجاد الأزواج والبنين والحفدة . . . فقال - تعالى - :

« وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لَكَيْنِ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ، فَا الَّذِينَ فَضَّلُوا بَرَّادِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ، فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ، أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) »

قال الإمام الرازي - رحمه الله - لما ذكر - سبحانه - بعض عجائب أحوال الحيوانات ، ذكر بعده بعض عجائب أحوال الناس ، ومنها ما هو مذكور في هذه الآية : « والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أَرذَلِ الْعُمُرِ - وهو إشارة إلى مراتب عمر الإنسان - والعقلاء ضبطوها في أربع مراتب : أولها : سن النضوء والنماء ، وثانيها : سن الوقوف وهو سن الشباب - من ثلاث وثلاثين سنة إلى أربعين سنة - ، وثالثها : سن الانحطاط القليل وهو سن الكهولة - وهو من الأربعين إلى الستين - ، ورابعها : سن الانحطاط الكبير وهو سن

الشيخوخة - وهو من الستين إلى نهاية العمر - (١) ،

والمعنى : « والله » - تعالى - هو الذى « خلقكم » بقدرته ، ولم تكونوا قبل ذلك شيئا مذكورا .

« ثم ، هو وحده الذى « يتوفاكم » وينهى حياتكم من هذه الدنيا عند إقضاء آجالكم .

وقوله « ومنكم من يرد إلى أرذل العمر .. » معطوف على مقدر . أى :
والله - تعالى - هو الذى خلقكم ، فممنكم من يبقى محتفظا بقوة جسده وعقله حتى يموت ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ..

والمراد بأرذل العمر : أضغفه وأوهاه ، وهو وقت الهرم والشيخوخة ، الذى تنقص فيه القوى ، وتعجز فيه الحواس عن أداء وظائفها .

يقال : رذل الشيء يرذل - بضم الدال فيهما - رذالاً .. ، إذا ذهب جوده وبقي رديته .

وقوله : لى لا يعلم بعد علم شيئا ، تعليل للرد إلى أرذل العمر .

أى : فعلنا ما فعلنا من إبقاء بعض الناس فى هذه الحياة إلى سن الشيخوخة لى يصير إلى حالة شبيهة بحالة طفولته فى عدم إدراك الأمور إدراكا تاما سليما .

وبجوز أن تكون اللام للصيرورة والعاقبة . أى : ليصير أمره بعد العلم بالأشياء ، إلى أن لا يعلم شيئا منها علما كاملا .

ولقد استأذ النبي - صلى الله عليه وسلم - من أن يصل عمره إلى هذه السن ، لأنها سن تشكك فيها الآلام والمتاعب . وقد يصير الإنسان فيها عالة على غيره . وشبه هذه الآية قوله - تعالى - « الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل

من بعد ضعف قوة: ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة، يخلق ما يشاء وهو العليم القدير، (١).

قال الإمام ابن كثير: روى البخاري عند تفسير هذه الآية، عن أنس بن مالك، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يدعو فيقول: اللهم إني أعوذ بك من البخل، والكسل، والهرم، وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة الحيا والممات . .

وقال زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة:

سَمِعْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَالِكَ يَسَامٍ
رَأَيْتُ النَّاسَ يَخْبِطُ عَشْوَاءَ مَنْ تَصَبَّ ثَمَنُهُ ، وَمَنْ تَخْطَى - يَعْمُرُ فِيهِمْ (٢)

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على كمال علمه، ونظام قدرته، فقال - تعالى - : « إن الله عليم قدير » . أي: إن الله - تعالى - عليم بأحوال مخلوقاته، لا يخفى عليه شيء من تصرفاتهم « قدير »، على تبديل الأمور وكأنه تقضي حكمته وإرادته .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة إمكان البعث وأنه حق، لأن الله - تعالى - القادر على خلق الإنسان وعلى نقله من حال إلى حال . . . قادر - أيضا - على إحيائه بعد موته :

ثم انتقلت السورة الكريمة من الحديث عن خلق الإنسان، وتلقبه في أطوار عمره، إلى الحديث عن التفاوت بين الناس في أرزاقهم، فقال - تعالى - : « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق . . » ، فجعل منكم الغني والفقير . والمالك والمملوك، والقوى والضعيف، وغير ذلك من ألوان التفاوت بين الناس؛ لحكمة هو عليها - سبحانه - .

ثم بين - سبحانه - موقف المفصلين في الرزق من غيرهم فقال : « فاما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء . . . »

أى : فليس الذين فضلهم الله - تعالى - في الرزق على غيرهم « برادى » أى : بما نحى وبأذى « رزقهم » الذى رزقهم الله لإياه على ما ليكمهم أو خدمهم الذين هم لإخوة لهم فى الإنسانية « فهم » أى الأغنياء الذين فضلوا فى الرزق وما ليكمهم وخدمهم « فيه » أى : فى هذا الرزق « سواء » من حيث لى أنا الرازق للجميع .

فالجملة السكرية يجوز أن تكون دعوة من الله - تعالى - للذين فضلوا على غيرهم فى الرزق ، بأن ينفقوا على ما ليكمهم وخدمهم ، لأن ما ينفقونه عليهم هو رزق أجراه الله للفقراء على أيدي الأغنياء .

والى هذا المعنى أشار صاحب الكشف بقوله عند تفسير الآية : أى : جعلكم متساوين فى الرزق ، فرزقكم أفضل مما رزق ما ليكمهم وهم بشر مثلكم ، وإخوانكم ، فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم ، حتى تتساووا فى الملبس والمطعم . كما يحكى عن أبى ذر أنه سمع النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول : إنما هم إخوانكم ، فاكسوهم ما تلبسون ، وأطعموهم ما تطعمون ، فما روى عبده بعد ذلك إلا ردائه ردائه : وإزاره إزاره من غير تفاوت^(١) .

وجوز أن تكون الآية السكرية توبيخ للذين يشركون مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة . فيكون المعنى : لقد فضل الله - تعالى - بعضكم على بعض فى الرزق - أيها الناس - ، ومع ذلك فالمشاهد الغالب بينهم ، أن الأغنياء لا يردون أموالهم على خدمهم وعبيدهم بحيث يتساوون معهم فى الرزق ، وإذا ردوا عليهم شيئاً ، فإنما هو شىء قليل يسير يدل على بخالهم وحرصهم . . . مع أنى أنا الرازق للجميع . . .

وإلى هذا المعنى أشار ابن كثير بقوله عند تفسيره الآية : بين - تعالى -
 للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من شركاء ، وهم يعترفون بأنهم عبيده ،
 كما كانوا يقولون في تلبيتهم في حجهم : لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك
 تملكه وما ملك ، فقال - تعالى - مشكرا عليهم : أنتم لا ترضون أن تساوا
 عبيدكم فيما رزقناكم ، فكيف يرضى هو - تعالى - بمساواة عبيده في الإلهية
 والتعظيم ، كما قال - تعالى - في آية أخرى : ضرب لكم مثلا من أنفسكم ، هل
 لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تحافونهم
 كخيفتكم أنفسكم

وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية يقول : لم يكونوا ليشركونا عبيدكم
 في أموالهم ونسائهم ، فكيف يشركون معي عبيدي في سلطاني . . . (١)

وهذا المعنى الثاني هو الأقرب إلى سياق آيات السورة الكريمة ، لأن
 السورة الكريمة مكية ، ومن أهدافها الأساسية دعوة الناس إلى اخلاص
 العبادة لله .. عز وجل - ، ونفي الإشراك والمشركين ، وإقامة الأدلة المتنوعة
 على بطلان كل عبادة غير الله - تعالى - .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : وألقنهم الله يحسدون ، .

والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع ، والفاء عطوفة على مقدر أي :
 أيشركون به - سبحانه - فيحسدون نعمه : وينكرونها ، ويغبطونها حقها ،
 مع أنه - تعالى - هو الذي وهبهم هذه النعم ، وهو الذي منحهم ما منحهم
 من أرزاق ١١٤

ثم ذكرت السورة الكريمة بعد ذلك نعمة أخرى من نعم الله - تعالى -
 على الناس : فقال - تعالى - والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ،

أي : والله - تعالى - هو وحده الذي جعل لكم من أنفسكم ، أي : من

جنسكم ونوعكم وأزواجاء لتسكنوا إليها ، وتستأنسوا بها ، فإن الجنس إلى الجنس أنس وأسكن .

قال - تعالى - : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً ، لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة . . . » (١)

قال الإمام ابن كثير ، يذكر - تعالى - نعمه على عبده ، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً ، أى : من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولم يكن من رحمته أنه خلق من بني آدم ذكورا وإناثا ، وجعل الإناث أزواجاً للذكور . . . » (٢)

وقوله - سبحانه - « وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » بيان لنعمة أخرى من نعمه - تعالى - والحفدة ، جمع حافد . يقال ، حفد فلان يحفد حفداً من باب ضرب ، إذا أسرع في خدمة غيره وطاعته . ومن دعاء القنوت : وإليك نسعى ونحفد ، أى نسرع في طاعتك ياربنا .

والمراد بالحفدة : أبناء الأبناء . روى عن ابن عباس أنه قال : الحفيدة ولد الإبن والبنات ، ذكراً كان أو أنثى .

وقيل المراد بهم : الخدم والأعوان . وقيل المراد بهم : الأختان والأصهار
أى : أزواج البنات وأقارب الزوجة . . .

قال الجلب بعد أن نقل جملة من أقوال المفسرين في ذلك : وكل هذه الأقوال متقاربة ، لأن اللفظ يحتمل الكل بحسب المعنى المشترك . وبالجملة فالحفدة غير البنين ، لأن الأصل في العطف المغايرة ، (٣)

وقوله - سبحانه - « ورزقكم من الطيبات » بيان لنعمة ثالثة من النعم المذكورة في هذه الآية .

(١) سورة الروم الآية ٢٢ (٢) تفسير ابن كبير ٢ ص ٥٧٧

(٣) حاشية الجلب على الجلائين ٢ ص ٥٨٦

أى : ورزقكم - سبحانه - من الطيبات التى تستلذونها وتشتهونها ، وقد أحل لكم التمتع بها فضلاً منه وكرماً .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بتأنيب الذين يؤثرون الفنى على الرشد فقال - تعالى - ، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ،

والباطل يشمل كل إعتقاد أو قول أو فعل يخالف الحق والرشاد والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، والفناء معطوفة على مقدر . والمعنى : أيجحدون نعم الله - تعالى - فيؤمنون بالباطل ، ويكفرون بكل ما سواه من الحق والهدى والرشاد .

وفى تقديم الباطل على الفعل ، يؤمنون ، إشارة إلى أنهم قد اختلطوا بالباطل بدمائهم فأصبحوا لا يؤمنون إلا به ، ولا ينفقون إلا له .

والمراد بنعمة الله عموم النعم التى أنعم الله بها عليهم ، والتى لا تعد ولا تحصى .

وفى تقديم النعمة وتوسيط ضمير الفصل ، إشعار بأن كفرهم بالنعمة مستمر وإنكارهم لها لا ينقطع ، لأنهم ، يستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله . . .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد ذكرت الناس بعجائب خلقهم وبأطوار حياتهم ، وبتفاوت أرزاقهم ، وبعرض نعم الله - تعالى - عليهم لعلمهم عن طريق هذا التذكير يفتنون إلى رشدهم ، ويخلصون العبادة لخالقهم - سبحانه - ، ويستعملون نعمه فيما خلقت له .

ثم ساقى السورة الكريمة بعد ذلك لونا من ألوان العقول المنحرفة عن الطريق الحق ، كما ساقى مثلين للرب الجبار العظيم ، وللملوك العاجز الضعيف ، لعل فى ذلك عبرة لمن يعتبر ، وهداية لمن يريد الهراط المستقيم ، فقال - تعالى - :

« ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون » (٧٣) فلا تضرِبُوا اللهَ الأمثالَ ، إِنَّ اللهَ يعلمُ وأنتم لا تعلمون (٧٤) ضربَ اللهَ مثلاَ عبداً مملوكاً لا يقدرُ على شيءٍ ، ومن رزقناه مئسراً رزقاً حسناً فهوَ ينفقُ منه سيراً وجَهراً ، هل يستوون الحمدُ للهَ بل أكثرُهُم لا يعلمون (٧٥) وضربَ اللهَ مثلاَ رجلينِ : أحدهما أبكمُ لا يقدرُ على شيءٍ وهو كَلٌّ عَلَى مولاهُ ، أينما يوجهه لا يأتِ بخيرٍ . هل يستوى هو ومن يأمر بالعدلِ وهو على صراطٍ مستقيمٍ (٧٦) . »

والمراد بقوله .. سبحانه - : « ويعبدون من دون الله ... » كل معبود سوى الله - تعالى - من صنم أو وثن أو غير ذلك من المعبودات الباطلة .
والجملَةُ الكريمةُ داخلةٌ تحت مضمون الاستفهام الإنكارى ، ومعطوفةٌ عليه ، وهو قوله - تعالى - : « فإِذَا الْبَاطِلُ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ »

أى أن هؤلاء الجاحدين انعم الله - تعالى - ، بلغ من جهالتهم وسفاهاتهم أنهم يؤمنون بالباطل ، ويكفرون بالحق ، ويعبدون من دون الله - تعالى - أصناماً وأوثاناً لا تملك لأبداً أى شىء من الرزق ، فهم لا تنزل مطراً من السماء ولا تخرج نباتاً من الأرض ، ولا تستطيع أن تنفع أو تضر ..
و « ما ، فى قوله - تعالى - « مالا يملك .. » كناية عن معبوداتهم الباطلة فهم مفردة لفظاً ، بمجموعة معنى .

والتشكيك فى قوله - سبحانه - « رزقا » للإشعار بقلته ونفاثته ، وأن معبوداتهم لا تملك لهم أى شىء من الرزق ، حتى ولو كان نافعاً حقيراً .

وقوله ، شيئاً منصوب على المصدر ، أى : ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم ملكاً ، أى شيئاً من الملك .

والضمير فى قوله ، ولا يستطيعون ، يعود إلى ما ، وجمع بصيغة العقلاء وبناء على زعمهم القاسد ، من أن هذه الأصنام فى إمكانها النفع والضرر .

وجاءت جملة ولا يستطيعون ، بعد قوله - تعالى - ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض - ، لتأكيد عجز هذه المعبودات عن فعل أى شئ .
ففى لا تملك شيئاً ، وليس فى استطاعتها أن تملك لأنها ليست أهلاً لذلك .

وقوله - سبحانه - فلا تضربوا الله الأمثال .. ، نهى منه - سبحانه - عن أن يشبّه فى ذاته أو صفاته بغيره ، وقد جاء هذا النهى فى صورة الالتفات من الغائب إلى المخاطب للاهتمام بشأن هذا النهى ، والغناء لترتيب النهى على ما عده من النعم التى وردت فى هذه السورة والتى لم يفته الحديث عنها بعد .

والأمثال : جمع مؤنل وهو التظير والشمية لغيره ، ثم أطلق على القول السائر المعروف ، بالمأثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه - ، لمورده - وهو الذى ورد فيه أولاً - .

وضرب الأمثال : لتوضيح الشئ الغريب ، وتقريب المعنى المأقول من المحسوس ، وعرض ما هو غائب فى صورة ما هو مشاهد ، فيكون المعنى الذى ضرب له المثل أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس .

وقوله - تعالى - : إن الله يعلم وأتمم لا تعلمون ، تعليل لهذا النهى عن ضرب الأمثال لله - عز وجل - .

أى : فلا تتجاسروا ، وتتطاولوا ، وتضربوا لله - تعالى - الأمثال ، كما يضرب بعضكم لبعض ، فإن الله - تعالى - هو الذى يعلم كيف تضرب الأمثال وأتمم لا تعلمون ذلك .

قال الزجاج : ورد أن المشركين كانوا يقولون : إن إله العالم أجل من أن يعبد الواحد منا ، فكانوا يتوسلون إلى الأصنام والمكواكب ، كما أن أصغار الناس يخدمون أكابر حصرة الملك ، وأرسلت الأكابر يخدمون الملك ، فموا عن ذلك ، (١)

نم وضح لهم - سبحانه - كيف تضرب الامثال ، فساق مثلين حكيمين يدلان على وحدانية الله - تعالى - وقدرته :

أما المثل الأول فيتجلى في قوله - عز وجل - : ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء

وأما المثل الأول فيتجلى في قوله - عز وجل - : ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء

أى : ذكر الله - تعالى - وبين ووضح لكم مثلا تستدلون به على وحدانيته - سبحانه - ، وهو أن هناك عبدا رقيقا مملوكا لغيره ، وهذا العبد لا يقدر على شيء من التصرفات حتى ولو كانت قليلة .

وقوله - سبحانه - : عبدا ، بدل من « مثلا » ، و « مملوكا » صفه للعبد . ووصف - سبحانه - العبد بأنه مملوك ، ليحصل الامتياز بينه وبين الحر ، لأن كليهما يشترك في كونه عبدا لله - تعالى -

ووصفه أيضا - بأنه لا يقدر على شيء للتدبير بينه وبين الممكّنات والعبد المأذون له في التصرف ، لانهما يقدران على بعض التصرفات .

هذا هو الجانب الأول من المثل ، أما الجانب الثانى فيتجلى في قوله - تعالى - : ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا

قال الألوسى : و « من » ، فى رزقناه ، فكرة موصوفة ، ليطابق عبدا فإنه

فكرة موصوفة - أيضا - ، وقيل إنها موصولة ، والأول إختيار الأكثرين
 أى : حرا رزقناه بطريق الملك ، والاتفات إلى التكلم - فى رزقناه ، -
 للاشعار باختلاف حال ضرب المثل والرزق ... ، (١)

أى : ذكر الله - تعالى - لكم لتعظوا وتنفكروا ، حال رجلين :
 أحدهما عبد مملوك لا يقدر على شيء ، والثانى حر مالك رزقه الله - تعالى -
 رزقا واسعا حللا حسنا ، فهو ، أى هذا الحر ، ينفق على غيره من هذا
 الرزق الحسن سرا وجهرا ، وإختار - سبحانه - ضمير العظمة فى قوله
 رزقناه ، للاشعار بكثرة هذا الرزق وعظمته ، ويزيده كثرة وعظمة
 قوله - تعالى - بعد ذلك ومنّا ، أى : من عندنا وحدنا وليس من
 عند غيرنا .

ووصف - سبحانه - الرزق بالحسن ، للإشارة إلى أنه مع كثرته فهو
 حلال طيب مستحسن فى الشرع وفى نظر الناس .

وقال - سبحانه - فهو ينفق ... بصيغة الجملة الاسمية ، للدلالة على
 ثبوت هذا الاتفاق ودوامه .

وقوله سرا وجهرا ، منصوبان على المصدر ، أى أنفاق سرا وجهرا ، أو
 على الحالية ، أى فهو ينفق منه فى حالتى السر والظهر .

والمراد أنه إنسان كريم ، لا يبخل بشيء مما رزقه الله ، بل ينفق منه فى
 عموم الأحوال ، وعلى من تحسن منه النفقة سرا ، وعلى من تحسن معه
 النفقة جهرا .

هذان هما الجانبان المتقابلان فى هذا المثل ، والفرق بينهما واضح وعظيم
 عند كل ذى قلب سليم ، ولذا جاء بعدهما بالاستفهام الإنكارى التوبيخى فقال :

« هل يستوون ، ؟ أى : هل يستوى فى عرفكم أو فى عرف أى عاقل . هذا العبد المملوك العاجز الذى لا يقدر على شىء . . . مع هذا الإنسان الحر المالك الذى رزقه الله - تعالى - رزقا واسعا حلالا ، فشكر الله عليه ، وأستعمله فى وحيه الخير .

لأنه مما لا شك فيه أنهما لا يستويان حتى فى نظر من عنده أدنى شىء من عقل .

ومادام الأمر كذلك ، فكيف سويتهم -- أيها المشركون الجهلاء - فى العبادة ، بين الخالق الرازق الذى يملك كل شىء ، وبين غيره من المعبودات الباطلة التى لا تسمع ولا تبصر ، ولا تعقل ، ولا تملك شيئا . . .

وقال - سبحانه - « هل يستوون ، مع أن المتقدم أنثان ، لأن المراد جنس العبيد والأحرار ، المندول عليهما بقوله « عبدا ، ومن رزقناه » . فالمقصود بالمثل كل من اتصف بهذه الأوصاف المذكورة من الجنسين المذكورين لافردان معينان .

وقوله : « الحمد لله ، ثناء منه - سبحانه - على ذاته ، حيث ساق - سبحانه - هذه الأمثال الواضحة للتمييز بين الحق والباطل .

أى : قل - أيها الإنسان المؤمن العاقل - ، الحمد ، كله لله ، - تعالى - على إرشاده لعباده المؤمنين ، وتعليمهم كيف يقذفون بمقهم على باطل أعدائهم فإذا هو زاهق .

ثم ختم - سبحانه - الآية السكرية بقوله (بل أكثرهم لا يعلمون) أى : بل أكثر هؤلاء الكافرين الضالين ، لا يعلمون كيف يميزون بين الحق والباطل لانطماس بصائرهم ، واستيلاء الجحود والحسد والعناد على قلوبهم .

وقال - سبحانه - (بل أكثرهم .) للاشعار بأن من هؤلاء الكافرين من

يعلم الحق ويعرفه كما يعرف أبنائه ، وليكن المئوى والغرور والتقليد الباطل ..
حال بينه وبين أتباع الحق .

هذا هو المثال الأول الذى ذكره الله - تعالى - للاستدلال به على بطلان
التسوية بين عباده الله - تعالى - الخالق لكل شيء ، والمالك لكل شيء ..
وبين عبادة غيره من الأصنام والجمادات التى لا تخلق شيئا ، ولا تملك شيئا ،
ولا تضر ولا تنفع ..

أما المثال الثانى فهو أشد وضوحا من سابقه على وجدانية الله - تعالى -
ورحمته بعباده ، وعلى الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر ، ويتجلى هذا المثال
فى قوله - عز وجل - : (وضرب الله مثلا ، رجلين أحدهما أبكم ، لا يقدر على
شيء ، وهو كل على مولاه ، أينما يوجهه لا يأت بخير ...) .

أى : وذكر الله - تعالى - مثلا آخر لرجلين ، (أحدهما أبكم) أى :
لا يستطيع النطق أو الكلام ، ضعيف الذهن والفهم لغيره .

(لا يقدر على شيء) أى : لا يقدر على فعل شيء من الأشياء المتعلقة
بنفسه أو بغيره .

(وهو) أى هذا الرجل (كل على مولاه) أى : حمل ثقيل ، وهم كبير على
مولاه الذى يتولى شئونهم من طعام وشراب وكساء وغير ذلك . وهذا بيان لعدم
قدرته على القيام بمصالح نفسه ، بعد بيان عدم قدرته على القيام بفعل أى شيء
على الإطلاق .

قال القرطبى : قوله (وهو كل على مولاه) أى ثقل على واهيه وقرابته ،
ووبال على صاحبه وابن عمه . وقد يسمى أيتيم كلا لثقله على من يكفله ،
ومنه قول الشاعر :

أَكُولُ لِمَا لَكَ قَبْلَ شَبَابِهِ إِذَا نَانَ عَظْمُ السَّكَلِ غَيْرَ شَدِيدِ (١)

فالكَلْبُ هو الإنسان العاجز الضعيف الذي يكون محتاجاً إلى من يرعى شؤنه .

وقوله : أينما بوجهه لا يأت بخير ، أى : أن هذا الرجل حينما يوجهه مولاه وكافله لقضاء أمر من الأمور يعود خائباً ، لعجزه ، وضعف خيلته . وقلة إدراكه . . .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هذا الرجل بأربع صفات ، تدل على سوء فهمه ، وقلة خيلته ، وثقله على ولى أمره ، ولانسداده طرق الخير فى وجهه

هذا هو الجانب الأول من المثل ، أما الجانب الثانى فيتجلى فى قوله - تعالى - : د هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم ،

أى : د هل يستوى هو ، أى هذا الرجل الأيكم العاجز . . مع رجل آخر د يأمر ، غيره بالعدل د وهو ، أى هذا الرجل الآخر فى نفسه د على صراط مستقيم ، أى : على دين قويم ، وخلق كريم فقد جمع بذلك بين فضيلتين جليلتين : نفعه لغيره ، وصلاحه فى ذاته .

لاشك أن هذين الرجلين لا يستويان فى عقل أى عاقل ، إذ أن أولهما أبكم عاجز خائب . . . وثانيهما منطيق ، ناصح لغيره ، جامع لحضال الخير فى نفسه .

ومادام الأمر كذلك فكيف سويتم - أيها المشركون الضالون المسكدبون - فى العبادة بين الله - تعالى - وهو الخالق لكل شئ ، وبين تلك الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عن عابديها شيئاً

أو كيف سويتم بين المؤمن الجامع لكل مكرمة ، وبين الكافر الغبى الأبله الذى آثر الغى على الرشد ، فتسكون الآية السكريمة مسوقة لبيان الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر .

وقد قابل سبحانه - الأوصاف الأربع للرجل الأول ، بهذين الوصفين للرجل الثاني ، لأن حاصل أوصاف الأول أنه غير مستحق شيء ، وحاصل وصفي الثاني أنه مستحق لكل فضل وخير .
وقوله : ومن يأمر بالعدل . . . ، معطوف على الضمير المستتر في قوله : هل يستوى . . .

وجملة : وهو على صراط مستقيم ، في محل نصب على الحال .
وبذلك نرى أن الآيتين الكريميتين قد ساقتا مثليين واضحين ، لبيان الفرق الشاسع بين ذات الله - تعالى - الخلاف العظيم ، الرزاق الكريم . . . وبين تلك المعبريات الباطلة التي أشركها الضالون في العبادة مع الله - عز وجل -
أو بين المؤمن الذي هو على بصيرة من أمره ، وبين الكافر الذي استحب العمى على الهدى . . أو بين الحق في وضوحه وجماله وجلاله ، وبين الباطل في ظلامه وقبحه وحسنه . . هذا ، وما ذكره بعضهم من أن المثليين في الآيتين الكريميتين ، قد وردا في أشخاص معينين من المؤمنين أو الكافرين ، لا يعول عليه ، لضعف الروايات التي وردت في ذلك ، ولأن العبارة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

قار الآلوسي ما ملخصه : وما روى من أن الأئمة أبو جهل والأمير بالعدل عمار ، أو بالأئمة أبي بن خلف ، والأمير بالعدل عثمان بن مظعون لا يصح إسناده . . . (١)

وهذين المثليين تكون السورة الكريمة قد أقامت أعظم الأدلة وأسطمها على صحة قوله - تعالى - قبل ذلك : ، وقال الله لا تتخذوا إلهين إنما هو إله واحد

ثم ساق السورة بعد ذلك ما يدل على إحاطة الله سبحانه - بكل شيء - ، وعلى شمول قدرته ، وعلى سابغ نعمته ، فقال - تعالى - :

« وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونٍ أُمَمَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرْوَا إِلَى الطَّيْرِ مَسْخَرَاتٍ فِي جَوْءِ السَّمَاءِ مَا يَعْصِيكُنَّ إِلَّا اللَّهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ، وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ، وَمِنْ أَصْرَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْمَارِهَا أَثَمَاتًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ، وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَائِلَ تَقِيكُمْ بُسْكُم ، كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَامِعُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُوتَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣) » .

والمراد فالغيب في قوله - سبحانه - : والله غيب السموات والأرض ... ، لا تدرك الحواس ، ولا تحيط بكنهه العقول ، لأنه غائب عن مدارك الخلاق .

والكلام على حذف مضاف ، والتقدير : قد - تعالى - وحده ، علم جميع الأمور الغائبة عن مدارك المخلوقين ، والتي لا سبيل لهم إلى معرفتها إلا عن طريق الحس ، ولا عن طريق العقل .

وإن كانت هذه صفته ، كان مستحقا للعبادة والطاعة ، لا تلك المعبودات الباطلة التي لا تعلم من أمرها ، أو من أمر غيرها شيئا .

وقوله - سبحانه - : « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب . »
بيان لسرعة نفاذ أمره بدون مهلة .

والساعة في الأصل : لاسم لمقدار قليل من الزمان غير معين . والمراد بها
هنا يوم القيامة وما يحدث فيه من أهوال .

وسمى يوم القيامة بالساعة : لوقوعه بفتة ، أو لسرعة ما يقع فيه من حساب
أو لانه على طول زمنه يسير عند الله - تعالى - .

واللمح : النظر الذي هو في غاية السرعة . يقال لمح لمحاً ولحناً إذا رآه
بسرعة فائقة ولمح البصر : التحرك السريع لطرف العين من جهة إلى جهة ، أو
من أعلى إلى أسفل .

و د أو ، هنا للتخيير بالنسبة لقدرة الله - تعالى - أو للاضراب .

أى : والله - تعالى - وحده علم جميع ما غاب في السموات والأرض من
أشياء ، وما أمر قيام الساعة في سرعته وسهولته ، وما يترتب عليه من أماتة
وأحياء ، وحساب ، وثواب وعقاب . . . ما أمر ذلك كله إلا كتتحرك طرف
العين من جهة إلى جهة ، أو هو - أى أمر قيامها - أقرب من ذلك وأسرع ،
بحيث يكون في نصف هذا الزمان أو أقل من ذلك ، لأن قدرتنا لا يعجزها
شيء ، قال - تعالى - : « إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون »

والمقصود من هذه الجملة الكريمة ، بيان سرعة تأثير قدرة الله - عز وجل -
مضى توجهت إلى شيء - من الأشياء .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يؤكد شمول قدرته فقال - تعالى :
« وإن الله على كل شيء قدير » . أى : لا رب الله - تعالى - لا يعجز قدرته شيء
سواء أكان هذا الشيء يتعلق بأمر قيام الساعة في أسرع من لمح البصر . . . أو
بغير ذلك من أشياء .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك أنواعاً من نعمه على عباده فقال : « والله
أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً »

أى : والله - تعالى - وحده هو الذى أخرجكم - أيها الناس - من بطون أمهاتكم إلى هذه الحياه ، وأنتم لا تعلمون شيئاً لا من العلم الدنيوى ولا من العلم الدينى . ولا تعرفون ما يضرركم أو ينفعكم والجملة السكرية معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : ، والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ... ،

وجملة « لا تعلمون شيئاً ، حال من الكاف فى « أخرجكم ،

وقوله - سبحانه - « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » ، نعمة ثانية من نعمه - سبحانه - التى لا تحصى .

أى : أن من نعمه - تعالى - أنه أخرجكم من بطون أمهاتكم - بعد أن مكثتم فيها شعوراً تحت كلامه ورعايته - وأنتم لا تعرفون شيئاً ، وركب فيكم بقدرته الفائده ، وحكمته المألغة ، « والسمع ، الذى تسمعون به ، والبصر الذى بواسطته تبصرون ، « والأفئدة ، التى عن طريقها تعقلون وتفهمون ، لعلكم بسبب كل هذه النعم التى أنعمها عليكم ، تشكروا حق الشكر ، بأن تخلصوا له العباداة والطاعة ، وتستعملوا نعمه فى مواضعها التى وجدت من أجلها .

قال الجمل : وجملة : « وجعل لكم السمع والأبصار ... » ، مبتدئية ، أو معطوفة على ما قبلها ، والاولا تقتضى ترتيباً ، فلا ينافى أن هذا الجمل قبل الإخراج من البطون . ويمكن تأخيرها - أى الجمل - أن السمع ونحوه من آلات الإدراك ، إنما يعتمد به إذا أحسن الإنسان وأدرك وذلك لا يكون إلا بعد الإخراج . وقدم السمع على البصر ، لأنه طريق تلقى الوحي ، أو لأن إدراكه أقدم من إدراك البصر . وإفراده - أى السمع - باعتبار كونه مصوراً فى الأصل ... ، (١)

وقال الإمام ابن كثير . وهذه القوى والحواس تحصل الإنسان على التدرج

قليلا قليلا حتى يبلغ أشده . وإنما جعل - تعالى - هذه الخواص في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه ، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : يقول تعالى - من عادي وليا فقد بارزني بالحرب . وما تقرب إلي عبدي بشيء أفضل مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه .

فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن دعاني لأجيبنه ولئن استعاذني لأعيذه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولا بد له منه .

فمن الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة ، صارت أفعاله كلها لله ، فلا يسمع إلا الله ، ولا يبصر إلا الله أي : لما شرعه الله له (١)

وشبه بهذه الآية قوله - تعالى - : قل هو الذي أنشأكم ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ، (٢)

ثم حض - سبحانه - عباده على التفكير في مظاهر قدرته فقال - تعالى - : ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله

والطير : جمع طائر كركب وراكب . وهذه مسخرات ، من التسخير بمعنى التذليل والانتقياد أي : ألم ينظر هؤلاء الذين أشركوا مع آلهة أخرى في العبادة ، إلى الطيور وهن يسبحن في الهواء المتعاهد بين الأرض والسماء ، ما يمسكهن في حال قبضن وبسطن لأجنحتهن إلا الله - تعالى - ، بقدرته الباهرة ، وبنو أمية التي أودعها في فطرة الطير .

لأنهم لو نظروا نظر تأمل وتعقل ، لعلموا أن المسخر لهن هو الله الذي

لا معبود بحق سواه وفي قوله - تعالى - « مسخرات » ، إشارة إلى أن طيراتها في الجو ليس بمقتضى طبيعتها ، وإنما هو بتسخير الله تعالى لها وبسبب ما أوجد لها من حواس ساعدتها على ذلك ، كالأجنحة وغيرها . وأضاف - سبحانه - الجو إلى السماء لارتفاعه عن الأرض ، ولاظهار كمال قدرته - سبحانه - .
ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .

أى : إن في ذلك التسخير والتذليل للطير على هذه الصفة « لآيات » ، بينات على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته ، « لقوم يؤمنون » ، بالحق ، ويفتحون قلوبهم له ويسمون بأنفسهم عن التقليد الباطل .

ثم ساقَت السورة الكريمة ألواناً من النعم ، منها ما يتعلق بنعمة المسكن فقال - تعالى - : « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً . . . »

قال القرطبي : قوله تعالى : « جعل لكم ، معناه صير ، وكل ما علاك فأظلك فهو سقف وسما . ، وكل ما أظلك فهو أرض . وكل ما سترك من جهاتك الأربع فهو جدار ، فإذا انتظمت واتصلت فهو بيت ؛ وهذه الآية فيها تعديد نعم الله تعالى على الناس في البيوت وقوله : « سكناء » أى : تسكنون فيها وتهتأجوا بحكم من الحركة . . . » (١)

والحق أن نعمة السكن في البيوت والاستقرار فيها ، والشعور بداخلها بالأمان والاطمئنان ، هذه النعمة لا يقدرها حق قدرها ، إلا أولئك الذين فقدوها ، وصاروا يعيشون بلا مأوى بأويهم ، أو منزل يجمع شتاتهم . . .
والتعبير بقوله عز وجل « سكناء » فيه ما فيه من سمو بمكانة البيوت التي يسكنها الناس .

فالبيت مكان السكينة النفسية ، والراحة الجسدية ، هكذا يريد الإسلام ، ولا يريد مكاناً للشقاق والخصام ، لأن الشقاق والخصام يناق كونه « سكناء » .

والبيت له حرمة التي جعل الاسلام من مظاهرها . عدم اقتحامه بدون استئذان ، وعدم التطلع إلى ما بداخله ، وعدم التجسس على من بداخله .

وصيانة حرمة البيت . كما أمر الاسلام . نجعله « سكنا ، آمنا ، يجذف فيه أصحابه كل ما يريدون من الراحة النفسية والسمورية » .

وقوله - تعالى - : « وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، بيان لنعمة أخرى تتمثل في البيوت الخفيفة المتنقلة ، بعد الحديث عن البيوت الثابتة المستقرة .

والأنعام جمع نعم . وتشمل الإبل والبقر والغنم ، ويدخل في الغنم المعز . والظعن يسكون العين وفتحها - التحول والانتقال والرحيل من مكان إلى آخر طلبا للكلأ ، أو المساقط الغيث ، أو لغير ذلك من الأغراض ..
أى : ومن نعمة أيضا أنه أوجد لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها ، أى : تجدونها خفيفة « يوم ظعنكم ، أى : يوم سفركم ورحيلكم من موضع إلى آخر ، ويوم إقامتكم » في مكان معين بحيث يمكنكم أن تنصبوها لتتراخوا بداخلها ، بأيسر السبل ، وذلك كالقباب والخيام والأخيمة ، وغير ذلك من البيوت التي يحف حملها .

ثم ختم - سبحانه - الآية بإبراز نعمة ثالثة ، تتمثل فيما يأخذونه من الأنعام فقال - تعالى - : « ومن أصرافها ، وأوبارها ، وأسعارها ، أئانا ومتاعا إلى حين ، .

والأنث : متاع البيت الكثير ، وأصله من أث الشيء بفتح الهمزة وتشديد التاء مع الفتح إذا كثرت تكاثف ، ومنه قول الشاعر .

وفرع يزين المتن أسود فاحم
أثبت كقفو النخلة المتعكل (١)

(١) الفرع : السور التام . والمتن : ما بين الرأس وشماله . والفاحم : السيد السواد . والأنث : الكثير المتكاثف . والمتعكل : الذي دخل بعضه

في بعض أمكنة . راجع تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٥٤

ويشمل جميع أصناف المال كالفرش وغيرها .

والمتاع : ما يتمتع به من حوائج البيت الخاصة كأدوات الطعام والشراب ، فيكون عطف المتاع على الأثاث من عطف الخاص على العام .

وقيل : هما بمعنى واحد . والعطف لتنزيل تعابير اللفظ بمنزلة تعابير المعنى .

أى : ومن أصواف الغنم ، وأوبار الإبل ، وأشعار المعز ، تتخذون لأنفسكم ، أثاثا ، كثيرا تستعملونه في مصالحكم المتنوعة ، كما تتخذون من ذلك ما تتمتعون به في بيوتكم في معاشكم ، إلى حين ، أى : إلى وقت معين قدره الله - تعالى - لكم في تمتعكم بهذه الأصواف والأوبار والأشعار .

وبعد الحديث عن نعمة البيوت والأنعام جاء الحديث عن نعمة الظلال والجبال واللباس ، فقال - تعالى - : والله جعل لكم ما خلق ظلالا ... ، والظلال : جمع ظل ، وهو ما يستظل به الإنسان .

أى : والله - تعالى - بفضله وكرمه جعل لكم ما تستظلون به من شدة الحر والبرد ، كالأبنية والأشجار ، وغير ذلك من الأشياء التي تستظلون بها . وقوله - تعالى - وجعل لكم من الجبال أكفانا ... ، نعمة ثانية .

والأكفان جمع كف - بكسر الكاف - وأصله السترة ، والجمع أكفان وأكنة ، ومنه قوله - تعالى - . . وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه . . . أى في أستار وأغطية فلا يصل إليها قولك ...

والمراد بالأكفان هنا : المغارات والأصراب والكهوف المنحوتة في بطون الجبال .

أى : وجعل لكم - سبحانه - من الجبال مواضع تستترون فيها من الحر أو البرد أو المطر ، أو غير ذلك من وجوه انتفاعكم بتلك الأكفان .

وقوله - سبحانه - وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم ، نعمة ثالثة .

والسراويل : جمع سراويل وهى كل ما يتسربل به ، أى يلبسه الناس للتستر والوقاية كالقمصان والثياب والدروع وغيرها .

أى : وجعل لكم من فضله وكرمه ملابس تنقون بها ضرر الحر وضرر البرد ، وملابس أخرى هى الدروع وما يشبهها - تنقون بها الضربات والطعنات التى تسدد لإيكم فى حالة الحرب .

وقال - سبحانه - : تقيكم الحر ، مع أنها تقي من الحر والبرد ، أكتفاء بذكر أحد الضدين عن الآخر ، أو أكتفى بذكر الحر لأنه الأهم عندهم ، إذ من المعروف أن بلاد العرب يغلب عليها الحر لا البرد .

قال صاحب الكشف : لم يذكر البرد ، لأن الوقاية من الحر أهم عندهم ، وقلما يهمهم البرد لسكونه يسيرا محتملا ، وقيل : مابقى من الحريق من البرد ، فدل ذكر الحر على البرد (١) .

وقال القرطبي : قال العلماء : فى قوله - تعالى - : وسراويل تقيكم بأسكم ، دليل على اتخاذ الناس عدة الجهاد ليستعينوا بها على قتال الأعداء . وقد لبسها النبى - صلى الله عليه وسلم - فى حروبه ... ، (٢) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : : كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ، أى : كذلك الإتمام السابغ للنعم التى أنعم بها - سبحانه - على عباده يتم نعمته عليكم المتمثلة فى نعم الدين والدنيا ، لعلكم بذلك تسلمون وجوهكم لله - عز وجل - ، وتدخلون فى دين الإسلام عن اختيار واقتناع ، فإن من شاهد كل هذه النعم ، لم يسعه إلا الدخول فى الدين الحق .

ثم صلى الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - عما أحياه بن أعدائه فقال :
« فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين » .

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ١٣٦

(٢) « القرطبي ج ١٠ ص ١٦٠ »

وجواب الشرط محذوف ، والتقدير : فإن استمر هؤلاء المشركون في إعراضهم عن دعوتك ، بعد هذا البيان والامتنان ، فز لوم عليك ، فأنت عليك البلاغ الواضح ونحن علينا محاسبتهم ، ومعاقبتهم بما يستحقون من عقاب . قوله - سبحانه - : « يعرفون نعم الله ثم ينكرونها وأكثرتهم الكافرون » استئناف مسوق لبيان الموقف الجحودي الذي وقفه المشركون من نعم الله - تعالى - . والمراد بالكفر في قوله - تعالى - « وأكثرتهم الكافرون » السر لنعم الله عن معرفتها ، وعمطها عن تعمد وإصرار .

أى : أن هؤلاء المشركين ، يعرفون نعم الله التي عددها في هذه السورة ، كما أنهم يعترفون بأن خالقهم وخالق السموات والأرض هو الله ، ولكنهم ينكرون هذه النعم بأفعالهم القبيحة ، وأفعالهم الباطلة ، كقولهم هذه النعم من الله ولكننا بشفاعتنا آلهتنا الأصنام ، أو كقولهم : هذه النعم ورثناها عن آباءنا . وجاء التعبير « بئس » لاستبعاد الإنكار بعد المعرفة بالنعم ، فإن من شأن العالم بالنعمه أن يؤدي الشكر لمسديها ، وأن يستعملها فيما خلقت له .

وقوله « وأكثرتهم الكافرون » ، أى : وأكثر هؤلاء الضالين ، جاحدون لنعم الله عن علم بها لا عن جهل ، وعن قد كر لا عن نسيان . وشبه بهذه الجملة قوله - تعالى - : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » .

قال صاحب فتح البيان : وعبر هنا بالأكثر في قوله - تعالى - « وأكثرتهم الكافرون » ، والمراد الكل ، لأنه قد يذكر الأكثر ويراد به الجميع ، أو أراد بالأكثر المغلاء دون الأطفال والحوهم ، أو أراد كفر الجحود ، ولم يكن كفر كلهم كذلك ، بل كان كفر أغلبهم عن جهل ، وكفر أكثرهم بسبب تكذيبهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - عفاذا أو حسداً ... ، (١) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقَتْ لنا ألواناً من نعم الله - تعالى - على عباده ، وأدلة متعددة على وحدانيته وقادريته ، وجانبها من موقف الكافرين من هذه النعم . .

ثم تحدثت السورة الكريمة بعد ذلك عن حال الظالمين يوم القيامة وعن الأقوال التي يقولونها عندما يرون أصنامهم في هذا اليوم العصيب . .

قال تعالى - :

« وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يَخَفُّ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ ، فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَالْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) » .

قال الإمام الرازي : اعلم أنه - تعالى - لما بين من حال القوم ، أنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها ، وذكر - أيضاً - من حالهم أن أكثرهم الكافرون أتبعه بالوعيد ، فذكر حال يوم القيامة . فقال :

« ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ... » وذلك يدل على أن أولئك الشهداء يشهدون عليهم بذلك الإنكار ، وبذلك الكفر . والمراد بهؤلاء الشهداء :

الأنبياء ، كما قال - تعالى - : فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ، (١)

والمعنى : واذكر - أيها العاقل لتعبر وتنعظ - يوم نبعث في كل أمة ، أى : جماعة من الناس ، شهداء ، يشهد للمؤمن بالإيمان ويشهد على الكافر بالكفر . قال ابن عباس شهيد كل أمة نبيها يشهد لهم بالإيمان والتصديق ، وعليهم بالكفر والتكذيب .

وقوله : ثم لا يؤذن للذين كفروا ، بيان المصير السىء الذى ينتظر هؤلاء الكافرين يوم القيامة .

أى : ثم لا يؤذن للذين كفروا يوم القيامة فى الاعتذار ، عما كانوا عليه فى الدنيا من عقائد زائفة ، وأقوال باطلة ، وأفعال قبيحة ، كما قال تعالى - فى سورة أخرى : وهذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، (٢)

أو المعنى : ثم لا يؤذن لهم فى الرجوع إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم من عقائد سليمة وأعمال صالحة ، لأنهم قد تركوها ولا عودة لهم إليها .

أى : ثم لا يؤذن لهم فى الكلام ، بعد أن نبت بطلانه ، وقامت عليهم الحجة والتعبر بئس للاشعار بأن مصيبتهم بسبب عدم قبول أذارهم ، أشد من مصيبتهم بسبب شهادة الأنبياء عليهم ..

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما معنى : ثم ، ها ه ؟

قلت : معناها أنهم يبتلون بعد شهادة الأنبياء بما دو أطم منها ، وهو أنهم يمنعون الكلام ، فلا يؤذن لهم فى إلقاء معدرة ولا إدلاء بحجة (٣)

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ٢٤٢

(٢) سورة المرسلات الآيتان ٣٦ ، ٣٧

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٢٦

وقرله - سبحانه - ، ولا هم يستعتبون ، تبيس لهم في الحصول على شئ . من رحمة الله - تعالى -

أى : لا يؤذن لهم في الاعتذار ، ولا يقبل منهم أن يذبلوا عتب ربهم ، أى : غضبه وسخطه عليهم ، لأن العقاب إنما يطلب لأجل معاودة الرضا من العاتب ، وهؤلاء قد انسد عليهم هذا الطريق ، لأن الله - تعالى - قد سخط عليهم سخطا لا يحال لإزالته ، بعد أن أصروا على كفرهم في الدنيا وماتوا على ذلك .

قال القرطبي : قوله ، ولا هم يستعتبون ، أى لا يكافون أن يرضوا ربهم لأن الآخرة لبست بدار تكليف ، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون . وأصل الكلمة من العتب - بفتح العين وسكون التاء - وهى الموجدة ، يقال : عتب عليه يعتب ، إذا وجد عليه ، فإذا فاوضه فيما عتب عليه فيه ، قيل : عاتبه ، فإذا رجع إلى ، سرتك فقد أعتب . والاسم العتبي ، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب .

قال النابغة :

فإن كنت مظلوما فعبدنا ظلمتَه وإن كنت ذا عتَبٍ فمهلك يُعتَبُ (١)
وبذلك نرى الآية السكرية قد نفت عن الدين كفروا قبول أعذارهم ، وقبول محاولاتهم إرضاء ربهم عما كانوا عليه من كفر وزيغ في الدنيا .

ثم نبى - سبحانه - عنهم - أيضا - تخفيف العذاب أو تأخيرها فقال : وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون .

أى : وإذا أبصر الذين ظلموا العذاب الذى أعد لهم في الآخرة بسبب ظلمهم وكفرهم في الدنيا ، فزعوا وخافوا ، ولكن خوفهم وفزعهم لن يغير

من الأمر شيئاً ، إذ لا يخفف عنهم العذاب بسبب خوفهم أو فرعهم . ولا هم يهلون أو يؤخرون عنه .

وعلق سبحانه - الرؤية بالعذاب ، للاشعار بأن فجيعتهم الكبرى كانت عند إبصاره ومشاهدته .

ثم حكى - سبحانه - بعض ما يدور بينهم وبين معبوداتهم الباطلة يوم القيامة ، فقال - تعالى - : « وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ، قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك ... » .

قال القرطبي : قوله - تعالى - « وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ، أى : أصنامهم وأوثانهم التى عبدوها ، وذلك أن الله يبعث معبودهم فيتعبدونهم حتى يوردوهم النار . وفى صحيح مسلم : « من كان يعبد شيئاً فليتعبد به ، فيتعبد من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتعبد من كان يعبد القمر القمر ، ويتعبد من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ... » (١) .

وقال الألوسي : والمراد بشركائهم : كل من اتخذوه شريكاً له - عز وجل - من صنم ، ووثن ، وشيطان ، وآدمى ، وملك ... وإضافتهم إلى ضمير المشركين لهذا الانخاذ : - أى لانخاذهم إياهم شركاء لله فى العبادة - أو لأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم وأنعامهم . » (٢) .

أى : وإذا أبصر المشركون يوم القيامة شركاءهم الذين أشركوهم مع الله - تعالى - فى العبادة ، قالوا ، أى المشركون على سبيل التحسر والتفجع ياربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا فى الدنيا نعبدهم من دونك ، ونتقرب بهم إليك ، فلا تجعل ياربنا العذاب علينا وحدنا بل خففه أو أرفعه عنا فهؤلاء الشركاء هم الذين أضلونا .

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٦٣ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٤ ص ٢٠٨ - بتصرف وتلخيص - .

قال أبو مسلم : ومقصود المشركين بهذا القول - إحالة الذنب على تلك الأصنام تعالاً بذلك واستراحاً ، مع كونهم يعللون أن العذاب واقع بهم لأحاله ، ولكن الغريق يتعلق بكل ما تقع يده عليه ، (١) .

وقوله - تعالى - : **فألقوا إليهم القول إنكم لسكرانون ، حكاية لما رده**
الشركاء على المشركين .

أبى : فرد أولئك الشر كاء من الأصنام وغيرها على المشركين بقولهم : **إنكم لسكرانون - أيها المشركون - في إحالةكم الذنب علينا ، فإننا مادعوناكم لعبادتنا ، ولا أجبرناكم على الإشرارك بالله - تعالى - ، ولكنكم أقم الذين اخترتم هذا الطريق المم - ج ، تقليداً لآبائكم ، واستجابة لأهوائكم وشهواتكم ، وإثارة للباطل على الحق وماردبه الشر كاء على المشركين هنا . قد جاء ما يشبهه في آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : **وانخذوا من دون الله آلهة ليسكونوا لهم عزا - كلا سيمكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ، (٢) .****

وقوله - تعالى - : **وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم : وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، (٣) .**

قال القرطبي : وقوله - تعالى - **فألقوا إليهم القول ... ، أبى : ألقت إليهم الآلهة القول ، أبى : نطقت بتكذيب من عبدها . بأنها لم تكن آلهة ، ولا أمرتهم بعبادتها ، فينطق الله الأصنام حتى تظهر عنمد ذلك فضيحة الكفار ، (٤) .**

(١) تفسير فتح البيان - ٥ ص ٢٨٤ للشيخ صدوق حسن خان .

(٢) سورة مريم الآيات ٨٣ ، ٨٤ .

(٣) سورة إبراهيم الآية ٢٢ .

(٤) تفسير القرطبي - ١٠ ص ١٦٣ .

وقال الجبل : فإن قلت : كيف أثبت للأصنام نطقا هنا ، ونفاه عنها في قوله - تعالى - في سورة الكهف : « ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم قدعوهم فلم يستجيبوا لهم ... » ،

فالجواب : أن المثبت لهم هنا النطق بكذب المشركين في دعوى عبادتهم لها ، والمنقضى عنهم في الكهف النطق بالإجابة إلى الشفاعة لهم ودفع العذاب عنهم فلا تماق ، (١) .

والتمهيد بقوله - تعالى - « فآلقوا ليلهم القول ... » يشعر بأن الشركاء قد ردوا على المشركين قولهم بسرعة وبدون إبطاء . حيث أتى - سبحانه - بالفاء في قوله « فآلقوا » ، واشتملت جملة « لأنكم لسكاذبون » ، على جملة من المؤكدات ، لإلخام المشركين ، وتكذيبهم في قولهم تكديبا قاطعا لا يحتمل التأويل .

ولذا وجدنا المشركين يعجزون عن الرد على شركائهم ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك : « وآلقوا إلى الله يومئذ السلم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون » .

أى : وألقى المشركون يوم القيامة « السلم » أى : الاستسلام والخضوع والانقياد ، لقضاء الله - تعالى - العادل فيهم ، وغاب وذهب عنهم ما كانوا يفترونه ويزعمونه في الدنيا من أن آلهتهم متشفعون لهم ، أو مستنفعونهم يوم القيامة . وقيل : إن الضمير في قوله - تعالى - « وآلقوا » يعود على المشركين وشركائهم . أى . استسلم العابدون والمعبودون وانقادوا لحكم الله الواحد القهار فيهم .

ثم بين - سبحانه - مصير الذين لم يكتبوا بالكفر . بل ضموا إليه رذائل

(١) حاشية الجبل على الجلالين ح ٢ ص ٥٩٢ .

أخرى فقال - تعالى - : « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون ، أى : الذين لم يكتفوا بكفرهم ، بل أضفوا إلى ذلك أنهم ، صدوا ، غيرهم ومنعوه عن سبيل الله ، أى : عن اتباع الصراط المستقيم ، والطريق القويم وهو طريق الإسلام ... »

هؤلاء الأشقياء الذين فعلوا ذلك : « زدناهم عذابا ، شديدا ، فوق العذاب ، الذى يستحقونه » بما كانوا يفسدون ، : أى : بسبب فسادهم فى الأرض وكفرهم بالحق ، وصددهم الناس عن اتباعه .

وهذه الزيادة فى عذابهم ، وردت آثار عن بعض الصحابة فى بيانها ، ومن ذلك ما روى عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال : « زدوا عقارب لها أنياب كالنخل الطوال ينهشونهم فى جهنم » (١) .

قال ابن كثير : وهذا دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم ، (٢) .

ثم أكد - سبحانه - أمر البعث ، وأنه آت لا ريب فيه ، فقال - تعالى - : « ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم ... »

والمراد بالشهيد هنا : كل نبي بعثه الله - تعالى - لأمة من الأمم السابقة كنوح ، وإبراهيم ، وموسى وعيسى ، وغيرهم من الأنبياء السابقين - عليهم الصلاة والسلام - .

والظرف « يوم » متعلق بمحذوف تقديره : اذكر .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل لتتعظ وتعتبر - يوم القيامة ، يوم نبعث فى كل أمة من الأمم السابقة ، نبيا الذى أرسل إليها فى الدنيا ، ليشهد عليها الشهادة الحق ، بأن يشهد لمؤمنها بالإيمان ، وللكافر بها بالكفر .

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ، ص ١٠٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٨١ .

وقوله - سبحانه - د من أنفسهم ، أى : من جنسهم وبشرتهم ، ليكون أتم للججعة ، وأقطع للمعذرة ، وأدعى إلى العدالة والإنصاف .

قال الألوسى : ولا يرد لوط - عليه السلام - فإنه لما تأهل فيهم وسكن معهم عد منهم - أيضا - .

وقال ابن عطية : يجوز أن يبعث الله شهداء من الصالحين مع الأنبياء - عليهم السلام - .

وقد قال بعض الصحابة : إذا رأيت أحدا على معصية فانه فإن أطاعك وإلا كنت شهيدا عليه يوم القيامة ، (١) .

وقوله - سبحانه - د وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ، خطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - على التشريف والتكريم .

والمراد بهم هؤلاء : أمته - صلى الله عليه وسلم - .

أى : وجئنا بك - أيها الرسول الكريم - يوم القيامة شهيدا على هؤلاء الذين أرسلك الله - تعالى - لإخراجهم من الظلمات إلى النور .

وإشارة لفظ المجئى - على البعث ، لسكال العناية بشأنه - صلى الله عليه وسلم - .

قال ابن كثير قوله د وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ، يعنى أمك . أى اذكر ذلك اليوم وهوله ، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم ، والمقام الرفيع .

وهذه الآية شديدة بالآية التى انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صدر سورة النساء ، فلما وصل إلى قوله تعالى -

د فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - د حسبك . فقال ابن مسعود : فالتفت

فإذا عيناه - صلى الله عليه وسلم - فترقان - أى بالدموع - ... ، (٢) .

(١) تفسير الألوسى ج ١٤ ص ٢١٢

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٨٢

والمراد بشهادته على أمته - صلى الله عليه وسلم - : تصرّحه بأفه قد بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح لأمته ، وتركته لأعمال الصالحين منها ، ورجاؤه من الله - تعالى - في هذا اليوم العصيب أن يغفر للعصاة من هذه الأمة . ويرى بعضهم أن المراد بهؤلاء في قوله ، وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ، : أى : على الأنبياء السابقين وأممهم .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من معنى الجملة الكريمة ، ولأن آية سورة النساء ، فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، تؤيده .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان ما أنزله عليه من وحى فيه الشفاء للصدور ، والموعظة للنفوس فقال - تعالى - : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين .

والتيان : مصدر يدل على التكثير . قالوا : ولم يحىء من المصادر على هذه الزنة إلا لفظان لفظ التبيان ، ولفظ التلقاء .

أى : « ونزلنا عليك » - أيها الرسول الكريم - « الكتاب » الكامل الجامع وهو القرآن الكريم « تبيانا » .

أى : بيانا بليغا شاملا لكل شيء ، على سبيل الإجمال تارة ، وعلى سبيل التفصيل تارة أخرى .

وقوله « وهدى ورحمة وبشرى المؤمنين » صفات أخرى للكتاب .

أى : أنزلنا عليك القرآن ليكون تبيانا لكل شيء ، وليكون هداية للناس إلى طريق الحق والخير ، ورحمة لهم من العذاب ، وبشارة لمن أسلموا وجوههم لله - تعالى - وأحسنوا القول والعمل ، لا لغيرهم ممن آثروا الكفر على الإيمان ، والنفى على الرشد .

قال الجمل ماملخصه : وقوله : « تبياناً لكل شيء » ، أى بياناً بليغاً ، فالتبيان أنخص من مطلق البيان على القاعدة أن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى .

وهذا التبيان إما فى نفس الكتاب ، أو بإحالاته على السنة لقوله - تعالى - « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، أو بإحالاته على الإجماع كما قال - تعالى - « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى . . . » ، أو على القياس كما قال : فاعتبروا يا أولي الأبصار ، والاعتبار النظر والاستدلال اللذان يحصل بهما القياس .

فهذه أربعة طرق لا يخرج شيء من أحكام الشريعة عنها ، وكلها مذكورة فى القرآن ، فكان تبياناً لكل شيء . فاندفع ما قيل : كيف قال الله - تعالى - « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » ، ونحن نجد كثيراً من أحكام الشريعة لم يعلم من القرآن نصاً ، كعدد ركعات الصلاة ، ومقدار حد الشرب ، ونصاب السرقة وغير ذلك ... (١) .

• • •

وبعد أن مدح - سبحانه - القرآن الكريم ، بأن فيه تبيان كل شيء ، وأنه هداية ورحمة وبشرى للمسلمين ، أتبع ذلك بآيات كريمة أمرت المسلمين بأبهاة الفضائل ، وبجمال مكارم الأخلاق ، ونهتهم عن الفواحش والردائل لتكون كالدليل على ما فى هذا الكتاب من تبيان وهدى ورحمة فقال - تعالى - :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ

الله إِذَا عَاهَدْتُمْ ، وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي تَقْضَتْ غَزَايَا مِنْ بَيْدِ نَوْمٍ أُنْكَأَتْ ، تَخَذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ، أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ، إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ، وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَكِنْ لِيُضِلَّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ ، وَلِتُسَأَلَنَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) .

قال القرطبي ماملخصه : قوله - تعالى - : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » أختلف العلماء في تأويل العدل والإحسان ، فقال ابن عباس : العدل : لا إله إلا الله ، والإحسان : أداء الفرائض . وقيل العدل : الفرض . والإحسان : النافلة ، وقال علي بن أبي طالب : العدل : الإنصاف . والإحسان : التفضل . وقال ابن العربي : العدل بين العبد وربه : ليثابر حقه - تعالى - على حظ نفسه ، وتقديم رضاه على هواه ، والاجتناب الزواجر والامتناع للأوامر . وأما العدل بينه وبين نفسه فنفعه ما فيه هلاكها . . . وأما العدل بينه وبين غيره فبذل النصيحة ، وترك الحياة فيما قل أو كثير ، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه . . .

وأما الإحسان فهو مصدر أحسن يحسن إحسانا . ويقال على معنيين : أحدهما : متعمد بنفسه ، كقولك : أحسنت كذا ، أي : حسنته وأتقنته وكنيته ، وهو منقول بالهمزة من حسن الشيء . وثانيهما : متعمد بحرف جر ، كقولك : أحسنت إلى فلان ، أي : أوصلت إليه ما ينتفع به . وهو في هذه الآية مراد بالمعنيين معا ، (١) .

ومن هذا الكلام الذى نقلناه بشيء من التلخيص عن الإمام القرطبي ،
يقين لنا أن العدل هو أن يلتزم الإنسان جانب الحق والقسط فى كل أقواله
وأعماله ، وأن الإحسان يشمل لإحسان الشيء فى ذاته سواء أكان هذا الشيء
يتعلق بالعقائد أم بالعبادات أم بغيرهما ، كما يشمل لإحسان المسلم إلى غيره ،

فالإحسان أوسع مدلولاً من العدل ، لأنه إذا كان العدل معناه : أن تعطى
كل ذى حق حقه ، بدون إفراط أو تفريط ، فإن الإحسان يندرج تحته أن
تضيف إلى ذلك العفو عن أخطاء إليك ، والصلة لمن قطعك ، والعطاء لمن
حرمك ...

ولبار صيغة المضارع فى قوله : إن الله يأمر ... ، لإفادة التجدد
والاستمرار . ولم يذكر - سبحانه - متعلقات العدل والإحسان : ليعم الأمر
جميع ما يعدل فيه ، وجميع ما يجب لإحسانه وإتقانه من أقوال وأعمال ، وجميع
ما ينبغي أن تحسن إليه من إنسان أو حيوان أو غيرهما .

وقوله - تعالى - : وإيتاء ذى القربى ، فضيله ثالثة معطوفة على ما قبلها
من عطف الخاص على العام ، إذ هى مندرجة فى العدل والإحسان .

وخصها - سبحانه - بالذكر اهتماماً بأمرها ، وتوحيها بشأنها ، وتعظيماً
لقدرها .

والإيتاء : مصدر بمعنى الإعطاء ، وهو هنا مصدر مضاف لمفعوله .

والمعنى : إن الله - تعالى - يأمركم - أيها المسلمون - أمراً دائماً وواجباً ،
أن تلتزموا الحق والإنصاف فى كل أفعالكم وأفعالكم وأحكامكم ، وأن
تلتزموا القسامح والعفو والمراقبة لله - تعالى - فى كل أحوالكم .

كما يأمركم أن تقدموا الأفكار بكم على سبيل المعاونة والمساعدة ، ما تستطيعون
تقديمه لهم من خير وبر ..

لأن هذه الفضائل متى سرت بينكم ، فلتم المساعدة فى دينكم ودنياكم ،

إذ بالعدل ينال كل صاحب حق حقه ، وبالإحسان يكون التحاب والتواد
والتراحم ، وبصلة الأقارب يكون التكافل والتعاون ...

وبعد أن أمر - سبحانه - بأهيات الفضائل ، نهي عن رذوس الرذائل فقال -
تعالى - : ، ويهي عن الفحشاء والمنكر والبغى ... ،

والفحشاء : كل ما اشتد قبحه من قول أو فعل . وخصها بعضهم بالزنا .
والمنكر : كل ما أنكره الشرع بالنهي عنه ، فيعم جميع المعاصي والرذائل
والذنابات على اختلاف أنواعها .

والبغى : هو تجاوز الحد في كل شيء . يقال : بغى فلان على غيره ، إذا ظلمه
وتطاول عليه .

وأصله من بغى الجرح إذا ترامى إليه الفساد ...

أى : كما أمركم - سبحانه - بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، فإنه
- تعالى - ينهاكم عن كل قبيح وعن كل منكر ، وعن كل تجاوز لما شرعه
الله - عز وجل - ،

وذلك لأن هذه الرذائل ماشعات في أمة إلا وكانت عاقبتها خسرا ،
وأمرها فرطا ، والفطرة البشرية النقية تأبى الوقوع أو الاقتراب من هذه
الرذائل ، لأنها تتنافى مع العقل السليمة ، ومع الطباع القوية .

ومما أروج الذين لم يثبتوا نباتا حسنا لتلك الرذائل ، فإن النفوس
الطاهرة ، تلفظها بعيدا عنها ، كما يلفظ الجسم الأشياء الغريبة التي تصل إليه .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ، يظكم لعلمكم تفكرون ،
أى : ينهسكم - سبحانه - أكل تنبيه وأحكامه إلى ما يصلحكم عن طريق اتباع
ما أمركم به وما نهاكم عنه ، لعلمكم بذلك تحسنون التذكركم ما ينفعكم ، وتعملون
بمقتضى ما علمكم - سبحانه - .

هذا ، وقد ذكر المفسرون في فضل هذه الآية كثير من الآثار والأقوال ،

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ أبو يعلى في كتاب معرفة الصحابة ... قال : بلغ أكرم بن صيفي مخرج النبي - صلى الله عليه وسلم - فأراد أن يأتيه ، فإني قومه أن يدعوهم وقالوا له : أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه . قال : فليأتني من يبلغني عني ويبلغني عنه . فالتفت رجلاً فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالوا له : نحن رسل أكرم بن صيفي وهو يسألك من أنت وما أنت ؟ فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : أنا أنا فحمد بن عبد الله : وأما ما أبا ، فأنا عبد الله ورسوله .

ثم تلا عليهم هذه الآية : **وإن الله يأمر بالعدل والإحسان ... الآية .** فقالوا : رد علينا هذا القول ، فزده عليهم حتى حفظوه ، فأتى أكرم فقالا له : أبى أن يرفع نسبه فسالنا عن نسبه فوجدناه زاكى النسب . . . وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها ، فلما سمعنا أكرم قال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملامتهما ، فيكفون في هذا الأمر رؤوساً ، ولا تنكفونوا فيه أذناناً ، (١) .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : أعظم آية في كتاب الله **« الله لا إله إلا هو الحى القيوم ... »** وأجمع آية في كتاب الله للحير والشر : **« إن الله يأمر بالعدل والإحسان ... »** وأكثر آية في كتاب الله تفويضا : **« ومن يثق الله يجعل له مخرجا وبرزقه من حيث لا يحتسب ... »**

وأشد آية في كتاب الله رجاء : **« يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ... »** (٢)

ثم أمرهم - سبحانه - بالوفاء بالعهد فقال : **« وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ... والعهد : ما من شأنه أن يراعى ويحفظ ، كاليمين والوصية وما يشبههما . »**

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٨٣ .

(٢) تفسير فتح القدير ج ٥ ص ٢٨٩ .

وعهد الله : أو امره ونواهيهِ وتكاليفه الشرعية التي كلف الناس بها ،
والوفاء بعهد الله - تعالى - يتأتى بتنفيذ أوامره وتكاليفه ، واجتناب
ما نهى عنه .

قال القرطبي : قوله - تعالى - : « وأوفوا بعهد الله ... » لفظ عام لجميع
ما يعقد باللسان ، ويلتزمه الإنسان من بيع أو صلة ، أو موافقة في أمر موافق
للديانة .

وهذه الآية مضمن قوله - تعالى - : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان .. »
لأن المعنى فيها : افعلوا كذا ، واتموا عن كذا ، فحطفت على ذلك التقدير .
وقد قيل لأنها نزلت في بيعة النبي - صلى الله عليه وسلم - على الإسلام .
وقيل : نزلت في التزام الحلف الذي كان في الجاهلية ، وجاء الإسلام بالوفاء به
- كحلف الفضول - .

والعموم يتناول كل ذلك ... (١)

والمعنى . إن الله يأمركم - أيها المسلمون - بالعدل والإحسان وإيتاء ذى
القربى . ويأمركم - أيضا - بالوفاء بالعهد التي التزمتم بها مع الله - تعالى -
أو مع الناس ..

وخص - سبحانه - الأمر بالوفاء بالعهد بالذكور - مع أنه داخل
في المأمورات التي اشتملت عليها الآية السابقة كما أشار إلى ذلك القرطبي
في كلامه السابق - لأن الوفاء بالعهود من آكد الحقوق وأوجبها على الإنسان .

والآيات التي وردت في وجوب الوفاء بالعهود كثيرة ومن ذلك قوله
- تعالى - : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » (٢) .

وقوله - تعالى - : « وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون » (٣)

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٦٩ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٣٤ .

(٣) سورة البقرة الآية ٤٠ .

ومن الأحاديث التي وردت في ذلك ما رواه الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أئتمن خان، (١).

وقوله - سبحانه - : « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ... » تأكيد الأمر بالوفاء، وتحذير من الخيانة والغدر:

والنقض في اللغة: حقيقة في فسخ ماركب بفعل يعاكس للفعل الذي كان به التركيب. واستعمل هنا على سبيل المجاز في إبطال العهد.

والأيمان: جمع يمين. وتطلق بمعنى الخلف وانقسم. وأصل ذلك أن العرب كانوا إذا أرادوا توثيق عهودهم بالقسم يسمونه، ووضع كل واحد من المتعاهدين يمينه في يمين صاحبه.

أى: كونوا أوفياء بهم وودكم، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها، أى: بعد توثيقها وتغليظها عن طريق تكرارها بمرة ومرتين، أو عن طريق الإتيان فيها ببعض أسماء الله - تعالى - وصفاته.

وقوله - تعالى - « بعد توكيدها » للإشارة بأن نقض الأيمان وإن كان قبيحا في كل حالة، فهو في حالة توكيد الأيمان وتغليظها أشد قبيحا.

ولذا قال بعض العلماء: وهذا القيد لموافق الواقع، حيث كانوا يؤكدون أيمانهم في المعاهدة، وحينئذ فلا مفروم له، فلا يختص النهى عن النقض بحالة التوكيد، بل نقض اليمين منهى عنه مطلقا. أو يراد بالتوكيد القصد، ويكون احترازا عن لغو اليمين. وهى الصادرة عن غير قصد للحلف، (٢).

وقال الإمام ابن كثير ماملخصه: ولا تعارض بين هذه الآية، وبين قوله - صلى الله عليه وسلم - فيما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: « إني والله إن

(١) رياض الصالحين الإمام النووي ص ٣٠٢.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ص ٣٠٤.

شاء الله لا أحلب على يمين فأرى غيرها خيرا منها ، إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها . - وفي رواية - وكفرت عن يميني ، لأن هذه الأيمان المراد بها في الآية : ، الداخلة في اليهود والمواثيق ، لا الأيمان التي هي واردة في حث أو منع ... (١)

والخلاصة ، أن الآية الكريمة تنهى المؤمن عن نقض الأيمان نهيا عاما ، إلا أن السنة النبوية الصحيحة قد خصصت هذا التعميم بإباحة نقض اليمين إذا كانت مانعة من فعل خير ، ويؤيد هذا التخصيص قوله - تعالى - : ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس . . . (٢)

وجملة : وقد جعلتم الله عليكم كفيلا . . . ، حال من فاعل : تنقضوا ، ، وهي مؤكدة لمضمون ما قبلها من وجوب الوفاء بالعهود ، والنهي عن نقضها . والكفيل : من يكفل غيره ، أى : يضمه في أداء ما عليه .

أى : ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، والحال أنكم قد جعلتم الله - تعالى - ضامنا لكم فيما التزمتم به من عهود ، وشاهدنا ورقبنا على أقوالكم .

فأجلة انكريمه تحذر المتعاهدين من النقض بعد أن جعلوا الله - تعالى - كفيلا عليهم .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بهذا التهديد الخفي فقال - تعالى - : وإن الله يعلم ما تفعلون . .

أى : إن الله - تعالى - يعلم ما تفعلون من الوفاء أو النقض ، وسيجازيكم بما تستحقون من خير أو شر ، فالمراد من العلم لازمه ، وهو المجازاة على الأعمال .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٨٣ .

(٢) راجع تفسير هذه الآية في تفسيرنا لسورة البقرة ص ٦٥٨ .

ثم ضرب - سبحانه - مثلاً لتقبيح نقض العهد ، فقال - تعالى - :
ولا تسكنوا كالأئى نقضت غزلها من قوة أنكاثا .

وقوله : « غزلها » أى : مغزولها ، فهو مصدر بمعنى المفعول . والفعل منه
غزل يغزل - بكسر الزاى - من باب ضرب . يقال غزلت المرأة الصوف
أو القطن غزلاً .

والجار والمجرور فى قوله « من بعد قوة » متعلق بالفعل « نقضت » ، أى :
نقضته وأفسدته من بعد إبرامه وإحكامه .

و « أنكاثا » ، حال مؤكدة من « غزلها » ، ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً ،
بتضمين الفعل نقضت معنى صيرت أو جعلت .

والأنسكاث : جمع نسكث - بكسر النون - ، بمعنى منكوث أى منقوض .
وهو ما نقض وحل فتله ليغزل ثانياً ، والجمع أنسكث كحمل وأحمال .

يقال : نسكث الرجل العهد نسكثاً - من باب قتل - إذا انقضه وفبذه ، ومنه
قوله - تعالى - « ومن نسكث فإنما ينكث على نفسه » .

قال ابن كثير : هذه امرأة خرقاء كانت بمكة ، كلما غزلت شيئاً نقضته
بعد إبرامه .

وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده .
وهذا أرجح وأظهر سواء أكان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا ، (١)

والمعنى : كونوا - أيها المسلمون - أوفياء بعهودكم ، ولا تنقضوها بعد
إبرامها ، فإنكم إن نقضتموها كان مثلكم كمثل تلك المرأة الخرقاء ، التى كانت
تفتل غزلها فتلاً محكماً ، ثم تنقضه بعد ذلك ، وتركه مرة أخرى قطعاً
منكوثاً محلولة ..

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٨٤ .

فالجلمة السكرية تحقر في كل جزئية من جزئياتها ، حال من يفتض العهد ،
وتشبهه على سبيل التفسير والتقييح بحال امرأة ملثانة في عقلها ، مضطربة في
تصرفاتها ...

وقوله - سبحانه - : تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم . أن تكون أمة هي
أربي من أمة ... ،

إبطال للأسباب التي كان يتخذها بعض الناس ذرائع ومبررات لنقض
العهد .

والدخل - بفتح الخاء - : المسكر والفش والخديعة : وهو في الأصل
اسم للشيء الذي يدخل في غيره وليس منه ... ،

قال الراغب : والدخل كناية عن الفساد والعداوة المستبطنه ، كالدخل ،
وعن الدعوة في الذنب ... ومنه قيل : شجرة مدخولة - أي ليست من جنس
الأشجار إلى حولها ،^(١) وقوله : أن تكون أمة ... ، متعلق بتتخذون .

وقوله : أربي ، مأخوذ من الربو بمعنى الزيادة والكثرة . يقال : ربي الشيء
يربو إذا زاد وكثر .

والمعنى : لا تكونوا مشبهين لامرأة هذا شأنها ، حالة كوفكم متخذين
أيمانكم وأفسامكم وسيلة للغدر والخيانة ، من أجل أن هناك ، جماعة أوفر
عددا وأكثر مالا من جماعة أخرى .

قال القرطبي : قال المفسرون : نزلت هذه الآية في العرب الذين كانت القبيلة
منهم إذا حالفت أخرى ، ثم جاءت إحداها قبيلة أخرى كبيرة قوية فداخلتها
غدرت الأولى ونقضت عهدها ، ورجعت إلى هذه الكبرى ، فقال - تعالى - :
لا تنقضوا العهد من أجل أن طائفة أكثر من طائفة أخرى ، أو أكثر أموالا ...

وقال الفراء : المعنى : لا تغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم ، أولفتكم وأنشئتمهم وقد عزز تمومهم بالإيمان ، (١)

وقال ابن كثير : قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء ، فيجدون أكثر منهم وأعز ، فيلقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز فنهوا عن ذلك ، (٢) .

والخلاصة ، أن الآية الكريمة تدعو إلى وجوب الوفاء بالعهود في جميع الأحوال ، وتنتهى عن اللجوء إلى الذرائع الباطلة ، من أجل نقض العهود ، إذ الإسلام لا يقر هذه الذرائع وتلك المبررات ، بدعوى أن هناك جماعة أقوى من جماعة ، أو دولة أعز من دولة ، وإنما الذى يقره الإسلام هو مراعاة الوفاء بالعهود ، وعدم اتخاذ الإيمان وسيلة للغش والخداع .

والضمير المجزور في قوله : إنما ييلوكم الله به ، يعود على مضمون الجملة المتقدمة وهى قوله - تعالى - : أن تكون أمة هى أربى من أمة ،

أى : إنما ييلوكم الله ويختبركم بكون أمة أربى من أمة ، لينظر أنفون بعهودكم أم لا . وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشف بقوله : إنما ييلوكم الله به ، الضمير لقوله : أن تكون أمة ... ، لأنه فى معنى المصدر . أى : إنما يختبركم بكونهم أربى ، لينظر أتمسكون بحبل الوفاء بهدى الله ، وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من إيمان البيعة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أم تفترون بكثرة قریش وثروتهم وقوتهم . وقلة المؤمنين وفقركم وضعفهم ، (٣) .

ويجوز أن يعود إلى ما أمر الله به من الوفاء بالعهد : فيسكون المعنى :

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٧١ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٨٤ .

(٣) تفسير الكشف ج ٢ ص ٦٢١ .

لأنما يلوكم الله ويختبركم بما أكرمكم به من الوفاء بالعهود ، ومن النهى عن القصد ليظلم . لكم المطيع من العاص ، وقوى الإيمان من ضعيفه .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان أن مرد الفصل بين العباد : فيما اختلفوا فيه إليه - تعالى - وحده ، فقال : « ولبيد لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون » ، يجازى أهل الحق بما يستحقون من ثواب ، ويجازى أهل الباطل بما هم أهل من عقاب .

ثم بين - سبحانه - أن قدرته لا يعجزها شيء ، فقال - تعالى - « ولو شاء الله لجعلكم أئمة الناس » أمة واحدة ، متفقة على الحق ، ولكن ، لحكم يعلمها ولا تملونها ، ولأنه وضعها في خلقه ، يضل من يشاء ، لإضلاله لاستجابته العمى على الهدى ، وإيثاره الغي على الرشد ، ويهدي من يشاء ، هدايته لحسن استعداده ، وسلامة اختياره ، ونفيه النفس عن الهوى .

« ولتسألن » أيها الناس يوم القيامة سؤال محاسبة ومجازاة ، عما كنتم تعملون ، في الدنيا ، فيثيب الظالمين بفضله ، ويماقب العصاة بعدله .

وبعد أن أمر - سبحانه - بالوفاء بالعهود ونهى عن نقضها بصفة عامة ، أتبع ذلك النهي عن الخنث في الإيمان بصفة خاصة ، فقال - تعالى :

« وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ، فَزَلَّ قَدَمُ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ، وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ، وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) » .

وقوله - سبحانه - « وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ » ، تصريح بالنهي

عن اتخاذ الأيمان من أجل الغش والخديعة ، بعد التنبؤ عن نقض اليهود بصفة عامة .

أى : ولا تتخذوا - أيها المؤمنون - الحلف بالله - تعالى - ذريعة إلى غش الناس وخداعهم واستلاب حقوقهم ، فقد جرت عادة الناس أن يطمئنون إلى صدق من يقسم بالله - تعالى - ، فلا تجعلوا هذا الاطمئنان وسيلة للكذب عليهم ، ولإفساد ما بينكم وبينهم من مودة .

ثم رتب - سبحانه - على هذا التنبؤ ما من شأنه أن يردع النفوس عن اتخاذ الأيمان دخلاً فقال : « فنزل قدم بعد ثبوتها ، وأصل الزلل الخروج عن الطريق السليم . يقال : زل فلان يزل زللاً وزلولا ، إذا دحضت قدمه ولم نصب موضعها الصحيح أى : لا تتخذوا أيمانكم وسيلة للخديعة والإفساد بين الناس ، فنزل أقدامكم عن طريق الإسلام بعد ثبوتها عليها ، ورسوخها فيها ، قالوا : والجملة السكرية مثل يضرب لسكل من وقع في بلية ومحنة ، بعد أن كان في عافية ونعمة .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : لم وجدت القدم ونكرت ؟ قلت : لاستعظام أن نزل قدم واحدة عن طريق الحق . بعد أن ثبتت عليه ، فكيف بأقدام كثير (١) ؟

وقوله ، وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ، يبان لما يصيبهم من عذاب دنيوى بسبب اتخاذ أيمانهم دخلاً بينهم -

أى : وتذوقوا السوء وهو العذاب الدنيوى من المصائب والخوف والجوع ، بسبب صدوركم وإعراضكم عن أوامر الله ونواهيه ، أو بسبب صدكم لغيركم عن الدخول في دين الله ، حيث رأى منكم ما يجعله ينفر منكم ومن دينكم .

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٤٢٧

والتعبير بذوقوا فيه إشارة إلى أن العذاب الدنيوى الذى سينزل بهم بسبب اتخاذهم إيمانهم دخلا بينهم ، سيكون عذابا شديدا يحسون آلامه إحساسا واضحا ، كما يحس الشارب للشيء المر مرارته ، ويتذوق آلامه .

قال ابن كثير : حذر الله - تعالى - عباده عن اتخاذ الإيمان دخلا ، أى : خديعة ومكرا ، لئلا تزل قدم بعد ثبوتها ، مثل لمن كان على الاستقامة وحاد عنها ، وزل عن طريق الهدى ، بسبب الإيمان الخائفة ، المشتعلة على الصد عن سبيل الله ، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به ، لم يبق له وثوق بالدين ، فاقصد بسببه عن الدخول فى الإسلام^(١) .

وقوله : ولكم عذاب عظيم ، بيان لما يصيبهم من عذاب أخروى بسبب اتخاذهم إيمانهم دخلا .

أى : ولكم فى الآخرة عذاب عظيم ، لا يعلم مقدار شدته وهوله إلا الله - عز وجل - . فأنت ترى أن الآية الكريمة قد رتبت على اتخاذ الإيمان دخلا ، انقلاب حالة الإنسان من الخير إلى الشر ، ونزول العذاب الدنيوى والأخروى به .

ثم هاهم - سبحانه - عن أن يبيعوا دينهم بدنياهم ، فقال - تعالى - : ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا .

والاشتراء هنا : استعارة للاستبدال ، والذى استبدل به الثمن القليل هو الوفاء بعهد الله .

والمراد بعهد الله - تعالى - : أوامره ونواهيه التى كلفنا بالزما والعمل بمقتضاها .

والمراد بالثمن القليل : حظوظ الدنيا وشهواتها وزينتها من الآل والوال وغيرها .

والمعنى : ولا تستبدلوا بأوامر الله - تعالى - وفواهيه ، عرضا قليلا من أعراض الدنيا الزائلة ، بأن تنقصوا جهودكم في مقابل منفعة دنيوية زائلة .

وليس وصف الثمن بالقلة في قوله « ثمننا قليلا » من الأوصاف المخصصة للنكرات ، بل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل في مقابل عدم الوفاء بالعهد ؛ إذ لا يكون إلا قليلا وإن بلغ ما بلغ من أعراض الدنيا بجانب رضا الله - تعالى - .

ورحم الله الإمام ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره هذه الآية الكريمة : « ولا تشتروا بعهد الله ثمننا قليلا » أى : لا تعترضوا عن الإيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها ، فإنها قليلة ، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بخلافها لكان ما عند الله هو خيرا له (١) .

ثم رغبهم - سبحانه - فيما عنده فقال : « إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون » .

أى : إن ما ادخره الله - تعالى - لكم من ثواب عظيم ، وأجر جزيل ، وحياة طيبة ، هو خير لكم من ذلك الثمن القليل الذى تتطلعون إليه ، وتنفقون الجهود من أجله ، إن كنتم من أهل العلم والاطمئنة ، الذين يؤثرون الباقى على الفانى .

قال الألوسى : قوله « إن كنتم تعلمون » أى : إن كنتم من أهل العلم والتمييز - فالتعلم منزل منزلة اللازم . وقيل : متعمد ، والمفعول محذوف ، وهو فضل ما بين العوضين ، والأول أبلغ ومستغن عن التقدير ، (٢) .

ثم أضاف - سبحانه - إلى ترغيبهم فى العمل بما يرضيه ترغيبا آخر فقال : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٨٥

(٢) تفسير الألوسى ج ٤ ص ٢٢٤

أى : ما عندكم من متاع الدنيا وزهرتها يفنى وينقضى ويذول ، وما عند الله - تعالى - فى الآخرة من عطاء باق لا يفنى ولا يزول ، فأثروا ما يبقى على ما ينفد يقال : نفذ الشيء - بكسر الفاء - ينفد - بفتحها - نفاداً ونفوداً ، إذا ذهب وفنى .

ثم بشر - سبحانه - الصابرين على طاعته بأعظم البشارات فقال : « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .
أى : ولنجزين الذين صبروا على طاعتنا ، واجتنبوا معصيتنا ، ووفوا بعهودنا ، بجزاء أفضل وأكرم مما كانوا يعملونه فى الدنيا من خيرات وطاعات .

وأكد - سبحانه - هذه البشارة بلام القسم ، ونون التوكيد ، لترغيبهم فى العبات على فضيلة الصبر ، وعنى الوفاء بالعهود .

قال الجمل ماملخصه : وقوله « أجرهم » مفعول ثان لنجزى . وقوله « بأحسن » نعت لمخدوف ، أى : بجزاء أحسن من عملهم الذى كانوا يعملونه فى الدنيا ، والباء بمعنى على (١) .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين الذين يحرصون على العمل الصالح فقال - تعالى - : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلننجينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

أى : من عمل عملاً صالحاً ، بأن يكون خالصاً لوجه الله - تعالى - وموافقاً لما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - سواء أكان هذا العامل المؤمن ذكراً أو أنثى : فلننجينه حياة طيبة ، يظفر معها بصلاح البال ، وسعادة الحال .

وقال - سبحانه - « من ذكر أو أنثى » مع أن لفظ « من » فى قوله « من عمل » يتناول الذكور والإناث ، للتخصيص على النوعين ، حتى يكون أغبط لهما ، ولدفع ما قد يتوهم من أن الخطاب للذكور وحدهم .

ولذا قال صاحب الكشف : فإن قلت : من ، متناول في نفسه للذكر والأنثى فما معنى تبيينه بهما ؟ قلت : هو مبهم صالح على الإطلاق للنوعين ، إلا أنه إذا ذكر كان الظاهر تناوله للذكور ، فقليل من ذكر أو أنثى ، على التبيين ليعم الموعد النوعين جميعا ، (١) .

وقيد - سبحانه - العامل بكونه ، مؤمنا فقال : وهو مؤمن ، ، لبيان أن العمل لا يكون مقبولا عند الله - تعالى - إلا إذا كان مبنيا على العقيدة الصحيحة ، وكان صاحبه يدين بدين الإسلام ، وقد أوضح القرآن هذا المعنى في آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ، .

والمراد بالحياة الطيبة في قوله - تعالى - : : فلنجزيه حياة طيبة ، الحياة الدنيوية التي يحياها المؤمن إلى أن ينقض أجله .

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ماملخصه : هذا وعد من الله - تعالى - لمن عمل صالحا من ذكر أو أنثى ، بأن يحياه الله حياة طيبة في الدنيا . . والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت . وقد روى عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال . وعن علي بن أبي طالب أنه فسرها بالقناعة .

والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله ، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن ابن عمر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : قد أفلح من أسلم ورزق كافا . وقمعه الله بما آتاه (٢) .

وقيل المراد بالحياة الطيبة هنا : الحياة الآخروية ، وقد صدر الشيخ

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٤٤٧

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٨٥

الآلوسى تفسيره بهذا الرأى فقال ماملخصه : قوله - تعالى - « فلننجينه حياة طيبة » والمراد بالحياة الطيبة التى تكون فى الجنة . إذ هناك حياة بلا موت ، وغنى بلا فقر ، وصحة بلا سقم ، وسعادة بلا شقاوة . . . فمن الحسن : لا تطيب الحياة لأحد إلا فى الجنة .

وقال شريك : هى حياة تكون فى البرزخ . . وقال غير واحد هى فى الدنيا ، (١) .

ويبدو لنا أن تفسير الحياة الطيبة هنا بأنها الحياة الدنيوية أرجح ، لأن الحياة الآخروية جاء التصريح بها بعد ذلك فى قوله - تعالى - « ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

فلو فسرنا الحياة الطيبة بالحياة الآخروية لكان فى الآية السكريمة ما يشبه التكرار ، ولكتنا لو فسرناها بالحياة الدنيوية لكانت الآية السكريمة مبنية لجزء المؤمنين فى الدارين .

وأيضاً فإن قول النبى - صلى الله عليه وسلم - السابق : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً » يشير إلى أن المراد بالحياة الطيبة ، الحياة الدنيوية ، لأن من نال الفلاح نال حياة هنية .

وعلى ذلك يكون المعنى الإجمالى للآية السكريمة : من عمل عملاً صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلننجينه حياة طيبة فى الدنيا ، يظفر معها بالسعادة وصلاح البال ، والأمان والاطمئنان ؛ إما فى الآخرة فسنجزيه جزاء أكرم وأفضل مما كان يعمل فى الدنيا من أعمال صالحة .

قال صاحب الكشاف قوله : « حياة طيبة » يعنى فى الدنيا ، وهو الظاهر لقوله « ولنجزينهم » وعدم الله ثواب الدنيا والآخرة ، كقوله : « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » .

وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح مؤسرا كان أو معسرا ، يعيش عيشا
بها ، إن كان مؤسرا فلا مقال فيه ، وإن كان معسرا فعه ما يطيب عيشه
و القناعة والرضا بقسمة الله .

وأما الفاجر فأمره على العكس . إن كان معسرا فلا إشكال في أمره ،
إن كان مؤسرا ، فالحرص لا يدعه أن يتهاى بعيشه^(١) .

• • •

ثم أشار - سبحانه - إلى أن من الأعمال الصالحة ، أن يستعين المسلم عند
أمره للقرآن الكريم ، من الشيطان الرجيم ، فقال - تعالى - :

« فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ، فَاسْتَمِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » (٩٨) ^{إِنَّهُ}
^{مِنْ} لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) ^{إِنَّمَا}
^{طَائِفَةٌ} عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) .

والمراد بقوله - تعالى - . فإذا قرأت القرآن ... ، أى فإذا أردت قراءته ،
- كلام على حذف الإرادة ، وذلك لأن المعنى الذى غلبت من أجل الاستعانة
ودفع وسوسة الشيطان يقتضى أن يبدأ القارئ بها - أى بالاستعاذة -
، القراءة لا بعدها وشييه هذه الآية فى حذف الإرادة لدلالة المقام عليها
له - تعالى - . يأبها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم
المرافق ... ،^(٢) أى : إذا أردتم القيام إلى الصلاة فاغسلوا .

وقوله - تعالى - : : د وكم من قرية أهلكناها فجاءها بآء نايباتا أوهم قائلون ،^(٣)
: أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٨٨

(٢) سورة المائدة الآية ٦ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٤ .

والمعنى : فإذا أردت - أيها المسلم - قراءة القرآن ، فاستعن بالله ، : أي فاستجر بالله ؛ والتجىء إلى حماه ، من الشيطان الرجيم .

قال ابن كثير : والشيطان في لغة العرب ، كل متمرّد من الجن والإنس والدواب وكل شيء ، وهو مشتق من شطن بمعنى بعد ، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر ، وبعيد بفسقه عن كل خير ... ، (١) :

والرجيم بزنة فعيل بمعنى مفعول . أي : أنه مرجوم ومطرود من رحمة الله - تعالى - .

قال بعض العلماء : وإنما خصت القراءة بطلب الاستعاذة ، مع أنه قد أمر بها على وجه العموم في جميع الشئون ، لأن القرآن مصدر هداية والشيطان مصدر ضلال ، فهو يقف للإنسان بالمرصاد في هذا الشأن على وجه خاص ، فيشير أمامه ألواناً من الشكوك فيما يفيد من قراءته ، وفيما يقصد بها ، فيفوت عليه الانتفاع بهدي الله وآياته . فعلّمنا الله - تعالى - أن نتق ذلك كله بهذه الاستعاذة التي هي في الواقع عنوان صادق ، وتعبير حق ، عن امتلاء قلب المؤمن بمعنى المجوء إلى الله . وقوة عزيمته في طرد الشيطان ووساوسه ، واستقبال هدايته بقلب طاهر ، وعقل واع وإيمان ثابت ، (٢) .

وكيفية الاستعاذة أن يقول القارئ عند إرادة قراءته للقرآن ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فقد تضافرت الروايات عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بهذه الصيغة .

قال الآلوسی . وروى التعلبي والواحدی أن ابن مسعود قرأ على النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ،

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٤ ،

(٢) تفسير القرآن الكريم ص ٦ ؛ لفضيلة الإمام الأكبر المرحوم الشيخ

فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - : يا بن أم عبد قل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، هكذا أقر أن جبريل (١) .

وقال صاحب تفسير آيات الأحكام : والأمر بها - أى بالاستعاذة - للندب عند الجمهور .

وعن الثوري أنها واجبة . وظاهر الآية يؤيده ، إذ الأمر للوجوب . والجمهور يقولون : صرفها عن الوجوب ما ورد من أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يعلمها للأعرابي - أى الذى سأله عن كيفية الصلاة - وأيضاً فقد روى أنه كان - صلى الله عليه وسلم - يتركها ، (٢) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن وسوسة الشيطان لا أثر لها على المؤمنين الصادقين فقال - تعالى - : : إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، أى إن الشيطان مهما تمرد وعق ، ليس له سلطان ، أى : ليس له تسلط واستيلاء واستحواذ بالقهر والغلبة ، على نفوس الذين آمنوا بالله - تعالى - حق الإيمان والذين هم عليه - تعالى - وحده يتوكلون ويعتمدون لا على غيره .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى - : : إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ، وقوله - تعالى - : : إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا ، .

وبعد أن نفى - سبحانه - أن يكون للشيطان سلطان على نفوس المؤمنين الصادقين ، أثبت - سبحانه - أن تسلط الشيطان إنما هو على نفوس الضالين ، فقال - تعالى - : : إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون ، .

(١) تفسير الألوسى ج ١٤ ص ٢٢٨ .

(٢) تفسير آيات الأحكام ص ٥٢ ج ٣ . لفضيلة الشيخ محمد على السائس - رحمه الله - .

أى : إنما تسلط الشيطان وتأثيره على الضالين الفاسقين الذين يتولونه ،
أى : بتقريبه منه ، ويجعلونه واليا عليهم ، فيحبونه ويطيعونه ويتبعونه
خطواته .

فقوله : يتولونه ، من الولى - بفتح الواو وسكون اللام - بمعنى القرب
والنصرة وقوله ، والذين هم به مشركون ، أى : والذين هم بسبب الشيطان
ولمغوائه لهم ، مشركون مع الله - تعالى - آلهة أخرى في العبادة .

فالضمير فى ، به ، يعود إلى الشيطان ، والباء للسببية .

ويرى بعضهم أن الضمير فى ، به ، يعود على الله - تعالى - ، وأن الباء
للتعبدية ، فيكون المعنى : إنما سلطان الشيطان على الذين يطيعونه ، والذين هم
بأنه - تعالى - مشركون .

قالوا ، والاول أرجح لاتحاد الضمائر فيه ، ولأنه هو المتبادر
إلى الذهن .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، تأمر المؤمنين بأن يستعينوا بالله من
الشيطان الرجيم ، عند قراءتهم للقرآن الكريم ، كما نراها تبشرهم بأنه لاسطان
للايضان عليهم ما داموا معتصمين بحبل الله - تعالى - ومنتفذين لأوامره ،
ومعتمدين عليه .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض الأقاويل التى قالها المشركون عن النبي
- صلى الله عليه وسلم - وعن القرآن الكريم ، ورد عليها بما يخرس ألسنتهم
فقال تعالى :

« وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ ، قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ
مُفْتَرٍ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ

بِالْحَقِّ لِيَشِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَهُدَىٰ لِّلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) ولقد
نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ،
وهذا لسان عربي مبين (١٠٣) إن الذين لا يؤمنون بآيات الله
لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم (١٠٤) إنما يفترى الكذب الذين
لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون (١٠٥) .

وقوله - تعالى - : « وإذا بدلنا آية مكان آية ... ، التبديل رفع الشئ مع
وضع غيره مكانه . فتبديل الآية رفعها بآية أخرى .

وجمهور المفسرين على أن المراد بالآية هنا : الآية القرآنية . وعلى أن
المراد بتبديلها نسخها .

قال صاحب الكشف : تبديل الآية مكان الآية هو النسخ ، والله - تعالى -
ينسخ الشرائع بالشرائع ، لأنها مصالح ، وما كان مصلحة بالأمس يجوز أن
يكون مفسدة اليوم وخلافه مصلحة . والله - تعالى - عالم بالمصالح والمفاسد ،
فثبت ما يشاء ، وينسخ ما يشاء بحكمته ... (١) .

وقال الجمل : قوله - تعالى - « وإذا بدلنا آية مكان آية ... » ، وذلك أن
المشركون من أهل مكة قالوا : إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - يسخر بأصحابه .
يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ، ما هذا إلا مفترى يتقوله من تلقاء نفسه
فأنزل الله - تعالى - : « وإذا بدلنا آية مكان آية ... » والمحنى : وإذا نسخنا حكم
آية فأبدلنا مكانه حكما آخر ، (٢) .

وقال الآلوسی : قوله - تعالى - « وإذا بدلنا آية مكان آية ، أى : وإذا

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٤٢٨ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٩٨ .

نزلنا آية عن القرآن مكان آية منه . وجعلنا بدلا منها بأن نسخناها بها ... (١) .
ومهم من يرى أن المراد بالآية هنا : الآية الكونية ، أى المعجزة التى أتى
بها كل نبي لقومه وأن المراد بتبديلاها : الإتيان بمعجزة أخرى سواها .

قال الشيخ القاسمى عند تفسيره لهذه الآية : وذهب قوم إلى أن المعنى
تبديل آية من آيات الأنبياء المتقديين . كآية موسى وعيسى وغيرهما من الآيات
الكونية الآفاقية ، بآية أخرى نفسية علمية ، وهى كون المنزل هدى ورحمة
وبشارة يدر بها العقل ...

فبدلت تلك - وهى الآيات الكونية - بآية هو كتاب الهدى والهدى من
بنى أمى - صلى الله عليه وسلم ... (٢)

ويب و لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأن قوله - تعالى - بعد
ذلك : « قل نزله روح القدس من ربك .. » يدل دلالة واضحة على أن المراد
بالآية ، الآية القرآنية :

وقوله - سبحانه - « والله أعلم بما ينزل » حملة معترضة بين الشرط وجوابه
للمسارعة إلى توبخ المشركين وتجهيلهم .

أرى : والله - تعالى - أعلم من كل مخلوق بما هو أصلح لعباده ، وبما ينزله
من آيات ، وبما يغير ويبدل من أحكام ، فمكل من الناسخ والمنسوخ منزل
حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة . « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

وقوله - تعالى - « قالوا إنما أنت مفتى » جواب الشرط ، وهو حكاية لما
تفوهوا به من باطل وهتان : وقوله « مفتى » من الافتراء وهو أشنع
أنواع الكذب .

(١) تفسير الألوسى ج ١٤ ص ٢٣١ .

(٢) تفسير القاسمى ج ١٠ ص ٢٨٥٨

أى : قال المشركون للنبي - صلى الله عليه وسلم - عند تبديل آية مكان آية : إنما أنت يا محمد تخلق هذا القرآن من عند نفسك ، وتفترية من إنشائك وإخترائك ...

وقوله - تعالى - د بل أكثرهم لا يعلمون ، تسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم عما أصابه منهم .

أى : لأنهم - أيها الرسول الكريم - بما قاله هؤلاء المشركون في شأنك وفي شأن القرآن الكريم ، فإن أكثرهم جهلاء أغبياء ، لا يعلمون في تبديلنا للآيات من حكمه ، ولا يفقهون من أمر الدين الحق شيئا .

وقال - سبحانه - د بل أكثرهم لا يعلمون ، للإشارة إلى أن هناك قلة منهم تعرف الحق وتدركه ، ولكنهم تنسكروا عناداً وجحوداً وحسداً للرسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ما أتاه الله من فضله .

ثم لقن الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - الرد الذي يقذفه على باطلهم فيزقه فقال :

د قل نزله روح القدس من ربك بالحق ، ليثبت الذين آمنوا ، وهدى وبشرى للمسلمين ، وروح القدس : هو جبريل - عليه السلام - ، والإضافة فيه إضافة الموصوف إلى الصفة .

أى : الروح المقدس . ووصف بالقدس لطهارته وبركته ، وسمى روحاً لمشابهته الروح الحقيقي في أن كلا منهما مادة الحياة للبشر ، فجبريل من حيث ما يحمل من الرسالة الإلهية تحمياً به القلوب ، والروح تحمياً به الأجسام .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الجاهلين ، إن هذا القرآن الذي تزعمون أنني افتريته ، قد نزل به الروح الأمين على قلبي من عند ربى ، نزولاً ملتبساً بالحق الذي لا يحوم حوله باطل ، ليزيد المؤمنين ثباتاً في إيمانهم وليكون هداية وبشارة لكل من أسلم وجهه لله رب العالمين .

وفي قوله : من ربك : تكريم وتشريف للرسول - صلى الله عليه وسلم - حيث اختص - سبحانه - هذا النبي الكريم بإنزال القرآن عليه ، بعد أن رباه برعايته ، وتولاه بعنايته .

وقوله : بالحق ، في موضع الحال : نزله إنزالا ملتبسا بالحكمة المقضية له ، بحيث لا يفارقها ولا انفارقه .

وقوله : وليأت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ، بيان للوظيفة التي من أجلها نزل القرآن الكريم ، وهي وظيفة تسعد المؤمنين وحمدهم ، أما الكافرون فهم بعيدون عنها .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك مقولة أخرى من مقولات المشركين فقال - تعالى - : ، ولقد ظلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ... ،

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية مأملخصه : يقول - تعالى - مخبرا عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء : إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر ، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان يبايعنا عند الصفاء ، وربما كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء ، وذلك كان أعجمي اللسان لا يعرف إلا اليسير من العربية ...

وعن عكرمة وقتادة كان اسم ذلك الرجل يمش ، وعن ابن عباس كان اسمه بلعام ، وكان أعجمي اللسان ، وكان المشركون يرون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلمه بلعام فأزل الله هذه الآية ، (١) .

والمعنى : ولقد نعلم - أي الرسول الكريم - علما مستمرا لا يغرب عنه شيء ، ما يقوله المشركون في شأنك ، من أنك تتعلم القرآن من واحد من البشر .

قال الآلوسی : وإنما لم يصرح القرآن باسم من زعموا أنه يعلمه - عليه الصلاة والسلام - مع أنه أدخل في ظهور كذبهم ، للإبذان بأن مدار خطبهم ، ليس بنسبته - صلى الله عليه وسلم - إلى التعلم من شخص معين ، بل من البشر كائناً من كان ، مع كونه - صلى الله عليه وسلم - معدنا لعلوم الأولين والآخرين ، (١) .

وقوله - تعالى - : « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين » رد عليهم فيما زعموه وافتروه .

والمراد باللسان هنا : الكلام الذي يتكلم به الشخص ، والمادة التي ينطق بها .

وقوله : « يلحدون » من الإلحاد بمعنى الميل . يقال لحد وأحد ، إذا مال عن القصد ، وسمى الملحد بذلك ، لأنه أمال مذهبه عن الأدیان كلها .

والأعجمي : نسبة إلى الأعجم : وهو الذي لا يفصح في كلامه سواء أكان من العرب أم من الأعجم . وزيدت فيه ياء النسب على سبيل التوكيد .

والمعنى : لقد كذبتم - أي المشركون - كذبا شنيعا صريحا ، حيث زعمتم أن الرسول الله عليه وسلم - بعلمه القرآن بشر ، مع أن لغة هذا الإنسان الذي زعمتم أنه يعلم الرسول - صلى الله عليه وسلم - لغة أعجمية ، ولغة هذا القرآن لغة عربية في أعلى درجات البلاغة والفصاحة ، فقد أعجزكم بفصاحته وبلاغته ، وتحداكم وأتم أهل اللسان والبيان أن تأتوا بسورة من مثله .

نخبروني بربكم ، من أين للأعجمي أن يذوق بلاغة هذا التنزيل ، وما حواه من العلوم ، فضلا عن أن ينطق به ، فضلا عن أن يكون معلما له .

ثم هدد - سبحانه - المعرضين عن آياته ، بقوله : « إن الذين لا يؤمنون بآيات الله ، الدالة على وحدانيته - سبحانه - ، وعلى صدق نبيه - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عنه .

» لا يهديهم الله ، إلى طريق الحق ، في الدنيا ، بسبب ذنوبهم وعنادهم وإيمانهم الغي على الرشد .

« ولهم ، في الآخرة ، عذاب أليم ، جزاء لإصرارهم على الباطل ، وإعراضهم عن الآيات التي لو تأملوها واستجابوا لها لاهتدوا إلى الصراط المستقيم .

ثم بين - سبحانه - أن افتراء الكذب لا يصدر عن المؤمنين فضلا عن الرسول الأمين ، وإنما يصدر عن الكافرين فقال - تعالى - : « إنما ينسرى الكذب ، أي يختلقه ويخترعه ، الذين لا يؤمنون بآيات الله ، الدالة على وحدانيته وعلى وجوب إخلاص العبادة له ، وعلى صدق رسله ، وعلى صحة البعث يوم القيامة ، لأن عدم إيمانهم بذلك يجعلهم لا يخافون عقابا ، ولا يرجون ثوابا .

« وأولئك ، الكافرون بما يجب الإيمان به ، هم الكاذبون ، في قولهم عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - « إنما يعلمه بشر ، وفي قولهم ، إنما أنت مفتر » ، وفي غير ذلك من أقوالهم الباطلة ، التي حاربوا بها دعوة الحق .

قال بعض العلماء : ولا يخفى ما في الحصر بعدد القصر من العناية بمقامه - صلوات الله عليه - ، وقد كان أصدق الناس وأبرهم ... بحيث كانوا يلقبونه بالصادق الأمين .

ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان فقال له - من بين ما قال - :

هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا . فقال هرقل :
ما كان ليدع الكذب على الناس ، ويكذب على الله - تعالى - .

وفي هذه الآية دلالة على أن الكذب من أكبر الكبائر ، وأنفس
الفواحش . والدليل عليه أن كلمة « إنما » للحصر .

وروى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قيل له : هل يكذب المؤمن ؟
قال : لا ثم قرأ هذه الآية (١) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حكم من أكره على النطق بكلمة الكفر ،
وحكم من استحب الكفر على الإيمان فقال - تعالى - :

« مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ ، إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقُلُوبُهُ مَطْمَئِنَّةٌ
بِالْإِيمَانِ ، وَلَسَكُنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى
الْآخِرَةِ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ
طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨)
لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) » .

ذكر المفسرون في سبب نزول قوله - تعالى - : « مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ
إِيمَانِهِ ... » روايات منها قول الآلوسی : روى أن قريشا أكرهوا عمارا
وأبويه ياسرا وسمية ، على الارتداد فأبوا ، فربطوا سمية بين بهرين ...
ثم قتلوها وقتلوا ياسرا ، وهما أول شهيدين في الإسلام . وأما عمار فأعظام
بلسانه ما أكرهوه عليه . فقيل يارسول الله ، إن عمارا قد كفر . فقال

(١) تفسير القاسمي ج ١٠ ص ٣٨٦ .

- صلى الله عليه وسلم - : كلا ، إن عمارا ملئ إيمانا من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه .

فأتى عمار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يبكي ، فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمسح عينيه وقال له : مالك ، إن عادوا فعد لهم بما قلت . وفي رواية أنه قال له : كيف تجد قلبك ؟ قال مطمئن بالإيمان قال - صلى الله عليه وسلم - إن عادوا فعد . فنزلت هذه الآية ...

ثم قال الألوسي : والآية دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر عند الإكراه ، وإن كان الأفضل أن يتجنب من ذلك إعزازا للدين ولو تيقن القتل ، كما فعل بأسر وسمية ، وليس ذلك من إلقاء النفس إلى التهلكة ، بل هو كالقتل في الغزو كما صرحوا به ... (١) .

و من ، في قوله ، من كفر بالله ، مبتدأ أو شرطية ، والخبر أو جواب الشرط محذوف والتقدير : فعليه غضب من الله ، أو فله عذاب شديد ، ويدل عليهما قوله - تعالى - بعد ذلك : ولكن من شرح بالكفر صدورا فعليهم غضب من الله .

والمعنى : من كفر بالله - تعالى - من بعد إيمانه بوحدانيته - سبحانه - وبصدق رسوله - صلى الله عليه وسلم - فإنه بسبب هذا الكفر يكون قد ضل ضلالا بعيدا ، يستحق من أجله العذاب المهيمن .

وقوله : إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، استثناء متصل من الجملة السابقة أي : إلا من أكره على النطق بكلمة الكفر ، والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان ، ثابت عليه ، متمكن منه .. فإنه في هذه الحالة لا يكون ممن يستحقون عقوبة المرتد .

قال بعض العلماء : وأما قوله : « إلا من أكره » فلهذا مطعون بالإيمان ، فهو استثناء متصل من « من » ، لأن الكفر أعم من أن يكون اعتقاداً فقط ، أو قولاً فقط ، أو اعتقاداً وقولاً .. وأصل الاطمئنان سيكون بعد انزعاج ، والمراد به هنا : السكون والثبات على الإيمان بعد الانزعاج الحاصل بسبب الإكراه .. (١) .

وقوله : « ولكن من شرح بالكفر صدرا » فليهم غضب من الله ولهم عذاب أليم ، بيان لسوء مصير من استحب الكفر على الإيمان باختياره ورضاه .

و « من » ، في قوله « من شرح » شرطية ، وجوابها « فليهم غضب من الله » .

أى : حكم من تلفظ بكلمة الكفر مكرها أنه لا يعتبر مرتداً ، ولكن حكم من طابت نفوسهم بالكفر ، وانشرحت له صدورهم ، واعتقدوا صحته أنهم عليهم من الله - تعالى - غضب شديد لا يعلم مقداره إلا هو ، ولهم يوم القيامة عذاب عظيم الهول ، يتناسب مع عظيم جرمهم .

هذا ، وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأخبار التي حكى ما تعرض له المسلمون الأولون من فتن وآلام . فقال حامداً لخصه : ولهذا تفق العلماء على أن المأثم على الكفر يجوز له أن يوالى إبقاء لمهجته ، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال - رضى الله عنه - يأبى عليهم ذلك ، وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى إنهم ليضعوا الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ويأمرونه بالشرك بالله ، فيأبى عليهم وهو يقول : أحد ، أحد ، ويقول : والله لو أعلم كلمة هي أغبط لكم منها لقلتها (٢) .

(١) تفسير آيات الأحكام ج ٣ ص ٥٤ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير - ٢ ص ٥٨٧ .

وقوله - سبحانه - : « ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة » ،
بيان للأسباب التي جعلتهم محل غضب الله ونقمته .

واسم الإشارة ، ذلك ، يعود إلى كفرهم بعد إيمانهم ، أو إلى ما توعدهم
الله - تعالى - به من غضب عليهم ، وعذاب عظيم لهم .

أى : ذلك الذي جعلهم يرتدون عن دينهم ، ويكفرون محل غضب الله
ونقمته ، من أسبابه أنهم آثروا الحياة الدنيا وشهواتها على الآخرة وما فيها
من ثواب .

« وأن الله - تعالى - لا يهدي القوم الكافرين ، إلى الصراط المستقيم ،
لأنهم زاغوا عن الحق ، فأزاغ الله قلوبهم .

ثم أضاف - سبحانه - إلى ذائلهم رذيلة أخرى فقال : « أولئك الذين
طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، وأولئك هم الغافلون . »

والطبع : الختم والوسم بطابع ونحوه على الشيء ، لكي لا يخرج منه
ما هو بداخله ، ولا يدخل فيه ما هو خارج عنه .

أى : أولئك الذين شروا صدورهم للكفر ، وطأوا به نفسا ، قد طبع
الله - تعالى - على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، فصارت ممنوعة من وصول الحق
إليها ، وعاجزة عن الاقتفاع به ، وأولئك هم السكاملون في الغفلة والبلاهة ،
لذا غفلة أشد من غفلة المعرض عن عاقبة أمره ، ولا بلاهة أفدح من بلاهة
من آثر الغافية على الباقية .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة بالحكم العادل عليهم فقال : « لا جرم
لهم في الآخرة هم الخاسرون . »

أى : لا شك ولا محالة في أن هؤلاء الذين اختاروا الكفر على الإيمان

سيكونون يوم القيامة من القوم الخاسرين ، لأنهم لم يقدموا في دينهم ما ينفعهم في أخراهم .

وكلمة « لا جرم » ، قد وردت في القرآن في خمسة مواضع ، متلوة في كل موضع بأن واسمها ، وليس بعدها فعل .

وجهور النحاة على أن هذه الكلمة مركبة من « لا » و « جرم » ، تركيب خمسة عشر ، ومعناها بعد التركيب معنى الفعل : حق ، أو ثبت ، أو ما يشبه ذلك ، أى : حق و ثبت كونهم في الآخرة من الخاسرين .

والذى يتدبر هذه الآيات ، يراها قد توعدت المرتدين عن دينهم بألوان من العقوبات المخلطة ، لقد توعدتهم بغضب الله - تعالى - وبعذابه العظيم ، وبعدم هدايتهم إلى طريق الحق ، وبالطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، وبالغفلة التى ليس بعدها غفلة ، وبالخسران الذى لا شك فيه يوم القيامة ، فعوذ بالله - تعالى - من ذلك .

ثم بين - سبحانه - جانباً من مظاهر لطفه ورأفته لقوم هاجروا من بعد ما فتنوا ، فقال - تعالى - :

« ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ، ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا ، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَنَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تَبَاجُلٌ عَنْ نَفْسِهَا ، وَتُوْفَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١) » .

وقوله - سبحانه - : « من بعد ما أفتنوا » أى : عذبوا وأرذوا من أجل أن يرتدوا إلى الكفر .

وأصل الفتن : إدخال الذهب في النار لتظهر جودته من رداءته ، ثم يستعمل في الاختبار والإمتحان بالحن والشدة ، وبالمنح واللطف ، لما فيه

من إظهار الحال والحقيقة ، وأكثر ما تستعمل الفتنة في الإمتحان والحن ،
وعليه يحمل بعضهم تفسير الفتنة بالحننة .

والمراد بهؤلاء الذين هاجروا من بعد ما فتنوا - كما يقول ابن كثير - جماعة
كانوا مستضعفين بكمكة ، مهانين في قومهم ، فوافقوهم على الفتنة ، ثم لأنهم
أمكنهم الخبلاص بالهجرة ، فتركوا بلادهم وأموالهم لإبتغاء رضوان الله
وغفرانه ، ولإنتظموها في سلك المؤمنين ، وجاءهم بها معهم الكافرين ،
وصبروا ... (١)

والمعنى : « ثم إن ربك » - أيها الرسول الكريم - تكفل بالولاية والمغفرة
لهؤلاء الذين هاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام ، من بعد أن عذبهم
المشركون لكي يرتدوا عن دينهم .

قال الآلوسی : وقرأ ابن عامر من بعد ما فتنوا ، بالبناء للفاعل ، وهو
ضمير المشركين عند غير واحد ، أي : عذبوا المؤمنين كالخضري ، أكرم
مولاه دجيرا ، حتى أرتد ، ثم أسلموا وهاجروا ... (٢)

وقوله - تعالى - « ثم جاهدوا وصبروا » أي جاهدوا المشركين حتى تكون
كلمة الله هي العليا ، وصبروا على السلاء والأذى طلبا لرضا الله - تعالى -

والضمير في قوله « من بعدهم » ، يعود إلى ما سبق ذكره من الهجرة
والفتنة والجلاء والصبر .

أي : أن ربك - أيها الرسول الكريم - من بعد هذه الأفعال لكثير
المغفرة والرحمة لهم ، جزاء هجرتهم وجهادهم وصبرهم على الأذى .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٨٨

(٢) تفسير الآلوسی ج ١٤ ص ٢٣٩

قال المل في حاشيته مالمخصه : وفي خبر «إن» في قوله «ثم إن ربك للذين هاجروا...» ثلاثة أقوال أحدها : أن قوله «لغفور رحيم» وقوله «إن ربك» الثانية وأسمها تأكيد للأولى وأسمها ، فكأنه قيل : ثم إن ربك لغفور رحيم . والثاني أن الخبر هو نفس الجار بعدها ، كما نقول : «إن زيداً» أي : هؤلاء لاعليك ، بمعنى : هو ناصرهم لا خاذلهم - وإلى هذا المعنى أشار الزمخشري بقوله : ومعنى «إن ربك» ، أنه لهم لاعليهم كما يكون الملك للرجل لاعليه ، فيكون محمياً منفعوا غير مضرور - والثالث : أن خبر الأولى مستغنى عنه بخبر الثانية ، يعنى أنه محذوف لفظاً لدلالة ما بعده عليه (١)

وقوله - سبحانه - «يوم تأتى كل نفس نفس تجادل عن نفسها...» منصوب على الظرفية بقوله «رحيم» ، أو منصوب على المفعولية بفعل محذوف تقديره أذكر . والمراد باليوم : يوم القيامة .

والمجادلة هنا بمعنى المحاجة والمدافعة ، والسعى في الخلاص من أهوال ذلك اليوم الشديد .

والمعنى : إن ربك أيها الرسول الكريم - من بعد تلك المذكورات من الهجرة والفتنة والجهاد والصبر ، لغفور رحيم ، يوم تأتى كل نفس مشغولة بأمورها ، مهتمة بالدفاع عن ذاتها ، بدون التفات إلى غيرها ، ساعية في الخلاص من عذاب ذلك اليوم .

والتأمل في هذه الجملة السريمة ، يراها تنثير بأسلوب مؤثر بليغ إلى ما يعتري الناس يوم القيامة من خوف وفزع يجعلهم لا يفكرون إلا في ذواتهم ولا يهمهم شأن آبائهم أو أبنائهم .

قال صاحب الكشف : ما معنى النفس المضافة إلى النفس ؟ قلت : يقال لعين الشيء وذاته نفسه . وفي تقيضه غيره ، والنفس الجملة كما هي ، فالنفس الأولى هي الجملة ، والثانية عينها وذاتها ، فكانت قيل : يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته ، لايهمه شأن غيره ، كل يقول : نفسى نفسى . ومعنى المجادلة عنها : الاعتذار عنها ، كفر لهم : ما كنا مشركين ، وكفر لهم : هؤلاء أضلونا ... (١)

وقوله - سبحانه - « وتوفي كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون » ، بيان لمظهر من مظاهر عدل الله - تعالى - في قضائه بين عباده .

أى : وفي هذا اليوم تعطى كل نفس جزاء ما عملته من أعمال في الدنيا وإفيا غير منقوص ، بدون ظلم أو حيف أو ميل عن العدل والقسطاس ، وإن ينفع نفساً مجادلتها عن ذاتها ، ولاعتذارها بالمعاذير الباطلة ، وإنما الذى ينفعها هو عملها .

وبذلك نرى الآيتين السكريميتين ، قد بينتا بأسلوب بليغ جانباً من مظاهر فضل الله - تعالى - على عباده ، وجانباً من أهوال يوم القيامة ، ومن القضاء العادل الذى يحكم الله به بين الناس .

ثم ضرب - سبحانه - مثلاً لسوء عاقبة الذين يجحدون نعم الله ، ويكذبون بآياته ، فقال - تعالى - :

« وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ، قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) » واقد جاءهم رسولٌ مِنْهُمْ فكَذَّبُوهُ ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) » .

والفعل ضرب ، في قوله - تعالى - : وضرب الله مثلا قرية ... ، متضمن معنى جعل ، ولذا عدى إلى مفعولين .

والمثل - بفتح الشاء - بمعنى المثل - بسكونها - أى : النظير والشبيه . ويطلق على القول السائر المعروف ، لماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه لمورده الذى ورد فيه ، ثم استعير للصفة والحال كما فى الآية التى معنا .

والمراد بالقرية : أهلها ، فالكلام على تقدير مضاف .

وللمفسرين اتجاهان فى تفسير هذه الآية . فمنهم من يرى أن هذه القرية غير معينة ، وإنما هى مثل لكل قوم قابوا نعم الله بالجحود والكفران .

وإلى هذا المعنى إتجه صاحب الكشف حيث قال : قوله - تعالى - : « وضرب الله مثلا قرية ... ، أى : جعل القرية التى هذه حالها مثلا لكل قوم أنهم أنهم فإبطرتهم النعمة ، فكفروا وتولوا ، فأنزل الله بهم نعمته فيجوز أن تراد قرية مقدرة على هذه الصفة ، وأن تكون فى قرى الأولين قرية كانت هذه حالها ، فضرب بها الله مثلا لمكة لإذارا من مثل عاقبتها . » (١)

ومنهم من يرى أن المقصود بهذه القرية مكة ، وعلى هذا الاتجاه سار الامام ابن كثير حيث قال ما ملخصه : هذا مثل أريد به أهل مكة ، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة ، يتخطف الناس من حولها ومن دخلها كان آمنا ... فجحدت آلاء الله عليها ، وأعظمها بعثة محمد - صلى الله عليه وسلم - فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، (١)

ويبدو لنا أن الاتجاه الأول أقرب إلى الصواب ، لتأكيد لفظ قرية ، ولشموله الاتجاه الثانى ، لأنه يتناول كل قرية بدلت نعمة الله كفرا ، ويدخل فى ذلك كفار مكة دخولا أوليا .

فيكون المعنى : وجعل الله قرية موصوفة بهذه الصفات مثلا لكل قوم

أنعم الله عليهم بهذه النعم ، فلم يشكروا الله - تعالى - عليها ، فأخذهم أخذ عظيم مقتدر .

وقوله : : كانت آمنة مطمئنة ، أى : كانت تعيش فى أمان لا يشوبه خوف ، وفى سكون وإطمئنان لا يخالطهما فزع أو نزعاج :

وقوله : : يأتينا رزقهما رغداً من كل مكان ، بيان لسعة عيشها ، أى : يأتينا ما يحتاج إليه أهلها واسعاً لنا سهلاً من كل مكان من الأمكنة .

يقال : رغد - بضم الغين - عيش القوم ، أى : اتسع وطاب فم و رغد ورغيد ... وأرغد القوم ، أى : أخصبوا وصاروا فى رزق واسع .

فآية الكريمة تد تضمنت أمهات النعم : الأمان والاطمئنان ورغد العيش . قال بعضهم :

ثلاثه ليس لها نهاية الأمن والصحة والكفاية

وقوله - تعالى - : : فكفرت بأنعم الله ، بيان لموقفها الجحودى من نعم الله - تعالى -

أى : فكان موقف أهل هذه القرية من تلك النعم الجليله ، أنهم جحدوا هذه النعم ، ولم يقابلوها بالشكر ، وإنما قابلوها بالاشراك بالله - تعالى - .
مصدى هذه النعم .

قال القرطبى : : والآنعم : جمع النعمة . كالأشد جمع الشدة . وقيل : جمع نعمى ، مثل بُؤسى وأبؤس ، .

وقوله - سبحانه - : : فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، بيان للعقوبة الالهية التى حلت بأهلها بسبب كفرهم وبطرم

أى : فأذاق - سبحانه - أهلها لباس الجوع والخوف ، بسبب ما كانوا يصنعونه من الكفر والجحود والعتو عن أمر الله ورسله

وذلك بان أظهر أثرهما عليهم بصورة واضحة ، تجعل المناظر اليهم لا يخفى عليه ما هم فيه من فقر مدقع ، وفزع شديد

ففي الجملة الكريمة تصوير بديع لما أصابهم من جوع وخوف ، حتى
لكان ما هم فيه من هزال وسوء حال ، يبدو كاللباس الذي لبسه الإنسان ،
ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقا يحسون أثره إحساسا عميقا .

ورحم الله صاحب الكشف فقد أجاد في تصوير هذا المعنى فقال : « فإن
قلت : الإذقة واللباس استعارتان فما وجه صحتهما ؟ والإذقة المستعاراة موقعة
على اللباس المستعار ، فما وجه صحة إيقاعها عليه ؟

قلت : أما الإذقة فقد جرت عندهم بجرى الحقيقة لشروعها في البلايا
والشدائد وما عسى الناس منها . فيقولون : ذاق فلان البؤس والضرر . وإذقة
العذاب . شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من الطعم المر البشع .

وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللبس ، ما غشى الإنسان والتبس به
من بعض الحوادث .

وأما إيقاع الإذقة على لباس الجوع والخوف ، فلا أنه لما وقع عبارة
عما يغشى منها ويلبس ، فكأنه قيل : فأذقه ما غشيتهم من الجوع
والخوف ... » (١)

ثم بين - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائل أهل هذه القرية الكافرة بأنعم
الله فقال : « ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه » .

أي : ولقد جاء إلى أهل هذه القرية رسول من جنسهم ، يعرفونه كما يعرفون
أبناءهم ، فأمرهم بطاعة الله وشكره ، ولكنهم كذبوه وأعرضوا عنه .

والتعبير بقوله « جاءهم » يدل على أن هذا الرسول وصل إليهم وبلغهم
رسالة ربه ، دون أن يكلفهم الذهاب إليه ، أو البحث عنه .

والتعبير بالفاء في قوله « فكذبوه » يشعر بأنهم لم يتمهلوا ولم يتدبروا دعوة

هذا الرسول ، وإنما قابلوها بالتكذيب السريع بدون رؤية ، ما يدل على غياوتهم وانطماس بصيرتهم .

وقوله - تعالى - « فأخذهم العذاب وهم ظالمون » بيان للعاقبة السيئة التي حاقت بهم .

أى : فكانت نتيجة تكذيبهم السريع لنبيهم . أن أخذهم العذاب العاجل الذى استأصل شأفتهم ، والحال أنهم هم الظالمون لأنفسهم ، لأن هذا العذاب مانزل بهم إلا بعد أن كفروا بأنعم الله ، وكذبوا رسوله .

هذا ، والذى يتأمل هاتين الآيتين الكريمتين يراهما وإن كانا يشملان حال كل قوم بدلوا نعمة الله كفرا ... إلا أنها ما يطبقان تمام الانطباق على كفار مكة .

وقد بين ذلك الإمام الآلوسى - رحمه الله - فقال ماملاخصه : وحال أهل مكة - سواء أضرِبَ المثل لهم خاصة ، أم لهم ولمن سار سيرتهم كافة أشبه بحال أهل تلك القرية من الغراب بالغراب ، فقد كانوا فى حرم آمن ويخطف الناس من حولهم ، وكانت تجبى إليهم تمرات كل شىء رزقا ، ولقد جاءهم رسول منهم تحار فى سمو مرتبته العقول .. صلى الله عليه وسلم - ، فأذرم وحذرهم فكفروا بأنعم الله ، وكذبوه - صلى الله عليه وسلم - فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف ، حيث أصابهم بدعائه - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » ، ما أصابهم من جذب شديد ، فاضطروا إلى أكل الجيف ... وكان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبة الذخان من الجوع ، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت من سرايا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، حيث كانوا يغيرون عليهم ... ، (١)

ثم أكرم - سبحانه - بأن يأكلوا مما أحله لهم ، وأن يشكروه على نعمه ،
وأن يحتنبوا ما حرمه عليهم ، فقال - تعالى - :

« فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ، وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ
كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ
وَمَا أَهْلَ لغيرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ (١١٥) » .

والفاء في قوله : « فَكُلُوا ... » للتفريع على ما تقدم من التمثيل بالقرية
التي كفرت بأ نعم الله ، والتي أصابها ما أصابها بسبب ذلك .

أى : لقد ظم - لكم حال الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، رأيتم كيف أذاقهم
الله لباس الجوع والخوف ، فاحذروا أن تسيروا على شاكلتهم ، وكلوا من
الحلال الطيب الذي رزقكم الله - تعالى - لإياه .

واشكروا نعمة الله ، التي أنعم بها عليكم ، بأن تستعملوها فيما خلقت له ،
وبأن تقابلوها باسمى ألوان الطاعة لمسديها - عز وجل - .

« إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ » سبحانه - تعبدونه حق العباداة ، وتطيعونه حق الطاعة .

ثم بين - سبحانه - ما حرمه على عباده رعاية لمصالحهم فقال : « إِنَّمَا حَرَّمَ
عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ لغيرِ اللَّهِ بِهِ ... » ،

والميتة في عرف الشرع : مامات حنف أنفه ، أو قتل على هيئة غير
مشروعة ، فيدخل فيها الممختقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ، وماءها عليها
السبع ...

وكان الأكل من الميتة محرما ، لفساد جسمها بسبب ذبول أجزائه وتلفها ؛
ولأنها أصبحت بحالة تعافها الطباع السليمة لقذارتها وضررها .

والدم المحرم : هو ما يسيل من الحيوان الحي كثيرا كان أم قليلا . وكذلك يحرم من دم الحيوان ما جرى منه بعد ذبحه ، وهو الذي عبر عنه القرآن بالمسفوح ...

والحكمة من تحريم الدم المسفوح ، أنه تستغذره النفوس السكرية ، ويفضى شربه أو أكله إلى الإضرار بالنفس ..

وحرمه الخنزير شاملة للحمه ودمه وشحمه وجلده . وإنما خص لحمه بالذكر ، لأنه المقصود بالأكل ، ولأن سائر أجزائه كالتابعة للحمه ...

ومن الحكم من تحريم لحم الخنزير : قذارته ، واشتماله على دودة تضر بأكله ، كما أثبت ذلك العلم الحديث .

وقوله : وما أهل لغير الله به ، معطوف على ما قبله من المحرمات .

والفعل « أهل » مأخوذ من الإهلال بمعنى رفع الصوت ، وكانوا في الجاهلية إذا أرادوا ذبح ما قربوه إلى آلهتهم ، سموا عليها أسماءها ، فيقولون : باسم اللات ، أو باسم العزى ، رافعين بذلك أصواتهم .

فأنت ترى أن تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير كان لعلمة ذاتيه في تلك الأشياء ، أما تحريم ما أهل لغير الله به ، وبسبب التوجه بالمذبح إلى غير الله - عز وجل - .

وقوله - تعالى - : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم » بيان للحالات الضرورة التي يباح للإنسان فيها أن يأكل من تلك المحرمات . واضطر : من الاضطرار وهو الاحتياج إلى الشيء بشدة .

والمعنى : فمن ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات ، حالة كونه غير باغ ، أي : غير طالب للدم وهو يحد غيره ، أو غير طالب له على جهة الاستشارة به على مضطر آخر ، ولإعادته أي : ولا يتجاوز في أكله ما يسد

الجوع ويحفظ الحياة ، فإن الله ، - تعالى - ، غفور ، واسع المغفرة لعباده ، رحيم ، كثير الرحمة بهم ^(١) .

ثم نهي - سبحانه - عن القول على الله - تعالى - بغير علم اتباعا لظن والأوامر ، فقال :

« وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ (١١٦) متاع قليل ولهم عذاب أليم (١١٧) » .

قال الألوسي ماملخصه : قوله : « وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ... » ما ، موصولة ، والعائد محذوف ، أي : « وَلَا تَقُولُوا فِي شَأْنِ الَّذِي تَصِفُهُ أَلْسِنَتُكُمْ مِنَ الْبَهَائِمِ بِالْحَلِّ وَالْحَرَمِ - هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ - » ، من غير ترتيب ذلك الوصف على ملاحظة وفكر ، فضلا عن استناده إلى وحى أو قياس مبنى عليه ، بل مجرد قول باللسان .

ولفظ « الْكَذِبَ » منتصب على أنه مفعول به ، لتقولوا ، وقوله - سبحانه - « هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ » ، يدل منه ... ^(٢)

والمعنى : « وَلَا تَقُولُوا - أيها الجاهلون - للشئ الْكَذِبَ الَّذِي تَصِفُهُ أَلْسِنَتُكُمْ ، وتحكيه وتنطق به بدون بينة أو برهان ، هَذَا الشئ حَلَالٌ وَهَذَا الشئ حَرَامٌ » .

وقد حكى الله - تعالى - عن هؤلاء الجاهلين في آيات كثيرة ، أنهم أحلوا وحرموا أشياء من عند أنفسهم ومن ذلك قوله - تعالى - : « وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَيْنَا أَوْجَنَّا ... » ،

(١) إذا أردت التفصيل لتفسير هذه الآية فارجع إلى تفسير سورة البقرة ص ٤٥٧ للمؤلف .

(٢) راجع تفسير الألوسي ج ١٤ ص ٢٤٧ .

وقوله - سبحانه - : « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حلالا وحراما ، قل الله أذن لكم أم على الله تفترون » .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : ما معنى وصف ألسنتهم الكذب ؟ قلت : هو من فصيح الكلام وبلغه . جمل قولهم كأنه عين الكذب ومعضه . فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته ، وصورته بصورته ، كقولهم : وجهها يصف الجمال ، وعينها تصف السحر .. (١) .

وقال بعض العلماء ماملاخصه : ويصح أن يكون لفظ الكذب مفعولا لتصف ، وأن يكون قوله : « هذا حلال وهذا حرام » مفعولا لتقولوا .

وعلى هذا الوجه يكون في وصف ألسنتهم الكذب ، مبالغة في وصف كلامهم بالكذب ، حتى لكان ماهية الكذب كانت مجهولة ، فكشفت عنها ألسنتهم ووضحتها ووصفتها وبغتها بالنعوت التي جلتها ... ومنه قول الشاعر :

أضحت يمينك من جود مصورة لا ، بل يمينك منها صور الجود (٢)

واللام في قوله « لتفتروا على الكذب » هي لام الصيرورة والعاقبة ، أو هي - كما يقول صاحب الكشف - من التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض ، لأن ما صدر عنهم من تحليل وتبريم دون أن يأذن به الله ، ليس الغرض منه افتراء الكذب فحسب ، بل هناك أغراض أخرى ، كظهورهم بمظاهر أولى العلم ، وكجهنم للتباهي والتفاخر ..

وقوله « تفتروا » من الافتراء وهو أشنع أنواع الكذب ، لأنه اختلاق للكذب الذي لا يستند إلى شيء من الواقع .

(١) تفسير الكشف ج ٢ - ٤٢٣ .

(٢) تفسير القاسمي ج ١٠ - ٢٨٧٢ .

أبى : ولا تقولوا لما تحكيه ألسنتكم من أقوال وأحكام لاصحة لها ، هذا حلال وهذا حرام ، لتنسبوا ذلك إلى الله - تعالى - كذبا وزورا .

قال الإمام ابن كثير : ويدخل في الآية كل من ابتدع بدعة ، ليس له فيها مستند شرعى ، أو حلل شيئا مما حرم الله أو حرم شيئا مما أباح الله ، بمجرد رأى ، وتشبيهه ، (١)

وقال الآلوسى : وحاصل معنى الآية : لا تسموا ما لم يأتكم حله ولا حرمته عن الله - تعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - حلالا ولا حراما ، فتكونوا كاذبين على الله . لأن مدار الحل والحرم ليس إلا حكمه - سبحانه - .

ومن هنا قال : أبو نضرة : لم أزل أحتاج الفتياء منذ أن سمعت هذه الآية إلى يومى هذا

وقال ابن العربي : كرد مالك وقوم أن يقول الملقى : هذا حلال وهذا حرام فى المسائل الاجتهادية . وإنما يقال ذلك فيما نص الله عليه . ويقال فى المسائل الاجتهادية : إنى أكره كذا وكذا ونحو ذلك ، (٢)

وقوله - سبحانه - : إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، بيان أسوء عاقبتهم ، وخيبة مسعاهم .

أبى : أن الذين يختلقون الكذب وينسبونه إلى الله - تعالى - لا يفوزون بمطلوب ، ولا يفلحون فى الوصول إلى مأول .

وقوله - سبحانه - ، متاع قليل ، بيان لحسنه ما يسعون للحصول اليه من

(١) تفسير ابن كثير ٢ ص ٥٩٠

(٢) تفسير الآلوسى ١٤ ص ٢٤٨

منافع الدنيا ، وهو خير لمبتدأ محذوف أى : متاعهم فى الدنيا متاع قليل ، لأنهم عما قريب سيتكروا لغيرهم بعد رحيلهم عن هذه الدنيا .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم فى الآخرة فقال : د ولهم عذاب أليم ، أى : ولهم فى الآخرة عذاب شديد الألم .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : د تمتعهم قليلا ثم اضطروهم إلى عذاب غليظ ، وقوله - تعالى - : د ومن كفر فأمتعه قليلا ، ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ،

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، أن ما حرمة على اليهود من طيبات ، كان بسبب ظلمهم وبغيهم ، وأن رحمته - تعالى - تسع العصاة متى تابوا وأصلحوا ، فقال - تعالى - :

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ، ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم (١١٩) .

قال ابن كثير - رحمه الله - : لما ذكر - تعالى - أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، وإنما أُرخص فيه عند الضرورة وفى ذلك توسعة لهذه الأمة التى يرى الله بها البسر ولا يريد بها العسر - ذكر - سبحانه - بعد ذلك ما كان حرمة على اليهود فى شريعتهم قبل أن ينسخها ، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والخرج ، فقال : د وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل ... ،

أى : فى سورة الأنعام فى قوله : د وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو

الحوايا أو ما اختلط بعظم ، ذلك جزيناهم بغيرهم ولنا لصادقون ، (١)
والمعنى : وعلى اليهود بصفة خاصة ، دون غيرهم من الأمم ، حرمانا بعض
الطيبات التي سبق أن بيناها لك في هذا القرآن الكريم ، وما كان تحريمنا
لها عليهم إلا بسبب بغيرهم وظلمهم .

وفي الآية الكريمة لإبطال لمزاعمهم ، حيث كانوا يقولون : لسنا أول من
حرمت عليه هذه الطيبات ، وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم وغيرهما
من جاء بعدهما .

وقوله : د من قبل ، متعلق بحرمانا ، أو بقصصنا .

وبذلك يتبين أن ما حرمة الله - تعالى - على الأمة الإسلامية ، كالميتة
والدم ولحم الخنزير .. كان من باب الرحمة بها ، والحرص على مصلحتها ...
أما ما حرمة - سبحانه - على اليهود ، فقد كان بسبب بغيرهم وظلمهم .

وقوله - تعالى - د وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، بيان
لظاهر من مظاهر عدل الله - تعالى - في معاملته لعباده

أر وما ظلمنا هؤلاء اليهود بتحريم بعض الطيبات عليهم ، ولكن هم الذين
ظلموا أنفسهم ، حيث تركوها تسير في طريق الشيطان ، ولم يوقفوها عند
حدود الله - تعالى - ، فاستحقوا بسبب ذلك ما استحقوا من عقوبات .

وصدق الله إذ يقول : د إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم
يظلمون ، (٢)

وقوله - سبحانه - د ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ... بيان لسعة
رحمته - سبحانه - بهباده ، ورأفته بهم .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٩٠

(٢) سورة يونس الآية ٤٤

والمراد بالجهالة : الجهل والسفه اللذان يحملان صاحبهما على ارتكاب ما لا يليق بالعقلاء ، وليس المراد بها عدم العلم .

قال مجاهد : كل من عصى الله - تعالى - عمداً أو خطأ فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته .

وقال ابن عطية : الجهالة هنا بمعنى تعدى الطور ، وركوب الرأس : لاحسن العلم .

ومنه ما جاء في الخبر : اللهم إني أعوذ بك من أن أجهل ، أو يجهل علي ،

ومنه قول الشاعر :

ألا لا يجهل أحد علمينا فنجعل فوق جهل الجاهلين (١)

والمعنى : ثم إن ربك - أيها الرسول الكريم - ، لكثير الغفران والرحمة لأولئك الذين عملوا الأعمال السيئة ، بدافع الجهل والسفه والطيش وعدم تدبر العواقب ، ثم إنهم بعد ذلك تابوا توبة صادقة عن تلك الأعمال السيئة ، ولم يتكفروا بذلك بل أصلحوا من شأن أنفسهم ، حيث أوقفوها عند حدود الله - تعالى - وأجبروها على تنفيذ أوامره ، ولإجتناب نواهيه .

قال الآلوسی : والتقييد بالجهالة قيل : لبيان الواقع ، لأن كل من يعمل السوء لا يعمل به إلا بجهالة .

وقال المسكوي : ليس المعنى أنه - تعالى - يغفر لمن يفعل السوء بجهالة ، ولا يغفر لمن عمله بدون جهالة ، بل المراد وأن جميع من تاب فهدى سبيله . وإنما خص من يعمل السوء بجهالة ، لأن أكثر من يأتي الذنوب يأتيها بقلة

فكر في عاقبة الأمر ، أو عند غلبة الشهوة ، أو في جهالة الشباب : فذكر
الأكثر على عادة العرب في مثل ذلك . (١)

واسم الإشارة في قوله : ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ، يعود إلى
الأعمال السيئة التي عملوها قبل التوبة والإصلاح

أى : ثم تابوا توبة صادقة من بعد أن عملوا داعموا من سيئات ، وأصلحوا
فقومهم فبيّنها للسير على الطريق المستقيم

والضمير في قوله - « إن ربك من بعدها » يعود إلى « توبة وما يصاحبها
من فعل للطاعات ومن اجتناب للسيئات

أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - من بعد هذه التوبة النصوح ،
لكثير المغفرة والرحمة للتائبين

والنكير - ثم - في قوله « ثم إن ربك للذين » ثم تابوا من بعد ذلك .
لبیان الفرق الشاسع بين رحمة الله - تعالى - بعباده ، وبين ما يصدر عن
بعضهم من كفران وإرتكاب للمعاصي ؛ وبين المصيرين على فعل السوء ، وبين
التائبين عنه .

وكرر - سبحانه - « إن ربك » مرتين في الآية الواحدة ، لتأكيد الوعد
وأظهار كمال العناية بإنجازها

وشبهة بها الآية السكرية قوله - تعالى - : « أنعمنا التوبة على الله للذين
يعملون سوءاً بجهالة ، ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان
الله عليماً حكيماً ، (٢)

ثم مدح - سبحانه - خليله إبراهيم مدحا عظيما ، وبشره بالعطاء الذي

(١) تفسير الألوسي ١٤ ص ٢٤٩

(٢) سورة النساء الآية ١٧

يسعده في دنياه وآخرته ، وأمر نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - باتباع ملة أبيه إبراهيم ، فقال - تعالى - :

« إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ، وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ، شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَإِنْ رَبُّكَ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤) » .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف خليله إبراهيم - عليه السلام - بجملة من الصفات الفاضلة . والمناقب الحميدة وصفه أولا - بأنه دكان أمة ،

ولفظ دامة ، يطلق في اللغة بإطلاقات متعددة ، منها : الجماعة ، كما في قوله - تعالى - : « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، » (١) أي : جماعة من الناس ... ،

ومنها : الدين والملة ، كما في قوله - تعالى - : « إنا وجدنا آباءنا على أمة . . . » (٢) أي : على دين وملة .

ومنها : الحين والزمان كما في قوله - تعالى - : « ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة . . » (٣) ،

(١) سورة القصص الآية ٢٣

(٢) سورة الزخرف الآية ٢٢

(٣) سورة هود الآية ٨

أى : إلى زمان معين . .

والمراد بقوله - تعالى - وإن إبراهيم كان أمة . . ، أى : كان عبداً من الخیر ما كان عند أمة . أى جماعة كثيرة من الناس . وهذا التفسير مروي عن ابن عباس .

وقال مجاهد : سمى - عليه السلام - أمة لانفراده بالإيمان في وقته مدة ما .

وفي صحيح البخارى أنه قال لزوجته سارة : ليس على الأرض اليوم مؤمن غيرى وغيرك . .

ويصح أن يكون المراد بقوله - تعالى - وإن إبراهيم كان أمة . . ، أى : كان إماماً يقنذى به في وجوه الطاعات . وفي ألوان الخيرات ، وفي الأعمال الصالحات ، وفي إرشاد الناس إلى أنواع البر ، قال - تعالى - : « ولما ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً . . » (١)

ووصفه - ثانياً - بأنه كان دقائقة الله ، أى : مطيعاً لله ، خاضعاً لأوامره ونواهيهِ ، من القنوت وهو الطاعة مع الخضوع .

ووصفه - ثالثاً - بأنه كان ، حنيفاً ، أى : مانعاً عن الأدیان الباطلة إلى الدين الحق . من الحنف بمعنى الميل والاعوجاج ، يقال : فلان برجله حنف أى اعوجاج وميل .

ومنه قول أم الأحنف بن قيس وهي تداعبه :

والله لولا حنُف برجله ما كان في فتیانکم من مثله

ووصفه - رابعاً - بأنه منزّه عن الإشرāk بالله - تعالى - فقال : « ولم يك من المشركين » .

أى : ولم يكن إبراهيم - عليه السلام - من الذين أشركوا مع الله - تعالى -

آلهة أخرى في العبادة أو الطاعة ، أو في أى أمر من الأمور ، بل أخلص عبادته لخالفه - عز وجل - .

وقال - كما حكى القرآن عنه - : «لنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين» (١) .

ووصفه - خامساً - بقوله - سبحانه - : «شاكراً لانعماء» ، أى : معترفا بفضل الله - تعالى - عليه ، ومستعملاً نعمه فيما خلقت له ، ومؤدياً حقوق خالقه فيها . قال - تعالى - : « وإبراهيم الذى وفى ، أى : قام بأداء جميع ما كلفه الله به .

وبعد أن مدح - سبحانه - إبراهيم بتلك الصفات الجامعة لمجامع الخير ، أتبع ذلك ببيان فضله - تعالى - عليه فقال : « اجتباؤه ، أى اختاره واصطفاه للنبوة ، من الاجتباء بمعنى الاصطفاء والاختيار .

واجتباؤه الله - تعالى - لهبه معناه : اختصاصه ذلك العبد بمخصائص ومزايا يحصل له عن طريقها أنواع من النعم بدون كسب منه .

« وهداه إلى صراط مستقيم » ، أى : وأرشده إلى الطريق القويم ، الذى دعا الناصحون ربه أن يرشدهم إليه ، حيث قالوا فى تضرعهم : « أهدنا الصراط المستقيم » ، وهو طريق الإسلام .

« وآتاه فى الدنيا حسنة » ، أى : وجمعنا له خير الدنيا من كل ما يحتاج المؤمن إليه ليحيا حياة طيبة ، كهدايته إلى الدين الحق ، ومنحه نعمة النبوة ، وإعطائه الذرية الصالحة ، والسيرة الحسنة ، والمال الوفير .

وقد أشار القرآن الكريم إلى جانب من هذه النعم ، كما فى قوله - تعالى - : « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » (٢) .

(١) سورة الأنعام الآية ٧٩ .

(٢) سورة الشعراء الآية ٨٤ .

وكما في قوله - تعالى - : « فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا . . . » (١)

« وإنه في الآخرة لمن الصالحين » أى : وإنه في الدار الآخرة لمندرج في عباد الله الصالحين ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، والذين كانت لهم جنات الفردوس نزلا .

ثم ختم - سبحانه - هذه النعم التي منحها لخليله إبراهيم ، بأمر نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يتبع ملة أبيه إبراهيم - عليه السلام - . فقال - تعالى - : « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » . والمراد بملة إبراهيم : شريعته التي أمره الله - تعالى - باتباعها في عقيدته وعبادته ومعاملاته ، وهي شريعة الإسلام ، التي عبر عنها آتفا بالصراط المستقيم في قوله - تعالى - : « إجتبهاه وهاده إلى صراط مستقيم » .

والمراد باتباع الرسول - صلى الله عليه وسلم - له في ذلك : الإقتداء به في التوحيد وفي أصول الدين ، الثابتة في كل الشرائع ، لالافروع الشرعية التي تختلف من شريعة إلى أخرى ، بحسب المصالح التي يريد الله - تعالى - لعباده . أى : ثم أوحينا إليك - أيها الرسول الكريم - بأن تتبع في عقيدتك وشريعته ملة إبراهيم حنيفا ، أى : شريعته التي هي شريعة الإسلام .

قال صاحب الكشاف : قوله - تعالى - : « ثم أوحينا إليك . . . » : في ، ثم ، هذه ما فيها من تعظيم منزلة - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وإجلال محله ، والإيذان بأن أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم من الكرامة ، وأجل ما أوتى من النعمة : إقباع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الملة ، من جهة أنها دلت على تباعد هذا النعم في المرتبة ، من بين سائر النعم

التي أنشأ الله عليه بها ، (١) .

وقال القرطبي : وفي هذه الآية دلائل على حوازي اتباع الأفاضل المفضول فيها يؤدي إلى الصواب ، ولا أدرك على تفاضل في هذا ، فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - أفضل الأنبياء ، وقد أمر بالاعتدال بهم ، قال - تعالى - : « وأنتك الذين هدى الله فبهم اهتداهم اقتده ... » ، وقال - سبحانه - : « هذا ه ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا ... » (٢) .

وقوله « حنيفا » ، حال من إبراهيم ، أى : من المضاف إليه ، وصح ذلك لأن المضاف هنا وهو « ملة » ، كالجزء من المضاف إليه وهو إبراهيم من حيث صحة الاستغناء بالثاني عن الأول ، لأن قولك : أن اتبع إبراهيم حنيفا ، كلام تام ...

وقد أشاء ابن مالك - رحمه الله - إلى هذا المعنى بقوله :

ولا نجز حالا من المضاف له إلا إذا اقتضى المضاف عمله
أو كان جزء ماله أضيفا أو مثل جزؤه فلا تحييفا

وقوله - سبحانه - : « وما كان من المشركين » ، تنزيه لإبراهيم - عليه السلام - عن أى لون من ألوان الإشراف بالله - تعالى - .

أى : وما كان إبراهيم - عليه السلام - من المشركين مع الله - تعالى - آلهة أخرى لا فى عقيدته ولا فى عبادته ولا فى أى شأن من شئونه .

وفى ذلك رد على المشركين الذين زعموا أنهم على ملة إبراهيم ، ورد - أيضا - على اليهود والنصارى الذين زعموا أن إبراهيم - عليه السلام - كان على ملتهم .

قال - تعالى - : « وما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٣٤ (٢) تفسير القرطبي ج ٥

حنيفاً مسلماً ، وإما كان من المشركين ، (١) .

وبعد أن بين - سبحانه - حقيقة عقيدة إبراهيم ، ومدحه بجملة من الصفات الجليلة ، وبين جانباً من مظاهر فضله - سبحانه - عليه ، أتبع ذلك ببيان أن تحريم العمل في يوم السبت أمر خاص باليهود ، ولا علاقة له بشريعة إبراهيم أو بشريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - ، فقد - تعالى - : « إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه . . . » ،

والمراد بالسبت : اليوم المسمى بهذا الاسم ، وأصله - كما يقول ابن جرير - الهدوء والسكون في راحة ودعة ، ولذلك قيل للنائم مسبوت لهدوئه وسكون جسده واستراحته ، كما قال - جل ثناؤه - : « وجعلنا نوبكم سباتاً ، أى : راحة لأبدانكم . . . » (٢) .

والكلام على حذف مضاف ، والمعنى : « إنما جعل تعظيم يوم السبت ، والتخلي فيه للعبادة ، على الذين اختلفوا فيه ، وهم اليهود ، حيث أمرهم نبيهم موسى - عليه السلام - بتعظيم يوم الجمعة ، فخالفوه واختاروا السبت . »

قال الجبل ما ملخصه : قوله - سبحانه - : « على الذين اختلفوا فيه ، أى : خالفوا فيه » ، حيث أمرهم : أن يعظموا يوم الجمعة بالتفرغ للعبادة فيه ، وشدد عليهم بتحريم الاصطياح فيه : فلبس المراد بالاختلاف أن بعضهم رضى ، وبعضهم لم يرض ، بل المراد به امتناع الجميع - حيث قالوا لا نريد يوم الجمعة ، واختاروا السبت - .

ثم قال : وفي معنى الآية قول آخر . قال قتادة : « إن الذين اختلفوا فيه هم اليهود ، حيث استحل به بعضهم وحرمه بعضهم ، فعلى هذا القول يكون معنى قوله : « إنما جعل السبت . . . » ،

أى : وبال يوم السبت واعنته ، على الذين اختلفوا فيه ، ، وهم اليهود ، حيث استحل به بعضهم فاصطادوا فيه ، فعدبوا ومسوا . . . وثأت بعضهم على تحريره فلم يصطد فيه ، فلم يعدبوا . . . والقرين الأول أقرب إلى الصحة ، (١) وقال الإمام ابن كثير . وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم - أى أهل الكتاب - أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم هذا يومهم ، الذى فرض الله عليهم - أى يوم الجمعة - فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غدا والنصارى بعد غد » (٢) .

ثم بين - سبحانه - حكمه العادل فيهم فقال : « وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » ،

أى : وإن ربك - أيها الرسول الكريم - ليحكم بين هؤلاء المختلفين يوم القيامة ، بأن ينزل بهم العقوبة التى يستحقونها بسبب مخالفتهم لنبيهم ، ولإعراضهم عن صاعته فيما أمرهم به من تعظيم يوم الجمعة .

ويصح أن يكون المعنى : وإن ربك ليحكم بحكمه العادل بين هؤلاء اليهود الذين اختلفوا فى شأن يوم السبت ، حيث استحل به بعضهم ، وحرمه البعض الآخر ، فيجازى كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد مدحت لإبراهيم - عليه السلام - مدحا عظيما ، وذكرت جانباً من المآثر التى أكرمه الله - تعالى - بها ، وبرأته مما ألصقه به المشركون وأهل الكتاب من تهم باطلة ، ودعاوى كاذبة .

ثم ختم - سبحانه - الصورة الكريمة بتلك الآيات الجامعة لأدب الدعوة إلى الله ، والهادية إلى مكارم الأخلاق ، فقال : « تعالى » .

(١) حاشية الجمل على الجلائز ٢ ص ٦٠٥ (٢) تفسير ابن كثير ٢ ص ٥٩١

« ادعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ
لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ
وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَالَّذِينَ
هُمْ أَحْسَنُونَ (١٢٨) » .

والخطاب في قوله - تعالى - : « ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة ، للرسول
- صلى الله عليه وسلم - ويدخل فيه كل مسلم يصلح للدعوة إلى الله - عز وجل -

أى : ادع - أيها الرسول الكريم - الناس إلى سبيل ربك ، أى : إلى
دين ربك وشريعته التى هى شريعة الإسلام ، بالحكمة ، أى : بالقول المحكم
الصحيح ، والموضح للحق ، المزيل للباطل ، الواقع فى النفس أجمل موقع .

وحذف - سبحانه - مفعول الفعل « ادع » ، للدلالة على التعميم ، أى ،
ادع كل من هو أهل للدعوة إلى سبيل ربك .

وأضاف - سبحانه - السبيل إليه ، للإشارة إلى أنه الطريق الحق . الذى
من سار فيه سعد وفاز ، ومن لم يحرف عنه شق وخسر .
وقوله - تعالى - : « والموعظة الحسنه » ، وسيلة ثانية للدعوة إلى الله
- تعالى - .

أى : وأدعهم - أيضا - إلى سبيل ربك بالأقوال المشتملة على العظات
والعبر التى ترقق القلوب ، وتهذب النفوس ، وتقنعهم بصحة ما تدعوهم إليه ،
وترغبهم فى الطاعة لله - تعالى - وترهبهم من معصيته - عز وجل - وقوله
- تعالى - : « وجادلهم بالتي هى أحسن » ، بيان لوسيلة ثالثة من وسائل
الدعوة السليمة .

أى : وجادل المعاند منهم بالطريقة التى هى أحسن الطرق وأجملها ، بأن تكون مجادلتك لهم مبنية على أحسن الإقناع ، وعلى الرفق واللين وسعة الصدر فإن ذلك أبلغ فى إطفاء نار غضبهم ، وفى التقليل من عنادهم ، وفى إصلاح شأن أنفسهم ، وفى إيمانهم بأنك إنما تريد من وراء مجادلتهم ، الوصول الى الحق دون أى شئ سواه .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد رسمت أقوم طرق الدعوة الى الله - تعالى - وعينت أحكم وسائلها ، وأجمعها فى هداية النفوس .

أنها تأمر الدعاة فى كل زمان ومكان أن تكون دعوتهم الى سبيل الله لا الى سبيل غيره ، الى طريق الحق لا طريق الباطل أنها تأمرهم - أيضا - أن يراعوا فى دعوتهم أحوال الناس ، وطباعهم ، وسعة مداركهم ، وظروف حياتهم ، وتفاوت ثقافتهم . . .

وأن يخاطبوا كل طائفة بالقدر الذى تسعه عقولهم ، وبالأسلوب الذى يؤثر فى نفوسهم ، وبالطريقة التى ترضى قلوبهم وعراطفهم .

فمن لم يقنعه القول المحكم ، قد قنعه الموعظة الحسنة ، ومن لم تقنعه الموعظة الحسنة ، قد يقنعه الجدل بالثى هى أحسن .

ولذلك كان من الواجب على الدعاة الى الحق ، أن يتزودوا بجانب ثقافتهم الدينية الأصيلة الواسعة - بالكثير من ألوان العلوم الأخرى كعلوم النفس والإجتماع والتاريخ ، وطبائع الأفراد والأمم . . . فإنه ليس شئ أجمع فى الدعوة من معرفة طبائع الناس وميولهم ، وتغذية هذه الطبائع والميول بما يشبعها من الزاد النافع ، وبما يجعلها تقبل على فعل الخير ، وتدبر عن فعل الشر .

وكما أن أمراض الأجسام مختلفة ، ووسائل علاجها مختلفة - أيضا - ، فكذلك أمراض النفوس متنوعة . ووسائل علاجها متباينة .

فمن الناس من يكون علاجه بالمقالة المحكمة : ومنهم من يكون علاجه بالعبارة الرقيقة الرقيقة التي تهز المشاعر ، وتثير الوجدان ، ومنهم من يكون علاجه بالمحاورة والمناقشة والمناظرة والمجادلة بالتى هى أحسن ، لأن الإنسانية لها كبرياؤها وعنادها ، ولها تتراجع عن الرأى الذى آمنت به . إلا بالمجادلة بالتى هى أحسن . والحق . أن الدعاة إلى الله - تعالى - إذا فقهوا هذه الحقائق فتسلحوا بسلاح الإيمان والعلم ، وأخاضوا الله - تعالى - القول والعمل ، وفظنوا إلى أنجح الأساليب فى الدعوة إلى الله ، وخاطبوا الناس على قدر عقولهم واستعدادهم . . . فنجحوا فى دعوتهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

قال الألوسى : ولما تفاوتت طرق دعوته - صلى الله عليه وسلم - لتفاوت مراتب الناس ، فمنهم خواص ، وهم أصحاب نفوس مشرقة ، قوية الاستعداد لإدراك المعاني ، ودالة إلى تحصيل اليقين على اختلاف مراتبه ، وهؤلاء يدعون بالحكمة .

ومنهم عوام ، أصحاب نفوس كدرة ضعيفة الاستعداد ، شديدة الإلف بالمحسوسات ، قوية التعلق بالرسوم والعادات ، قاصرة عن درجة البرهان ، لكن لاعناد عندهم ، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة :

ومنهم من يهاند ويحدل بالباطل ليدحض به الحق ، لما غلب عليه من تقليد الأسلاف ، ورسخ فيه من العقائد الباطلة ، فصار بحيث لا تنفعه الموعظة والعبر ، بل لابد من إلقان الحجر بأحسن طرق الجدال ، لتلين عريكته ، وتزول شكيمته ، وهؤلاء الذين أمر - صلى الله عليه وسلم - بمجادلهم بالتى هى أحسن ، (١)

وقوله - سبحانه - « إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » ، بيان لكمال علم الله - تعالى - وإحاطته بكل شىء ، وإرشاد للدعاة

في شخص فيهم - صلى الله عليه وسلم - إلى أن عليهم أن يدعوا الناس بالطريقة التي بينها - سبحانه - لهم ، ثم يتركوا النتائج له - تعالى - يسيرها كيف يشاء .

والظاهر أن صيغة التفضيل « أعلم » ، في هذه الآية وأمثالها ، المراد بها مطلق الوصف لا المفاضلة ، لأن الله - تعالى - لا يشاركه أحد في علم أحوال خلقه ، من شقاوة وسعادة ، وهداية وضلال .

ولمعنى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - هو وحده العليم بمن ضل من خلقه عن صراطه المستقيم ، وهو وحده العليم بالمهتدين منهم إلى السبيل الحق وسيجازي كل فريق منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

ومادام الأمر كذلك ، فعليك - أيها الرسول الكريم - أن تصانع في دعوتك إلى سبيل ربك ، الطرق التي أرشدك إليها ، من الحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالنبي هي أحسن ، ومن كان فيه خير - كما يقول صاحب الكشاف - كفاه الوعظ القليل ، والنصيحة البسيرة ، ومن لا خير فيه عجرت عنه الخيل ، وكألك تضرب منه في حديد بارد ، (١) .

وبعد أن بين - سبحانه - أنجمع أساليب الدعوة إلى سبيله في حالة المسألة والمجادلة بالحجة والبرهان ، أتبع ذلك ببيان ما ينبغي على المسلم أن يفعله في حالة الاعتداء عليه أو على دعوته فقال - تعالى - : « وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عاقبتهم به ... »

أي : وإن أردتم معاقبة من ظلمكم واعتدى عليكم ، فعاقبوه بمثل ما فعله بكم ، ولا تزيدوا على ذلك ، فإن الزيادة ظلم يفضيه الله - تعالى - .

ثم أرشدكم - سبحانه - إلى ما هو أسنى من مقابلة الشر بمثله فقال : « ولئن صبرتم لهو خير للصائرين » .

والضمير في قوله « طو » يعود إلى المصدر في قوله « صبرتم » ، والمصدر إما أن يراد به الجنس فيكون المعنى : ولئن صبرتم فالصبر خير للصابرين ، وأنتم منهم .

ولما أن يراد به صبرهم الخاص فيكون المعنى : ولئن صبرتم عن المعاقبة بالمثل ، لصبركم خير لكم ، فوضع - سبحانه - الصابرين موضع لكم على سبيل المدح لهم ، والثناء عليهم بصفة الصبر .

هذا ، وقد ذكر جمع من المفسرين أن هذه الآية الكريمة نزلت في أعقاب غزوة أحد ، بعد أن مثل المشركون بحمزة - رضى الله عنه - .

قال الإمام ابن كثير ماملاخصه : روى الجافظ البزار عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقف على حمزة ابن عبد المطلب حين استشهد . فنظر إلى منظر لم ينظر أوجع للقلب منه .

وقد مثل المشركون به . فقال - صلى الله عليه وسلم - : رحمة الله عليك ، لقد كنت وصولا للرحم ، فغولا للخيرات . والله لولا حزن من بعدك عليك لسنرت أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع . أما والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك . فنزلت هذه الآية . فكفر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن يمينه .

ثم قال ابن كثير بعد روايته لهذا الحديث : وهذا إسناد فيه ضعف لأن أحد رواة وهو دصالح بن بشير المري ، ضعيف عند الأئمة . وقال البخاري هو منكر الحديث .

ثم قال ابن كثير - رحمه الله - : وروى عبد الله بن الإمام أحمد في مسنده أبيه عن أبي بن كعب ، قال : لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون رجلا ، ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لئن كان لنا يوم مثل هذا اليوم من المشركين لتمثلن بهم ، فلما كان يوم الفتح قال رجل : لا تعرف قریش بعد اليوم . فنادى مناد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

وسلم - قد أمن الأبيض والأسود إلا فلانا وفلانا - ناسا سما - ، فنزلت الآية .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : نصبر ولا نعاقب ، (١) .

والذي نراه أن الآية الكريمة - حتى ولو كان سبب نزولها مذكور - إلا أن التوجيهات التي اشتملت عليها صالحة لكل زمان ومكان ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وعلى رأس هذه التوجيهات السامية التي اشتملت عليها : دعوة المسلمين إلى التزام العدالة في أحكامهم ، وحضهم على الصبر والصفا مادام ذلك لا يضر بمصلحتهم ومصلحة الدعوة الإسلامية .

وشبهه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى - : : وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ... ، (٢)

ثم أمر - سبحانه - بالصبر أمرا صريحا ، بعد أن بين حسن عاقبة فقال : واصبروا واصبرك إلا بالله ...

أي : واصبر - أيها الرسول الكريم - على أذى قومه ، وما صبرك في حال من الأحوال بموت نماره المرجوة منه ، إلا بتوفيق الله - تعالى - لك ، وبتيقنه لمالك ، وما دام الأمر كذلك فالجأ إليه وحده ، واستعن به - سبحانه - في كل أمورك ، فلا تستثناء مفرغ من أعم الأحوال .

ثم نهاء - سبحانه - عن الحزن بسبب كفر الكافرين ، فإن الهداية والإصلاح بقدرة الله وحده فقال - تعالى - : : ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون .

أي ولا تحزن بسبب كفر الكافرين ، وإصرارهم على ذلك ، وإعراضهم

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٩٦ .

(٢) سورة الشورى الآية ٤٠ .

عن دعوتك ، ولا يضيق صدرك بمكرهم ، فإن الله - تعالى - ناصرك عليهم ،
ومنجيك من شرورهم .

وقوله - تعالى - : : إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، تعليل
لما سبق من أمره بالصبر ، ومن نهيته عن الحزن وضيق الصدر .

أى : إن الله - تعالى - بمعونته وتأيدته مع الذين اتقوه في كل أحوالهم ،
وصانوا أنفسهم عن كل مالا يرضاه ، ومع الذين يحسنون القول والعمل ، بأن
يؤدوها بالطريقة التي أمر الإسلام بها ، ومن كان الله - تعالى - معه ، سعد
في دنياه وفي آخره .

وقد قيل لبعض الصالحين وهو يحتضر : أوص . فقال : إنما
الوصية من المال . ولأمالى ، ولكنى أوصيكم بالعمل بخواتيم سورة
النحل .

وبعد : فهذه سورة النحل ، وهذا تفسير لها . نسأل الله - تعالى - أن يجعله
خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

محمد طنطاوى

المدينة المنورة : مساء الثلاثاء ٢٧/١٢/١٤٠٣ هـ

الموافق ١٠/٤/١٩٨٣ م

فهرس إجمالى لتفسير « سورة النحل »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة	٣
١	أتى أمر الله فلا تستهجلوه	١٤
٢	ينزل الملائكة بالروح من أمره	
٣	خلق السموات والأرض بالحق	
٤	خلق الإنسان من نطفة	
٥	والأنعام خلقها لكم فيها دفء	
٦	ولكم فيها جمال حين تريحون	
٧	وتحمل أثقالكم إلى بلد	
٨	والخيل والبغال والحمير	
٩	وعلى الله قصد السبيل	
١٠	هو الذى أنزل من السماء ماء	٣٩
١١	ينبت لكم به الزرع والزيتون	
١٢	وسخر لكم الليل والنهار	٢٤
١٣	وما ذرأ لكم فى الأرض	
١٤	وهو الذى سخر البحر	
١٥	والقى فى الأرض رواسى	
١٦	وعلامات وبالنجم هم يهتدون	
١٧	أفمن يخلق كمن لا يخلق	٤٢
١٨	وإن تعدوا نعمة الله	
١٩	والله يعلم ما تسرون	
٢٠	والذين يدعون من دون الله	
٢١	أموات غير أحياء	
٢٢	إلهكم إله واحد	
٢٣	لا جرم أن الله يعلم	

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٢٤	وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم	٥١
٢٥	ليحملوا أوزارهم كاملة	
٢٦	قد مكر الذين من قبلهم	
٢٧	ثم يوم القيامة يخزيهم	
٢٨	الذين تتوفاهم الملائكة	
٢٩	فادخلوا أبواب جهنم	
٣٠	وقيل للذين اتقوا	٦٣
٣١	جنات عدن يدخلونها	
٣٢	الذين تتوفاهم الملائكة	
٣٣	هل ينظرون إلا أن تأتيهم	٦٧
٣٤	دأصابهم سيئات ما عملوا	
٣٥	وقال الذين أشركوا	٦٩
٣٦	ولقد بعثنا في كل أمة رسولا	
٣٧	إن تحصص على هدام فإن	
٣٨	وأقسموا بالله جهد أيمانهم	٧٧
٣٩	ليبين لهم الذي يختلفون	
٤٠	إنما قولنا لشهء إذا أردناه	
٤١	والذين هاجروا في الله	
٤٢	الذين صبروا وعلى ربهم	
٤٣	وما أرسلناك من قبلك إلا	٨٦
٤٤	بالبينات والزبر وأنزلنا	
٤٥	أفامن الذين مكروا السيئات	٩٠
٤٦	أو يأخذهم في تقلبهم	
٤٧	أو يأخذهم على تخوف	
٤٨	أو لم يروا إلى ما خلق الله من شهء	٩٤
٤٩	ولله يسجد ما في السموات	
٥٠	يضاقون وهم من قوله	

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٥١	وقال الله لاتخذوا إلهين	٩٨
٥٢	وله ما في السموات والأرض	
٥٣	وما بكم من نعمة فمن الله	
٥٤	ثم إذا كشف الضر عنكم	
٥٥	ليكفروا بما آتيناكم	
٥٦	ويجملون لما لا يعلمون نصيبا	١٠٤
٥٧	ويجملون لله البينات	
٥٨	وإذا بشر أحدهم بالأنثى	
٥٩	يتوارى من القوم من سوء ما بشره	
٦٠	للذين لا يؤمنون بالآخرة	
٦١	ولو يؤاخذ الله للناس	١١٠
٦٢	ويجملون لله ما يكرهون	
٦٣	نا الله لقد أرسلنا إلى أمم	
٦٤	وما أنزلنا عليك الكتاب	
٦٥	والله أنزل من السماء ماء	١١٨
٦٦	وإن لكم في الأنعام لعبرة	
٦٧	ومن ثمرات النخيل والأعناب	
٦٨	وأرواح ربك إلى النحل	١٢٦
٦٩	ثم كلى من كل الثمرات	
٧٠	والله خافكم ثم يتوفاكم	١٣٢
٧١	والله فضل بعضكم على بعض	
٧٢	والله جعل لكم من أنفسكم	
٧٣	ويسبدون من دون الله	١٣٩
٧٤	فلا تضربوا لله الأمثال	
٧٥	ضرب الله مثلا عبدا مملوكا	
٧٦	وضرب الله مثلا رجلين	
٧٧	ولله خيب السموات والأرض	١٤٧

رقم الآية	الآية للمفسرة	رقم الصفحة
٧٨	والله أخرجكم من بطون	
٧٩	الم يروا إلى الطير مسخرات	
٨٠	والله جعل لكم من بيوتكم	
٨١	والله جعل لكم مما خالق ظلالا	
٨٢	فإن تولوا فإنما عليك	
٨٣	بمرفون نعمة الله ثم ينكرونها	
٨٤	ويوم نبعث في كل أمة شهيدا	١٥٦
٨٥	وإذا رأى الذين ظلموا	
٨٦	وإذا رأى الذين أشركوا	
٨٧	وألحقوا إلى الله يومئذ السلم	
٨٨	الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله	
٨٩	ويوم نبعث في كل أمة	
٩٠	إن الله يأمر بالعدل والإحسان	١٦٥
٩١	وأوفوا بعهدهم إذا عاهدتم	
٩٢	ولا تكونوا كالتي نقضت	
٩٣	ولو شاء الله لجعلكم أمة	
٩٤	ولا تتخذوا أيمانكم دخلا	١٧٦
٩٥	ولا تشتروا بعهدهم ثمنا	
٩٦	ما عندكم ينفد وما عند الله باق	
٩٧	من عمل صالحا من ذكر أو أنثى	
٩٨	فإذا قرأت القرآن فاستمع	١٨٣
٩٩	إنه ليس له سلطان	
١٠٠	إنما سلطانه على الذين	
١٠١	وإذا بدلنا آية مكان آية	١٨٦
١٠٢	قل نزل روح القدس	
١٠٣	ولقد نعلم أنهم يقولون	
١٠٤	إن الذين لا يؤمنون بآيات الله	
١٠٥	إنما يفترون الكذب الذين	

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
١٠٦	من كفر بالله من بعد إيمانه	١٩٢
١٠٧	ذلك بأنهم استحبوا	
١٠٨	أولئك الذين طبع الله	
١٠٩	لا جرم لهم في الآخرة	
١١٠	ثم إن ربك للذين هاجروا	١٩٧
١١١	يوم تأتي كل نفس	
١١٢	وضرب الله مثلا قرية	٢٠٠
١١٣	ولقد جاءهم رسول منهم	
١١٤	فكفروا بما غنمتم حلال طيبا	٢٠٥
١١٥	إنما حرم عليكم الميتة والدم	
١١٦	ولا تقولوا لما تصف السنتكم	٢٠٧
١١٧	متاع قليل ولهم عذاب	
١١٨	وعلى الذين هادوا حرمنا	٢١٠
١١٩	ثم إن ربك للذين عملوا	
١٢٠	إن إبراهيم كان أمة	٢١٤
١٢١	شاكرا لأنعمه اجتنباه	
١٢٢	وآتيناه في الدنيا حسنة	
١٢٣	ثم أوحينا إليك أن اتبع	
١٢٤	إنما جعل السبت على الذين	
١٢٥	ادع إلى سبيل ربك	٢٢١
١٢٦	وإن عاقبتهم فمأقولا	
١٢٧	واصبر وما صبرك إلا بالله	
١٢٨	إن الله مع الذين اتقوا	